تاريخ المصريين

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

مصر في فجر الإسلام

من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية

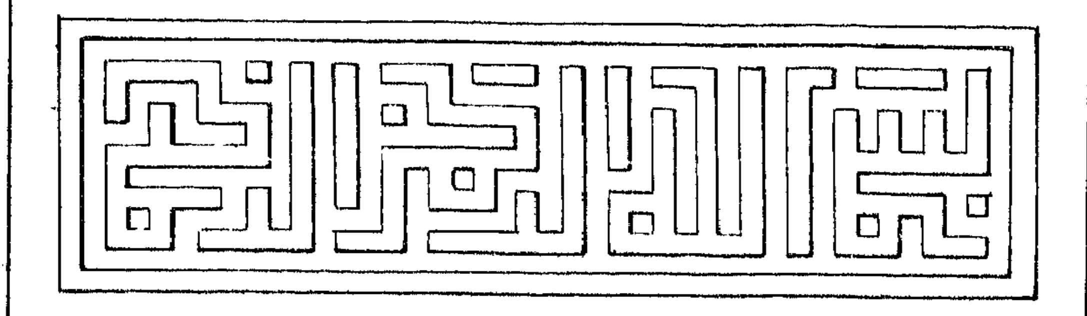
تأليف

سيدة إسماعيل كاشف



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤



تصـــــدير

إن تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية (٢٠ — ٢٥٤ هـ) تاريخ طويل ، يبدو غامضاً فى كثير من الأحيان . وقد دعانى إلى الكتابة فيه أن المؤرخين لم يعنوا بدراسته العناية الجديرة به ، على الرغم من أن له فى تاريخ مصر أهمية حاسمة ، إذ تكونت فيه الأسس التى قامت عليها مصر الإسلامية ، وتحولت مصر خلال هذه الفترة إلى دولة إسلامية الدين عربية اللغة بعد أن تخلت عن ماضيها القديم ، وأصبحت منذ ذلك الحين إلى وقتنا الحاضر ذات شأن عظيم جداً فى الحضارة الإسلامية .

وقد كان لأستاذى الدكتور حسن ابراهيم حسن رئيس قسم التاريخ فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول الفضل فى توجيهى إلى دراسة التاريخ الإسلامى فله على ذلك وعلى ما أفدته من علمه وافر الشكر .

ولن يفوتنى أن أشكر زوجى الدكتور زكى محمد حسن أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة فؤاد الأول ، على ما قدم لى من عون وإرشاد فى تأليف هذا الكتاب ثم فى الإشراف على طبعه .

حمامات القبة بالقاهرة — سيدة اسماعيل كاشف

٩ من شوال سنة ١٣٦٦ هـ

٢٥ من أغسطس سنة ١٩٤٧ م

تقديم

يسرنى أن أقدم للقارئ العزيز هذا الكتاب الرائد عن «مصر فى فجر الاسلام» الذى كتبته الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، أستاذة التاريخ الاسلامى والعصور الوسطى بكلية البنات ـ جامعة عين شمس، وإحدى أعلام التاريخ الإسلامى فى مصر. وقد سبق لهذه السلسلة أن نشرت للأستاذة الدكتورة ثلاثة كتب فى تاريخ مصر الاسلامية، هى مصر فى عصر الولاة، ومصر فى عصر الإخشيديين، ومصر الاسلامية وأهل الذمة.

والكتاب الذى بين يدى القارئ يعالج فى بابه الأول نظم الحكم فى مصر، ويتعرض للنظام المالى، والملكية العقارية، ونظام جباية الضرائب، والنقود الاسلامية. كما يتعرض للنظام الحربى، فيتناول الجيش، والبحرية، وتقاليد المسلمين فى القتال.

أما الباب الثانى فيتناول موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى الخلافة فيتعرض للنزاع الذى قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين، ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثرها فى مصر، وأثر النزاع بين الأمين والمأمون فى مصر، ثم موقف مصر من المحنة بخلق القرآن.

ويتناول الكتاب فى الباب الثالث انتشار الاسلام والتعريب فى مصر، ويتعرض للقبائل العربية فى مصر واندماجها بالمصريين. كما يتناول فى الباب الرابع حضارة مصر فى فجر الاسلام، فيتحدث عن الزراعة والصناعة والتجارة، ثم يتعرض للحركة العلمية والدينية.

ويختتم الكتاب بخاتمة استعرضت فيها الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف تاريخ وحضارة مصر فى تلك الفترة الهامة استعراضا علميا تحليليا على جانب كبير من الأهمية.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب، رأيت إعادة طبعه فى سلسلة «تاريخ المصريين» لإفادة الباحثين والمثقفين والمهتمين بتاريخ مصر الاسلامية. فعسى أن يجد فيه القارئ ما ينشد من متعة وفائدة.

والله الموفق

رئيس التحرير

أ. د. عبد العظيم رمضان

الفهرس

مقدمة

فى الفتح العربى

كانت مصر ولاية رومانية ، ثم بيزنطية منذ انتصار أغسطس قيصر على كليوبترا فى موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق.م واستيلائه على مصر سنة ٣٠ ق.م وقضائه نهائياً على دولة البطالسة فيها . ولا يهمنا فى هذه المرحلة من تاريخها الطويل إلاّ أنها كانت آخذة فى الضعف والانحلال كما أن الإصلاحات التى أدخلت فيها لم تكن لترمى إلا إلى غرض واحد : هو تنظيم استغلال البلاد حتى يعم النفع الكثير الأمبراطورية لا السكان الوطنيين .

ولم يدع الرومان وسيلة إلا ابتكروها لاستغلال موارد البلاد إلى أقصى حد ممكن[1] . ولم تختلف مصر فى هذه الناحية فى العهد البيزنطى (٢٨٤ — ٦٤٠ م) عما كانت عليه فى العهد الرومانى (٣١ ق . م — ٢٨٤ م)[2] بل ازدادت الأعباء المالية تعقيداً . ولم يجد أغلب المصريين مخرجا من هذه الحالة السيئة سوى الفرار إلى المعابد والأديرة وهجر مزارعهم وقراهم ، فانتشرت الفوضى فى البلاد وعم الاضطراب جميع المرافق الاقتصادية

ولا أدل على ذلك من أن قمح مصر الذى كانت روما تعتمد عليه لإطعام أهلها لم يعد يكفى ، وكان لا بد لها من استيراد قمح أفريقية مضافا إلى قمح مصر منذ أوائل القرن الثانى وأوائل الثالث الميلادى[3] . كذلك كان

(١) Johnson : Roman Egypt. vol. 11. p. 484

(٢) Munier : l'Egypte Byzantine. p. 76

(٣) Milne : A History of Egypt Under Roman Rule. p. 60

الشعب المصرى محروما من الاشتراك فى حكم بلاده وكان يعامل معاملة المغلوب على أمره .

ونعرف أن الأمبراطور Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١ م) . منح الاسكندرية وعواصم المديريات مجالس «للسناتو» أثناء زيارته لمصر[١] . ولكن إصلاحه هذا لم يعد على المصريين بالنفع ، ففضلا عن أنه لم يكن لهم حق الاشتراك فى مثل هذه المجالس ، كان الأمبراطور يرمى من وراء هذا إلى تعزيز الوسائل التى تضمن له الحصول على أكثر ما يمكن من الضرائب ؛ وكان عبؤها يقع على كاهل المصريين الوطنيين .

ونعرف أيضاً أن الأمبراطور Caracalla (سنة ٢١١ — ٢١٧م) بمقتضى دستور انطونيتس Constitutio Antoniniana فى سنة ٢١٢ م أكمل إصلاحات سفروس بمنحه الحقوق المدنية الرومانية civitas romana التى كانت تكسب أصحابها امتيازات كثيرة مادية وأدبية لجميع رعايا الأمبراطورية ما عدا طبقة dediticii ، وهذه الطبقة فى مصر كانت تتمثل فى السكان الوطنيين[٢] .

وفضلا عن ذلك فإن اللغة الرسمية للحكومة منذ عهد البطالسة حتى الفتح العربى كانت اللغة اليونانية[٣]

كذلك حرم المصريون من الاشتراك فى جيش بلادهم . وقد استسلم المصريون فى معظم هذه الفترة ، وثاروا أحيانا أخرى .

وكان من أخطر الثورات تلك التى حدثت فى عهد الأمبراطور

---

(١) Jouguet : l'Egypte Gréco-Romaine. pp. 391—395

(٢) Jouguet : l'Egypt Gréco-Romaine pp. 394—395

(٣) Munier : l'Egypte Byzantine p. 89

ماركوس أورليوس Marcus Aurelius (١٦١ — ١٨٠ م) وتعرف بحروب الزراع ، أو الحرب البوكولية نسبة إلى المنطقة التى كانت تعرف باسم Boucolia فى شمال الدلتا[١].

ولكن كان يقضى على هذه الثورات دون هوادة ولم يلبث أن ظهر عامل جديد فى الأفق حوّل الشعب المصرى من شعب وديع مسالم إلى شعب عنيد مقاوم ، ذلك العامل هو ظهور المسيحية فى مصر وانتشارها فيها . فقد كانت مصر فى طليعة البلاد التى تسربت إليها المسيحية فى القرن الأول الميلادى ، وأخذت فى الانتشار تدريجياً فى جميع أنحاء مصر منذ القرن الثانى الميلادى ، إلا أن الأباطرة الوثنيين ناصبوا المسيحية العداء[٢] وكان بدء اضطهاد الحكومة لمسيحيي مصر اضطهادا منظما خلال حكم الأمبراطور Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١ م)[٣] وظلت المسيحية فى مصر تلقى اضطهاداً كثيراً وتسامحاً قليلا إلى أن ولى عرش الأمبراطورية دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) فبلغ اضطهاد المسيحيين أقصاه . وقابل المصريون ذلك الاضطهاد من جانبهم بكل ما أوتوا من قوة وعناد . وقد تولدت من تلك المقاومة حركة قومية أخذت فى النمو فيما بعد . وليس أدل على ذلك من أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها الذى سمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس (٢٨٤م) نتيجة لما ترك هذا الاضطهاد من أثر عظيم فى نفوس القبط[٤].

---

(١) Jouguet : op. cit. p. 369

(٢) Munier : l'Egypt Byzantine p. 8

(٣) Munier : op. cit. p. 8, Milne : A History of Egypt Under Roman Rule. p. 128

(٤) Munier : op. cit. pp. 9—10, Milne: op. cit. p. 218

ولم تلبث المسيحية أن أحرزت نصراً مبيناً لاعتراف الأمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ — ٣٣٧ م) بها دينا مسموحا به ضمن الديانات الأخرى فى الدولة الرومانية . ثم أصبحت المسيحية الدين الرسمى الوحيد فى جميع أنحاء الأمبراطورية الرومانية وذلك فى عهد الأمبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩ — ٣٩٥ م) الذى أصدر مرسوما بذلك فى سنة ٣٨٠ م[١] ولم يلبث أن حرم العبادات الوثنية فى مرسومين أصدرهما سنتى ٣٩٢ و ٣٩٤ م[٢] على أن مصر المسيحية لم تنعم بهذا النصر الذى أحرزه الدين المسيحى إذ ثار النزاع والجدل من أيام قسطنطين الأول ، بين المسيحيين حول صفات المسيح وطبيعته . وقد تدخل قسطنطين ومن أتى بعده من الأباطرة فى هذه المنازعات الدينية البحتة ، وعقدوا من أجل ذلك المجامع الدينية . إلا أن أغلب الأباطرة اتخذوا سياسة دينية مناوئة لمعتقدات المسيحيين فى مصر فاحتدم النزاع بين الفريقين ، وبلغ ذلك النزاع الدينى بين كنيستى الأسكندرية والقسطنطينية أقصاه منذ حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى حينما اختلفت الكنيستان حول طبيعة المسيح . فذهبت الكنيسة المصرية إلى القول بأن للمسيح طبيعة واحدة Monophysite أما كنيسة القسطنطينية فقالت بأن للمسيح طبيعتين . وقد دعا الأمبراطور مرقيان Marcian (٤٥٠ — ٤٥٧ م) من أجل ذلك إلى مجمع دينى فى خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م[٣] فأقر ذلك المجمع مذهب الطبيعتين ، وقرر أن مذهب الطبيعة الواحدة كفر وخروج على الدين الصحيح ، كما قرر حرمان ديسقورس بطرك الإسكندرية من الكنيسة . إلا أن المسألة لم تكن مسألة دينية

(١) Munier : op. cit. pp. 38—39

(٢) Munier : op. cit. p. 37

(٣) Milne : op. cit. p. 221

فحسب ، إذ اتخذ الخلاف الدينى فى مصر شكلا قومياً[١] . فلم يقبل ديسقورس Dioscorus ولا مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية وأطلقوا على أنفسهم « الأرثوذكسيين » (أى أتباع الديانة الصحيحة) ، ولا زالوا يعرفون بذلك الاسم إلى اليوم ، أما أتباع الكنيسة البيزنطيه فقد عرفوا بعد الفتح العربى باسم الملكانيين (من الكلمة العربية « ملك ») لاتباعهم مذهب الأمبراطور[٢] .

ومنذ ذلك العهد تعرف الكنيسة المسيحية فى مصر باسم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، وتعرف أحياناً بالكنيسة اليعقوبية ، نسبة إلى يعقوب البرادعى Jacob Baradeus أسقف مدينة الرها المونوفيزيتى فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى — الذى زار مصر ضمن بلاد الشرق التى زارها لتنظيم الكنائس المونوفيزتية — ولكن يصعب أن نجد اسمه ضمن الحوليات المصرية لأن الأقباط لم يقبلوا تدخل السوريين فى شئونهم الكنسية مثلما تدخلت كنيسة القسطنطينية من قبل[٣] .

ومما يدل على أن المسألة الدينية فى مصر تطورت إلى مسألة قومية أو امتزجت بها ما يذكره ساويرس[٤] عن رهبان أحد الأديرة بأنهم لم يحيدوا عن المذهب الأرثوذكسى ولم يقبلوا المذهب الخلقدونى لأنهم مصريون.

وبعد مجمع خلقدونية وقع المصريون — أبناء الكنيسة الأرثوذكسية — تحت اضطهادات الأباطرة . وقد كتب أملينو[٥] Amélineau أن

(١) Munier : op. cit. p. 45, Wiet : Précis de l'hist. d'Egypte. t. 11 ; p. 116

(٢) Munier : op. cit. p. 48

(٣) Munier : op. cit. p. 63

(٤) سير الآباء البطاركة ص ٩٨ ؛ (Patr. Orient, t. 1) ;

(٥) Etude sur le Christianisme en Egypte. pp. 1 2

حرمان ديسقورس وطرده من الكنيسة فى مجمع خلقدونية كان فاتحة لمأساة عظيمة مثلت أدوارها فى منتصف القرن السابع الميلادى وانتهت بزوال سلطان المسيحية من مصر .

وقد فرح المصريون بثورة هرقل ضد الأمبراطور فوقاس Phocas (٦٠٢ — ٦١٠ م) وساعدوا قائده بيقتاس Nicatas الذى وكل إليه الاستيلاء على مصر لقطع الغلة عن القسطنطينية[١] .

وفرح الشعب المصرى أيضاً عند ما تم تتويج هرقل أمبراطوراً فى سنة ٦١٠ م ورحبوا بمقدم جنوده[٢] ، ولعل المصريين كانوا يعتقدون أن حكم هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) سيكون أخف وطأة من حكم من سبقه من الأباطرة وأنه سيكون خاتمة للاضطهادات وسفك الدماء .

وما لبث الفرس أن غزوا مصر سنة ٦١٦ م فى عهد ملكهم كسرى الثانى[٣] وبقوا سادة البلاد ، إلى أن اضطروا للجلاء عنها عند ما حارب هرقل بلاد الفرس نفسها سنة ٦٢٩ م[٤] .

على أن هرقل بعد أن أنقذ الدولة من الفرس رأى أن ينقذها من الخلاف الدينى فأصدر صورة توفيق Mono Thelma تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعاً بأن له إرادة واحدة ولم يفطن هرقل إلى أن مذهبه الذى حاول به التوفيق قد يأباه أهل مصر[٥] كما أنه وقع فيما وقع فيه جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) من إسناد

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص

(٢) Munier : op. cit. p. 65

(٣) بتلر ص ٦٣ .

(٤) Munier : op. cit, p. 68

(٥) بتلر ص ١٠٥

الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو قيرس[١] الذى يعرف عند مؤرخى العرب باسم المقوقس .

وقد أخذ قيرس المصريين بأحد أمرين إما الدخول فى مذهب هرقل الجديد ، وإما الاضطهاد . وقبل أن يصل هذا الحاكم الجديد إلى الاسكندرية فى سنة ٦٣١ م هرب البطرك القبطى بنيامين توقعاً لما سيحل به وبطائفته من الشدائد من جراء فرض المذهب الجديد[٢] .

وقد قاسى الأقباط جميع أنواع الشدائد من جراء اضطهاد قيرس ، الذى فاق كل اضطهاد ، حتى تحول كثير ممن لم يستطيعوا الهرب إلى المذهب الجديد ومنهم بعض الأساقفة . وصمد كثيرون ضده ومن بينهم الأب مينا أخ البطرك بنيامين رغم التعذيب والاضطهاد الذى ناله من جراء ذلك[٣] .

ومن ذلك نرى « أن سيف قيرس قطع آخر ما كان يربط المصريين إلى الدولة البيزنطية من أسباب الولاء[٤] » وتمهد السبيل بذلك لفتح مصر على يد دولة ناشئة قوية ، تلك هى دولة العرب .

فبعد أن أزال العرب تقريباً ملك الأكاسرة فى فارس عقب انتصارهم فى موقعة القادسية (أواخر سنة ١٦ هـ) ، واستيلائهم على عاصمتهم «المدائن» وبعد استيلاء العرب على بلاد الشام وفلسطين كان لا بد من التفكير فى غزو مصر .

---

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ٢٢٦ Patr. Orient t. I .
يقول ساويرس وأنفذ (يعنى هرقل واليا إلى أرض مصر يدعى قيرس ليكون بطركا وواليا معا) و Milne : op. cit. p. 115 .

(٢) انظر ساويرس بن المقفع : ص ٢٢٦ .

(٣) ساويرس : ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

(٤) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٧٠ .

فنى سنة ١٨ هـ (٦٣٩م) عند ما قدم عمر بن الخطاب إلى الجابية[١] ، للإشراف على آخر ما وصلت إليه الفتوح فى بلاد الشام وفلسطين ، تظهر لأول مرة فى المصادر العربية فكرة غزو مصر كأنها فكرة طارئة عنت لعمرو بن العاص وحسنها للخليفة عمر بن الخطاب[٢] . وهذه المراجع تذكر أيضاً أن الفكرة ترجع إلى عمر بن الخطاب نفسه الذى أمر عمرو ابن العاص بالمسير إلى مصر[٣] ويذكرون أيضاً أن الخليفة عمر بن الخطاب تردد فى فتح مصر بدليل أنه قال لعمرو إنه مرسل إليه كتاباً إن أدركه قبل دخوله فى حدود مصر رجع ثانية وإن كان قد دخل فى حدودها استمر فى سيره[٤] ، ويقال أيضاً إن عمرو بن العاص خرج سراً إلى مصر مع جيش صغير بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب[٥] .

هذه الروايات وأمثالها ، التى ينسجها مؤرخو العرب ، ربما يقصدون منها أن يضموا هالة من العظمة فوق عظمة الفتوحات ، ولكن لا يعقل أبداً أن فتح مصر كان بهذه السهولة وبهذا الاستخفاف ، ولا يعقل أن يسير عمرو إلى مصر سراً بدون استئذان خليفة كعمر بن الخطاب . نعم لعل

---

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق . (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٣) .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة المعهد العلمى الفرنسى) ص ٥١ وتاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٦٨ وخطط المقريزى ج ١ ص ٣٢٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٢ والبلاذرى ص ٢١٢ وابن بطريق ج ٢ ص ١٩ وخطط المقريزى ج ١ ص ٢٨٩ والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ١ ص ٦ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٣ واليعقوبى ص ١٦٨ — ١٦٩ وابن بطريق ج ٢ ص ١٩ والمقريزى ج ١ ص ٢٨٨ وأبو المحاسن ج ١ ص ٦

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٢ وكتاب الولاة للكندى ص ٧ — ٨ والمقريزى ج ١ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

عمرو بن العاص كان يعمل على الحصول على ميدان جديد يظهر فيه نشاطه
ولكن يجب ألا ننسى أن فتح مصر أصبح ضرورة بعد فتح الشام وفلسطين
وذلك لتأمين الفتوح الإسلامية بالشام ولتأمين المدينة نفسها مركز الخلافة
لأنها قريبة من القلزم[١] ، ولا يبعد أن يرسل الروم حملة من تلك الناحية
تنتقم لما حل بممتلكاتها فى الشام . وغالبا ما خضعت مصر والشام فى العصور
المختلفة لحكم دولة واحدة لأن كليهما يتمم الآخر فلا يمكن اعتبار الحدود
بين القطرين حداً منيعاً فاصلا ، كما أن كليهما كان يقع على طريق التجارة
العالمية بين الشرق والغرب ، فكانت تربطهما مصالح تجارية وحربية واحدة .
وقد كتب الأستاذ ليون كايتانى[٢] Leone Caetani أن ثروة مصر
الطبيعية العظيمة حتمت عليها منذ القدم ألا تعيش فى عزلة عن بقية العالم
ولذا نجد مصير مصر السياسى يرتبط دائما بمصير الأمبراطوريات والأمم التى
تسيطر على البحر الأبيض المتوسط وخاصة على سورية وفلسطين .

والواقع أن العرب لم يجهلوا ثروة مصر حينذاك ، خصوصاً وقد جاءها
كثير منهم للإتجار فى أيام الجاهلية نذكر منهم عمرو بن العاص[٣] وعثمان
ابن عفان[٤] والمغيرة بن شعبة[٥] ، ولا بد أن كثيراً من الأعراب والتجار
العرب كانوا يفدون إلى الصعيد بطريق البحر الأحمر ووديان الصحراء
الشرقية حتى أن المؤرخ والجغرافى سترابون قال عن مدينة Koptos قفط

---

(١) القلزم بضم القاف وسكون اللام وضم الزاى وميم هو السويس الحالية .

(٢) Anali dell'Islam, vol. IV. p. 65

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ٥٣ والكندى : كتاب الولاة ص ٦ — ٧ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٢ .

(٥) المرجع نفسه ص ٩٩

فى الصنعيد أنها مدينة نصف عربية[١]

وقبل أن نبين باختصار كيف تم فتح العرب لمصر يجدر بنا أن نذكر أن الجيش البيزنطى فى مصر لم يزد عن ٣٠٫٠٠٠ جندى ، وكانت تعوزه الوحدة والانسجام كما كانت تتقسمه المنازعات والأحقاد الشخصية . ومع أن الجيش كان تحت رئاسة « سيد جنـد الشرق » Magister militum per Orientem ومقره فى القسطنطينية ، لـكنه لم يكن له قائد أعلى فى مصر بل كان يخضع لخمسة قواد كلهم على قدم المساواة . ومما هو جدير بالذكر أن الدولة البيزنطية غيرت سياستها التى اتبعتها فى أول الأمر ، وهى عدم تجنيد المصريين فى الجيش ، إذ دلت أوراق البردى على أن معظم الجنود فى هذا الجيش قبيل الفتح كانوا من الأقباط وأنهم كانوا يجندون إما بالاقتراع أو بالتطوع أو بالوراثة وكان يسمح لهم بالاشتغال بالزراعة أو التجارة كما كانوا يعملون بالقرب من بلادهم ، وكانت مهمة هـذا الجيش الرئيسية هى مسـاعدة الموظفين فى أعمالهم والقضـاء على قطاع الطرق وإخماد الثورات الدينية والاشتراك فى جباية الضرائب[٢] ولنرى الآن كيف تم فتح العرب لمصر .

سار عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين إلى مصر على رأس جيش مكون من أربعة آلاف محارب أو ثلاثة آلاف وخمسمائة[٣] فى سنة ١٨ هـ

---

(١) أنظر : Wiet: Art. Kibt. Enclopaedia of Islam vol. 11. p. 991

(٢) Cf. Munier : l'Egypte Byzantine pp. 77 — 78. Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV, pp. 15—16

(٣) ابن عبد الحـكم : فتوح مصر (طبعة المعهد) ص ٥١ والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٢ وتاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ١٦٨ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٢٨٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٥ — ٦ .

(٦٣٩م) ، ووصل إلى العريش فى أواخر تلك السنة ومنها إلى الفرما[١] فلقى أول مقاومة هناك من الجنود البيزنطية استوقفته شهراً ولكنه تغلب عليها فى أوائل سنة ١٩ هـ (٦٤٠م) ، ثم واصل السير متغلبا على ما يصادفه من مقاومات حتى بلغ أم دنين[٢] حيث نشب قتال شديد بين المسلمين والبيزنطيين الذين تحصنوا فى حصن بابليون[٣] ، ويظهر أن المقاومة البيزنطية فى الحصن كانت على أشدها بدليل أن عمرو استنجد بالخليفة عمر ابن الخطاب فأمده بأربعة آلاف رجل[٤] ويقال إنه أمده باثنى عشر ألفا[٥]

حاصر العرب الحصن بضعة أشهر وأخيراً اختلفت السفراء بين الروم والعرب وقد أصر العرب على ألا يقبل من الروم إلا الدخول فى الدين الإسلامى أو دفع الجزية أو القتال . ولكن الروم المحاربين رفضوا تلك الشروط فاستؤنفت الحرب بين الفريقين ، حتى سلم الروم فى النهاية صاغرين وقبلوا دفع الجزية[٦] ويقال إن العرب فتحوا الحصن عنوة دون أن تحدث مفاوضات وذلك بفضل بسالة الزبير بن العوام[٧] ثم عقد العرب مع المصريين

---

(١) الفرما هى مدينة بلوزيم Pelusium القديمة وكانت على ساحل البحر الأبيض وهى شرقى بورسعيد الحالية .

(٢) فى تاريخ حنا النقيوسى ص ٥٥٧ يذكر اسما آخر لها وهو تندونياس Tendounya وهى تقع فى شمال حصن بابليون

(٣) هو الحصن الذى بناه الأمبراطور تراجان (٩٨ — ١١٧ م) وكان يسميه العرب قصر الشمع أو الحصن .

(٤) تاريخ حنا النقيوسى ص ٥٥٧ وابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة المعهد) ص ٥٦ وخطط المقريزى ج ١ ص ٢٨٩ .

(٥) ابن عبد الحكم ص ٥٩ والمقريزى ج ١ ص ٢٨٩ والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٣ .

(٦) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩٢ .

(٧) البلاذرى ص ٢١٣ — ٢١٥ والمقريزى ج ١ ص ٢٩٠ .

معاهدة أجازها الخليفة عمر بن الخطاب[(١)]

ولم تكن بابليون عاصمة مصر ولكنها كانت أهم مركز فيها نظراً لموقعها على رأس الدلتا وكونها على الطريق الموصل إلى الإسكندرية عاصمة البلاد فى العصر الإغريقى الرومانى .

وبالرغم من هذا الصلح اشترط المقوقس أن لا يبت فى أمر الروم نهائياً إلا بعد أن يكتب إلى هرقل بذلك ، فإن قبل الأمبراطور سرى هذا الصلح عليهم ، وإن لم يقبل عادت الحالة بين الروم والعرب إلى ما كانت عليه .

ويفهم من هذا أن قبط مصر قد أصبح أمرهم مفروغا منه بمقتضى هذا العهد بعكس الروم[(٢)] . ولكن جاء جواب هرقل يلوم المقوقس ويوبخه على تخاذله ويطلب منه أن ينهض هو والروم لمحاربة العرب ، تلك الفئة القليلة ، وألا يرضوا كالقبط بالذلة ودفع الجزية للعرب[(٣)] .

وتجمعت حاميات الروم بالإسكندرية لمحاربة المسلمين ، وسار عمرو ابن العاص لمحاصرتها وأخذ فى هدم المقاومات التى صادفها فى طريقه ، حتى وصل إلى الإسكندرية وألقى عليها الحصار . وقد كان البيزنطيون يدركون أهمية الإسكندرية التجارية والحربية والبحرية ، ويعرفون جيداً أنه إن لم يتم استيلاء العرب على الإسكندرية فلا فائدة من استيلائهم على مصر كلها إذ تظل الإسكندرية شوكة فى جانبهم . ويقال إن هرقل استعد للخروج

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٣ .

(٢) يطلق مؤرخو العرب لفظ روم على حاميات هرقل كما أنهم يستعملون لفظ قبط مرادفا للفظ مصريين (Butler : The Treaty of Misr. p. 29)

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة المعهد العلمى الفرنسى) ص ٦٤ — ٦٥ والمقريزى : خطط ج ١ ص ٢٩٣ .

لمباشرة حرب الإسكندرية بنفسه[١] ولـكنه مات فى ١١ فبراير سنة ٦٤١م (٢٠ هـ)[٢] قبل أن يفعل شيئاً . ويظهر أن مقاومة البيزنطيين فى الإسكندرية كانت عنيدة بدليل استبطاء عمر بن الخطاب للفتح[٣] ، ولا عجب فقد كان الروم مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى إليهم عن هذا الطريق . ويضاف إلى ذلك أن حصون الإسكندرية كانت منيعة ، وكان يحميها من جهة البر الفياض والبحيرات وترعة الإسكندرية[٤] ولـكن ساءت حالة الجيش البيزنطى لتنازع القواد ولانقسام الرأى الإسكندرى أثناء حصار العرب للمدينة[٥] كما اضطربت أمور الدولة البيزنطية نفسها بعد موت هرقل . وقد صدق المؤرخ ابن العميد[٦] إذ قال . « فوهنت شـوكة الروم بموته » إذ ولى الحـكم بعد هرقل ابناه قسطنطين وهرقل الثانى ونصبت الأمبراطورة مارتينة Martine أم ولده هرقل أو هرقلوناس شريكة لهما فى الحـكم[٧] فعملت هذه الأمبراطورة على إنهاء الحرب ، لانشغالها وساسة البيزنطيين بالفتن الداخلية التى قامت من أجل النزاع على العرش ، وصادفت سياستها هوى لدى المصريين وبعض الحـكام البيزنطيين المسيطرين على سير الأمور فى مصر . ويذكر حنا النقيوسى[٨] أن قيرس البطرك الخلقدونى لم يكن هو الذى رغب فى السـلام وحده وإنما رغب فيه السكان

(١) المقريزى ج ١ ص ١٦٤ .
(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٦١ .
(٣) المقريزى ج ١ ص ١٦٥ .
(٤) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٩١ .
(٥) حنا النقيوسى : تاريخ ص ٥٧٠ .
(٦) تاريخ المسلمين ص ٢٤ .
(٧) بتلر ص ٢٦٢ .
(٨) Chronique. p. 573

والحكام ، ودومنتيانوس Domentianus[١] الذى كان مواليًا للأمبراطورة مارتينه ولذا اجتمعوا واتفقوا مع قيرس على إنهاء الحرب بعقد صلح مع المسلمين .

ذهب قيرس إلى بابليون — حيث كان عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين — وهناك طلب الصلح فرحب به عمرو وعقد معاهدة يصح أن نطلق عليها معاهدة بابليون الثانية ، تمييزاً لها عن المعاهدة الأولى، أو أن نسميها معاهدة الإسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الاسكندرية وحاميتها . ومن شروط هذه المعاهدة حسب ما أورده حنا النقيوسى[٢] أن تعقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهراً تنتهى فى أول شهر بابه (يوافق هذا التاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ م وأواخر سنة ٢١ هـ) وفى أثنائها يكف الروم والعرب عن القتال كما يتم جلاء حامية الروم عنها حاملين أمتعتهم وأموالهم . واشترط ألا يعود جيش رومى ثانية إلى الإسكندرية ، وألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا فى أمورهم ، وأن يباح لليهود الإقامة فى الإسكندرية . وضمانا لنفاذ هذا العقد يأخذ المسلمون ١٥٠ من الجند و ٥٠ من غير الجند كرهائن .

ونلاحظ من شروط هذا الصلح أنه عقد فى نوفمبر سنة ٦٤١م (٢٠هـ). وعقب سقوط الاسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجيا إلى سائر الأقاليم فى مصر ويجدر هنا أن نلاحظ قلة ما ذكرته المراجع القديمة عن هذا الامتداد والطريقة التى تم بها . ونلاحظ أيضاً أن السبب الذى حمل العرب على فتح مصر لتأمين فتوحاتهم فى الشام ، جعلهم يتجهون إلى برقة لتأمين مركزهم

(١) دومنتيانوس هو أحد الحكام البيزنطيين فى مصر أثناء فتح العرب لها .

(٢) Chroniqne p. 575.

فى مصر . فنرى عمرو بن العاص – عقب الانتهاء من فتح مصر مباشرة – يسير إلى برقة (انطابلس) فيفتحها ويفرض عليها الجزية[١] ، وفى سنة ٢٢ هـ غزا عمرو طرابلس ويقال إنه غزاها سنة ٢٣ هـ[٢] ، وقد فكر عمرو بعد فتح طرابلس فى غزو بلاد المغرب كلها ، إلا أن عمر بن الخطاب نهاه عن ذلك[٣] ، وربما تخوف الخليفة من تفرق المسلمين فى بلاد كثيرة ولما تثبت أقدامهم فيها بعد .

ويمكننا أن نعتبر فتح برقة خاتمة لفتح وادى النيل كله اللهم إلا إذا تذكرنا تأمين الحدود الجنوبية فإن عمراً لم يغفل تأمين هـذه الحدود فبعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح على رأس حملة إلى النوبة فى سنة ٢٠ هـ ويقال فى سنة ٢١ هـ ، إلا أن تلك الحملة لم تستطع عمل شىء إزاء مقاومة النوبة . فكتب عمرو إلى ابن سعد يأمره بالرجوع[٤] وقد عاد عبد الله بن سعد ثانية إلى غزو النوبة سنة ٣١ هـ أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان . ووصلت حملته إلى دنقلة واشتدت فيها وطأة القتال من الجانبين وانتهت هذه الحملة بعقد هدنة بين مصر وبين ملك النوبة عرفت بالبقط[٥] كانت أشبه

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة توری) ص ١٧٠ — ١٧١ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٧١ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٧٢ — ١٧٣ .
(٤) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٠٠ .
(٥) يقول المقريزى فى الخطط ج ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠ « البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم : فإن كانت هذه الكلمة عربية فهى إما من قولهم فى الأرض بقط من بقل وعشب أى نبذ من مرعى فيكون معناه على هذا نبذة من المال أو يكون من قولهم إن فى بنى تميم بقطا من ربيعة أى فرقة أو قطعة فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه ، ومنه بقط الأرض . فرقة منها وبقط الشيء فرقه ، والبقط أن تعطى الجنة على الثلث أو الربع ، والبقط أيضاً ما سقط من التمر إذا قطع فأخطأ المخرف فيكون معناه على هذا بعض ما فى أيدى النوبة » ولكن =

بمعاهدة سياسية وتجارية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية ، إذ كان أهم ما اشترط فيها ألا يعتدى أحدهما على الآخر ، وأن تؤدى النوبة إلى مصر عدداً معيناً من الرقيق كل سنة ، وأن تؤدى مصر إلى النوبة قدراً معيناً من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة أيضاً[١] .

وينبغى ملاحظة أن فتح مصر النهائى واستخلاصها من أيدى البيزنطيين لم يتم إلا فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) إذ عاود الروم الهجوم على الإسكندرية فى عهد الأمبراطور قنسطانز الثانى[٢] (٦٤١ – ٦٦٨م) (٢١ — ٤٨ هـ) الذى أرسل أسطولا كبيراً هدفه إجلاء العرب عن مصر إجلاء تاماً .

وقد تم استيلاء الجيش البيزنطى على الإسكندرية وزحف من بعدها إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ، وبحرج مركز العرب فى مصر وكان الوالى إذ ذاك عبد الله بن سعد من قبل الخليفة عثمان بن عفان ولذا نجد أهل مصر يسألون عثمان أن يرسل عمراً لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم . وقد تم إجلاء الروم عن مصر على يديه واستولى فى هذه المرة على الإسكندرية عنوة ثم صالح أهلها كما قتل قائد جيش الروم[٣] .

= الأرجح أن كلمة بقط هذه من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عهد أو اتفاق . أنظر C. H. Becker : Islamstudien, I p 150 . وقد قيل إنها مصرية قديمة بمعنى عبد . انظر مادة Bakt فى دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر ابن عبد الحكم (طبعة تورى) ص ١٨٨ — ١٨٩ والكندى : الولاة والقضاة ص ١٢ — ١٣ والمقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) يذكر مؤرخو العرب أن هذه الحملة كانت فى عهد قسطنطين بن هرقل ولكنها كانت فى الواقع فى عهد قنسطانز الثانى حفيد هرقل وابن قسطنطين . أما قسطنطين بن هرقل فقد توفى فى مايو سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) .

(٣) انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها (طبعة تورى) ص ١٧٥ — ١٧٨ والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢١ وتاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٨٩ والكندى كتاب الولاة ص ١١ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٣ ص٦٢ والمقريزى خطط ج ١ ص ١٦٧ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٦

الباب الأول

[illegible]

[illegible] عمرو بن العاص [illegible] معاهدة بابليون الأولى التي عقدت [illegible] استيلاء المسلمين على حصن بابليون سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) . وقد أورد الطبري[1] ومن نقل عنه من المؤرخين مثل ابن خلدون[2] والقلقشندي[3] وأبي المحاسن[4] هذا الصلح ، وهاك نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم[5] . لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب[6] . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصوتهم[7] . فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة ، وإن نقص نهرهم من

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩

(٢) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ١١٥

(٣) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٢٤

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤ – ٢٥

(٥) [illegible] أرض الزراعة [illegible] نهر النيل [illegible] (النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١١) : « [illegible] أنهار [illegible] مصر [illegible] ولا [illegible] » [illegible] نهر النيل [illegible] .

(٦) النوب أهل النوبة

(٧) اللصوت اللصوص

غايته إذا انتهى رفع عنهم بقــدر ذلك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثاً ، فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما فى هــذا الـكتاب ، عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يُغزَوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه . وكتب وردان[1] وحضر . فدخل فى ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح » .

نرى من هــذا الصلح أن المصريين صاروا أهل ذمة يؤدون الجزية ، وأن قيمة الجزية[2] كانت تتوقف على مقدار ارتفاع أو انخفاض ماء النيل فى كل عام ، كما أنها كانت تدفع على ثلاثة أقساط فى السنة . وفيما يختص بالروم فى هــذا الصلح عرفنا فى المقــدمة أن أمرهم كان معلقاً بموافقة الأمبراطور ، ولذا ترك لهم عمرو الخيار فى قبول هذا الصلح . أما أهل النوبة فكانت مسألتهم تختلف عن مسألة الروم إذ كانت النوبة أثناء فتح العرب لمصر مملكة قوية مســتقلة ولربما كانت الإشارة هنا إلى من كان يقيم فى مصر من النوبيين .

---

(١) وردان مولى عمرو بن العاص وحامل لوائه (ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى — ص ٩٣)

(٢) نفهم من لفظ الجزية الذى ورد فى هــذا الصلح أنه يعنى الجزية والخراج معا أى جزية الرؤوس والضريبة العقارية ويلاحظ Van Berchem أن كلمة خراج كانت تعنى أحيانا جزية الرؤوس وأحيانا تعنى ضرائب أخرى تختلف فى طبيعتها عن ضريبتى الرؤوس والعقار . انظر : M. Van Berchem : La Propriété territoriale et l'impôt foncier. p. 21

ويجدر أن نشير هنا إلى ما يراه بتلر من أن صلح بابليون كان يختص بأهل مدينة مصر (بابليون) لا القطر المصرى كله . ويؤيد بتلر وجهة نظره هذه بأنه من عادة العرب عند فتحهم لمدينة مهمة مثل دمشق أو القدس أن يعقدوا صلحاً مع أهلها ، كما أنه فى الوقت الذى عقد فيه هذا الصلح لم يكن قد تم استيلاء العرب على الصعيد أو الوجه البحرى . أما مقدار الجزية الذى جاء فى الصلح وهو ٥٠ مليون دينار[١] فهذا ما يجب استبعاده[٢]. ولكن رأى بتلر يخالف ما ذكرته المصادر القديمة التى أوردت نص هذا الصلح إذ ذكرت هذه المصادر أن أهل مصر كلهم قبلوا هذا الصلح ودخلوا فيه . ونحن نوافق بتلر فى أن مقدار الجزية الذى ذكر فى النص كبير ، بل نستبعد أن يكون قد فرض حتى على مصر كلها ، ولكن هذا الرقم المبالغ فيه ، يرجح أن الصلح والجزية كانا على القطر كله لا على مدينة مصر وقد رأينا أيضاً ما كان لبابليون من الأهمية ، وأنها كانت بمثابة قلب مصر وعاصمتها الحقيقية ، ولو أن العاصمة الفعلية كانت الإسكندرية . وحوادث التاريخ ترينا أنه إذا سقط قلب الدولة كان ذلك معناه سقوط الدولة كلها ، مثل سقوط روما سنة ٤٧٦ م الذى كان إيذاناً بسقوط الدولة الرومانية الغربية فى أيدى البرابرة ، وسقوط باريس فى سنة ١٨٧٠ م الذى كان إيذاناً بسقوط فرنسا فى أيدى الألمان .

---

(١) لم يذكر فى نص الصلح إذا كانت الجزية بالدينار أو الدرهم وإنما ذكر الرقم فقط وهو ٥٠ مليون ولكننا نعلم أن العرب كانوا يجبون الضرائب من مصر بالدينار لا بالدرهم (أنظر المقريزى : النقود الأسلامية ص ١١)

(٢) Butler: The Treaty of Misr. pp. 25-26, 47-48

١ — النظام الإدارى

لما فتح العرب مصر وجدوا بها نظما قامت منذ أقدم الأزمنة ونمت وترعرعت فى خلال العصور المختلفة ، فقضت عليهم الحنكة السياسية ألا يمسوا تلك النظم ، بل أبقوا عليها كما فعل الرومان من قبلهم عند ما كانوا يحتلون بلاداً راقية فى نظمها متقدمة فى حضارتها . واكتفى العرب بشغل بعض المناصب الرئيسية ، ليشرفوا على الإدارة بوجه عام .

كان الخليفة يعين فى مصر واليا يمثله ، ويقال ولاية عمرو بن العاص مثلا أو ولاية عبد العزيز بن مروان ، ويقال للوالى أيضاً « أمير مصر » وللدار التى يقيم فيها والى مصر « دار الإمارة » . ونجد فى أوراق البردى اليونانية اسم آخر للوالى هو سيمبولس δυμβουλος[١] .

وكان الوالى يؤم المسلمين فى المسجد الجامع فى صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائباً عن الخليفة ، ولذا يطلق عليه أمير الصلاة ، ويقال عن ولايته ولاية الصلاة . وإذ كان المسلمون يعتبرون أن إمامة الصلاة مما يختص به الخلفاء ، ويطلقون على الخليفة لفظ إمام ، كانت إمامة الوالى فى الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالى وعلى رئاسته العليا السياسية فى الدولة . ولم يكن الوالى مسئولا أمام أحد عن عمله إلا أمام الخليفة . وكان يجمع أحياناً إلى سلطته إدارة المالية المعبر عنها بالخراج مما يحمله مطلق التصرف فى الدولة ، وأحياناً يسند الخليفة عمل الخراج إلى شخص آخر يكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ، وكان هذا يحد سلطة الوالى كثيراً إذ يصبح عاجزاً عن التصرف فى الأمور المالية كما يشاء . ولذا كان لعامل

---

(١) Grohmann: Arabic Papyri vol. 111, p. 62

الخراج أهمية كبيرة وكثيراً ما يكون منافساً للوالى مع أن الوالى هو رئيس الولاية بالنيابة عن الخليفة . وحسبنا دليل على أهمية عامل الخراج من أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الإسكندرية سنة ٢٥ هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمراً على الحرب (أى يوليه على الصلاة) وأن يولى عبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو « أنا إذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها[١] » . ورفض ما أراد عثمان بن عفان وترك ولاية مصر .

ونتبين أيضا تلك الأهمية التى كانت لعامل الخراج من أنه بعد وفاة عمرو ابن العاص ، عين معاوية بن أبى سفيان (٤٠ — ٦٠هـ = ٦٦٠ — ٦٨٠م) أخاه عتبة بن أبى سفيان (٤٣ — ٤٤هـ) واليا على الصلاة فى مصر وولى وردان الخراج ، ثم خرج عتبة بن أبى سفيان إلى معاوية فى نفر من أهل مصر ، فسأل معاوية الوفد عن عتبة ، فقال أحدهم « حوت بحر يا أمير المؤمنين على بر » . فقال معاوية لعتبة : اسمع ما يقوله فيك رعيتك . فقال : صدقوا يا أمير المؤمنين حجبتنى عن الخراج ولهم على حقوق وأكره أن أجلس فأسأل فلا أفعل فأبخل . فضم إليه معاوية الخراج[٢] .

ولعل أبلغ مثل يرينا مدى ما وصلت إليه سلطة عامل الخراج ، هو عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج فى مصر زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥هـ) ، فقد ظل عاملا على خراج مصر منذ ولى هشام الخلافة حتى خرج إلى إمارة أفريقية فى سنة ١١٦ هـ[٣] أو سنة ١١٤ هـ[٤] ، وفى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٧٨

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة المعهد العلمى الفرنسى — ص ٧٨

(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٢٠٨

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٧٣

خلال هذه المدة تتابع على حكم مصر خمسة ولاة[١] ، وقد امتد نفوذه إلى عزل الولاة وتوليتهم برضى الخليفة . فنراه عندما تنازع مع الحر بن يوسف والى مصر سنة ١٠٨ هـ يكتب إلى الخليفة هشام يشتكيه ؛ وسرعان ما عزل الخليفة الحر عن ولاية مصر ، وولى بدله حفصا بن الوليد على الصلاة ، ولكن عبيد الله بن الحبحاب كتب إلى الخليفة يقول « إنك لم تعزل الحر إذ وليت حفصا » . فجعل الخليفة الاختيار إلى عبيدالله فاختار عبد الملك بن رفاعة[٢] .
وقد ولى مصر بعد عبد الملك بن رفاعه هذا ، أخوه الوليد بن رفاعة ، (١٠٩ — ١١٧ هـ) ويقول أبو المحاسن [٣] : « ولم تطل مدة الوليد هذا على مصر إلا لخروج عبيد الله بن الحبحاب المتولى على خراج مصر منها ، وقد تقدم عزل جماعة كبيرة من العمال بمصر بسبب عبيد الله المذكور ، فدبر عليه الوليد هذا حتى أخرجه هشام من مصر واستعمله على أفريقية ، فسار إليها عبيد الله بن الحبحاب واشتغل بها عن خراج مصر » . ولعل من أسباب نفوذ ابن الحبحاب أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل .

وكان بيد الوالى أيضا الحرب أى الرئاسة على الجيش فى الولاية ، ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا : ولى فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر[٤] . فوالى مصر كان يشرف على شئون الحامية الموجودة فى مصر ، وكان يقود بنفسه الجيش فى الحملات التأمينية لمصر أو لصد الأعداء عنها ، أو يرسل من يقوده نيابة عنه . ومثل تلك الحملات كانت بوجه خاص فى السنوات الأولى

(١) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ٧٢ — ٧٦
(٢) الكندى ص ٧٤ — ٧٥
(٣) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٦٦
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٧٨ وطبعة المعهد ص ٧٨

بعد الفتح ، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة وطرابلس ، كما أرسل عبد الله بن سعد لفتح النوبة ، وكذلك خرج عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر على رأس الحملات التى سارت لغزو أفريقية والنوبة[١] كما غزا الروم فى غزوة ذى الصوارى . وفى ولاية عتبة بن أبى سفيان (٤٣ — ٤٤هـ) عندما شكا قائد رباط الإسكندرية من قلة من معه من الجنود خرج عتبة ورابط فيها وذلك فى سنة ٤٤ هـ[٢] كذلك خرج الحر بن يوسف فى ولايته على مصر مرابطا فى دمياط ثلاثة أشهر من سنة ١٠٧هـ[٣]. كما نرى قرة بن شريك يطلب من صاحب كورة كوم اشقاو أن يعجل فى إرسال المال المفروض على كورته ليأمر للجند بعطائهم[٤] ، ونجده أيضا يهتم بالإشراف على الأدوات اللازمة لتنظيف وتجهيز مراكب الأسطول ويهتم بالمؤن التى يحتاجها بحارة الأسطول[٥] كما يشرف على أجور البحارة الذين يخرجون مع الأسطول للغزو[٦] .

وللوالى أيضا الإشراف على الشرطة ، وكان مقرها مدينة الفسطاط التى بناها عمرو بن العاص . ولما بنى العباسيون مدينة العسكر التى كانت تقع شمالى الفسطاط عملت شرطة أيضا فى العسكر وقيل لها الشرطة العليا[٧] ، وربما وصفت بالعليا لأهميتها . وكان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة كما ورد

---

(١) الكندى ص ١٢

(٢) الكندى ص ٣٦

(٣) الكندى ص ٧٤

(٤) Grohmann: Arabic Papyri. vol. III. pp. 12-13. Becker: Neue Arabische Papyri. Der Islam. II. pp. 251-252

(٥) Bell: Translations of the Greek Aphrodito Papyri. II. p. 277

(٦) Bell : op. cit. II, pp. 375 - 376

(٧) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٠٤

في المصادر القديمة ، مثل كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى وكتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن . وفي حالات نادرة جدا كان الخليفة هو الذى يعين صاحب الشرطة ، ومن ذلك ما كان من الخليفة المأمون حين عين صاحب الشرطة بمصر بعد ماقضى على الثورة التى كانت فيها سنة ٢١٧هـ[١] وصاحب الشرطة هذا كان بمثابة نائب للوالى يؤم الناس في الصلاة إذا مرض الوالى ، ويحكم الولاية إذا خرج الوالى من مقر ولايته . فنرى خارجة بن حذافة صاحب الشرطة يؤم الناس في الصلاة أثناء مرض عمرو بن العاص[٢] ، ونرى عابس بن سعيد المرادى صاحب الشرطة ينوب عن عبد العزيز بن مروان والى مصر في حكم البلاد عند خروجه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٦٧ هـ[٣] . ولذا نجد أن صاحب الشرطة كثيرا ما يعينه الخليفة واليا على البلاد إذا ماعزل الوالى أو مات أو تنحى عن أمور الولاية . فمثلا كان حفص بن الوليد على شرطة مصر قبل إن يلى على صلاة مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك[٤] . وتكاد المراجع العربية لا تذكر شيئا عن أعمال الشرطة في مصر ، ولكن لابد أن الولاة كانوا يعهدون إلى صاحب الشرطة بتنفيذ العقوبات التأديبية التى يفرضونها وبنشر الأمن في البلاد ، كما كانت وظيفة صاحب الشرطة في الخلافه نفسها ، ولا بد أنه كان لصاحب الشرطة عمال في العاصمة وفي الأقاليم لتنفيذ أوامره ونلاحظ أن استتباب الأمن في

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ١٩٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٠٥ والكندى ص ٣١ — ٣٢

(٣) كتاب الولاة للكندى ص ٤٩

(٤) الكندى ص ٧٤ — ٧٥

مصر وتطبيق القوانين فيها وتنفيذ الأحكام القضائية ومنع الجرائم، كل ذلك كان يضمن للخلافة استغلال موارد البلاد على أتم وجه ويضمن لها أكثر ما يمكن من الضرائب . ويظهر أن المصادر القديمة ترجع دائما استتباب الأمن فى البلاد إلى الولاة لا إلى أصحاب الشرطة لأن الوالى هو الرئيس الأعلى فى الولاية وهو الذى يأمر صاحب الشرطة بذلك ، فمثلا نسمع فى عهد ولاية يحيى بن داؤد الخرسى الشهير بابن ممدود والذى يعرف بأبى صالح (١٦٢ — ١٦٤هـ) أنه لما قدم إلى مصر وجد بها السبل مخيفة ، لكثرة المفسدين وقطاع الطرق ، فأخذ فى قمع المفسدين وأبادهم وقتل منهم جماعة كثيرة . وقد بلغ من استتباب الأمن أنه منع غلق الأبواب والحوانيت ليلا حتى جعلوا عليها شرائج[1] القصب والشباك لمنع الكلاب من دخولها ليلا ، كذلك منع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال : من ضاع له شىء فعلى أداؤه ؛ فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول : « يا أبا صالح احفظها[2] » .

وبالطبع كل هذه الأشياء لم يقم بها أبو صالح ، وإنما قام بها صاحب الشرطة وأعوانه ، ولكن الوالى كان هو الآمر الناهى ، وكانت الأحوال فى مصر تتوقف على درجة حزمه وشدته أو لينه وضعفه .

كذلك كان أصحاب الشرطة يهتمون بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق ، ففى ولاية مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣ هـ نراه يتشدد فى نشر الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد « ثم التفت إلى أرخوز[3] (صاحب

---

(١) شرائج جمع شريجة وهى باب من القصب يعمل للدكاكين
(٢) الكندى ص ١٢٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٤٤
(٣) فى الكندى أزجور ص ٢١٠

شرطته) وحرصه على أمور أمره بها ، فشدد أرخوز الذكور عند ذلك ومنع النساء من الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح[١] » .

ومن الوظائف الرئيسية الهامة فى تلك الفترة أيضاً وظيفة صاحب البريد ولم تكن تلك الوظيفة قائمة فى عهد الخلفاء الراشدين ، إنما بدأتها الدولة الأموية ثم تقدم نظام البريد فى عهد الدولة العباسية . ويقال إن معاوية بن أبى سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة ، وتبعه فى ذلك الأمويون ومن بعده العباسيون ، ولذا نجدهم يهتمون بعمارة الطرق لتقصير المسافات ولوصول الأخبار بسرعة .

وقد وصلت الينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان(٦٥ — ٨٦هـ) ، كشفت بالقرب من بيت المقدس وتشير إلى أوامره بصنعة الأميال[٢] وبعمارة أربعة طرق تخرج من إيلياء[٣] ومن دمشق[٤] . وقد اهتم العباسيون اهتماماً كبيراً بالطرق حتى أصبحت بغداد مركزاً تتشعب منه الطرق إلى جميع الجهات ، فكانت جميع الطرق تؤدى إلى بغداد كما كانت جميع الطرق تؤدى إلى روما . هذا ، ولم يكن البريد نظاماً يستعمله الشعب إنما كان نظاماً رسمياً حكومياً ، ويظهر أن الخلفاء استعملوا نظام البريد فى

---

(١) أبو المحاسن جـ ١ ص ٣٣٧

(٢) صنعة الأميال هى مسح الأراضى لوضع حدود على كل مسافة قدرها ميل .

(٣) أيليا هى بيت المقدس (معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ٤٢٤)

(٤) van Berchem, Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum (Jérusalem t. 1; pp. 20, Répertoire Chronologique d'epigraphie Arabe. t. 1. pp. 18—16

أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة ولتلق الأخبار ثم ما لبث هذا النظام أن تطور واستعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاة الأقاليم وعمالها[1]. ولم أجد فى المصادر القديمة ذكراً لأصحاب البريد الموفدين من الخلفاء إلى مصر اللهم إلا فى موضع أو موضعين ، فيذكر الكندى فى كتابه الولاة والقضاة أن صاحب البريد بمصر كتب إلى الخليفة المتوكل بأمر يتعلق بأحد الجند[2] ، وفى موضع آخر يذكر أن صاحب البريد فى مصر فى ولاية داود بن يزيد بن حاتم (١٧٤ — ١٧٥ هـ) أراد أن يتدخل فى عمل قاضى مصر إذ ذاك أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى فلم يكن من القاضى إلا أن استعفى عن القضاء[3] ويظهر أن إغفال ذكر أصحاب البريد فى تلك المصادر راجع إلى أن مهام وظيفتهم كانت تعنى الخلافة وتعنى عمال الخليفة أكثر مما تعنى مصر نفسها .

تحدثنا حتى الآن عن الوظائف الرئيسية التى كانت وقفا على الفاتحين ،

---

(١) كان أبو جعفر المنصور يقول . ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم فقيل له يا أمير المؤمنين من هم قال . هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن البريد لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة وهى ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى ، والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة . آه آه قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال . صاحب بريد يكتب إلىّ بخبر هؤلاء على الصحة . الطبرى جـ ٩ ص ٢٩٧ — ويقول قدامه بن جعفر فى كتاب الخراج عند كلامه على ديوان البريد ص ١٨٤ — ١٨٥ : «والذى يحتاج إليه فى صاحب هذا الديوان هو أن يكون ثقة إما فى نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته ، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافى المتصفح وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ »

(٢) ص ٢٠٣

(٣) ص ٣٨٤

وسنتحدث عن وظيفة القاضى فى فصل آخر ، وفيما عدا ذلك أبقى الفاتحون معظم الأنظمة الموجودة كما تركوا الوظائف والأعمال فى يد أهل البلاد .

وكانت مصر بعد الفتح مباشرة مقسمة إداريا إلى قسمين رئيسيين مصر العليا ، ومصر السفلى . فيذكر ابن عبد الحكم[١] أن الخليفة عمر بن الخطاب توفى وعلى مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الأرض[٢] ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح على الصعيد . ولسنا نظن أن هذا البعد عن الدقة من ابن عبد الحكم ينقض ما نعرفه من أن عمرو بن العاص كان الرئيس الأعلى وكانت له ولاية مصر كلها . ويذكر الكندى[٣] أنه فى ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر (١٢٤ — ١٢٧هـ) جعل على الصعيد رجاء بن الأشيم وعلى أسفل الأرض فهد بن مهدى الحضرمى .

من هذا يتبين أن مصر كانت مقسمة إداريا إلى مصر العليا والسفلى ، وهذان القسمان الرئيسيان كانا مقسمين إلى أقسام أو كور ، ويقال إنه كان بها ثمانون كورة[٤]، وهذه كانت مقسمة بدورها إلى قرى . ولفظ كورة مشتق من الاسم اليونانى χωρα كورة التى لم تكن شيئا آخر سوى الأقاليم المعروفة فى العهد البيزنطى باسم بجارشى pagarchie أى أن العرب احتفظوا بنظم

(١) فتوح مصر وأخبارها — طبعة تورى — ص ١٧٣

(٢) أسفل الأرض أى مصر السفلى أو الوجه البحرى . وكان مقسما جغرافيا إلى الحوف الشرقى شرقى فرع دمياط والحوف الغربى غربى فرع رشيد وبطن الريف بين فرعى رشيد ودمياط (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨٠ — ٣٩٠)

(٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٨٤ .

(٤) ابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص٢ والمقريزى : خطط ج ١ ص ٢٦ .

البيزنطيين الإدارية وكان على رأس الكورة « صاحب الكورة » وهذا اللقب ترجمة مضبوطة للفظ اليونانى بجاركوس[1] παγαρχος فنجد مثلا قرة بن شريك والى مصر زمن الوليد بن عبد الملك (٩٠— ٩٦هـ) يرسل كتابا إلى بسيل صاحب اشقوه[2] وفى كتاب آخر يخبر صاحب الكورة بأن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية إلى جسطال كورته وإلى موازيت القرى[3] . وهنا مرة أخرى نجد كلمتين غريبتين على اللغة العربية ! فكلمة جسطال هنا بمعنى الموظف المشرف على مالية الكورة أى مندوب ديوان الخراج والأموال ، أما موازيت فمناها رؤساء أو مشايخ القرى . ويرى الأستاذ جاستون ڤييت[4] G Wiet أن كلمة جسطال مقابلة للكلمة البيزنطية أو جستاليوس αυγυδταλιος ، وأن كلمة ما زوت مقابلة للكلمة البيزنطية ميزوتروس μειζοτερος .

ومما سبق نتبين إلى أى حد أبقى العرب على النظم التى وجدوها فى البلاد ، بل أبقوا على الأسماء كما كانت من قبلهم . ومع أن مصر كانت مقسمة إداريا إلى هذه الأقسام ، فقد كانت جميعها تحت سلطة الوالى العليا مباشرة ، ولم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم وللاستقلال محليا بأمور إقليمهم ، فكان الحكم فى مصر مركزيا إلى أقصى حد ،

(١) Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte t. 11, n. 127

(٢) Becker; Neue Arabische Papyri pp. 251-252, Grohmann, Arabic Papyi, vol. III p. 12
اشقوه كانت كورة من كور الصعيد وهى الآن كوم اشقاو بين أبو تيج وطهطا فى مديرية أسيوط وقد عثر فيها سنة ١٩٠١ م على مجموعة من الأوراق البردية التى ألقت شعاعا من النور على حكم قرة بن شريك فى مصر .

(٣) Becker : op. cit. pp. 254. Grohmann, op. cit. p. 17

(٤) Précis de l'hist. d'Egypte. t. 11; p. 127

وكانت اللامركزية معدومة فى البلاد ، فنجد أن الوالى كان تحت سلطة الخليفة مباشرة نرى الوالى بدوره يضع رؤساء الأقاليم المختلفة تحت سلطته مباشرة . ولقد ألقت أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقاو شعاعاً من النور على حكم الولاة فى مصر ، وخاصة فى العهد الأموى ، وبوجه أخص فى عهد ولاية قرة بن شريك (٩٠ — ٩٦هـ) إذ عرفنا من تلك الأوراق إلى أى حد كانت تمتد سلطة الوالى فى الأقاليم ، فنراه يرسل كتباً كثيرة إلى عماله يطلب منهم ما تجمع من الضرائب ، وفى الوقت نفسه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل بين الناس ولا يفعل شيئاً يكرهونه[١] ، ثم نرى الوالى يرسل إلى صاحب الكورة يذكر له أن صاحب البريد أخبره بأنه أوقع الغرامة على بعض القرى ويطلب من صاحب الكورة أن يرد ما كان قد حمله حتى يكلمه فى هذا الأمر[٢] . وهنا مرة أخرى نرى أنه كما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالى ، كان للوالى أيضاً صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم فى مصر . وفى كتاب آخر نجد قرة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة اشقوه بشأن أحد الأفراد الذى أعطى مالا لآخر ، ويطلب منه أن ينظر فى أمر تسديد الدين الذى لأحدهما على الآخر[٣] . ونجد أيضاً كتابا لقرة يأمر فيه بالقبض على أحد المجرمين[٤] . وفى كتاب آخر نراه يحدد أجور الصناع الذين يعملون فى بناء السفن ولا يترك تحديد ذلك لصاحب الكورة التى منها الصناع[٥]

(١) Becker : Neue Arabische Papyri. pp. 247 248, Grohmann Arabic Papyri vol. III. pp. 3 5

(٢) Grohmann : Arabic Papyri. vol. III. p. 28

(٣) op cit pp. 30 31

(٤) van Berchem Une Page Nouvelle de l'Histoire d'Egypte p. 161

(٥) Bell . Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam, Band II) p. 271

هذه كلها أمثلة ترينا إلى أى حد تغلغلت سلطة الوالى فى شئون البلاد المختلفة وحتى فى أمور القضاء الذى كان يعتبر مستقلا ، كان الوالى فى أوقات كثيرة هو الذى يعين القاضى ويصدق الخليفة على هذا التعيين . وقد احتاج الوالى تبعاً لذلك إلى كتبة كثيرين ليستعين بهم فى تحرير رسائله إلى مختلف الجهات فى مصر وإلى الخليفة نفسه . ولذا نرى فى آخر الكتب التى كان يرسلها الولاة أسماء الكتبة الذين كانوا يحررونها[١] ، مما يدل على أنه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان إنشاء . ويشير القلقشندى[٢] إلى وجود ديوان إنشاء فى ذلك العهد من الفتح إلى بداية الدولة الطولونية ، إلا أنه يذكر أنه كان قليل الأهمية فيقول : « ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تنصرف الهمم لتدوينه » .

وقد كان والى مصر بعد الفتح ومنذ ولاية عمرو بن العاص الأولى عليها يشرف أحيانا على بلاد برقة وما يليها من شمال أفريقية ، إذ نجد إشارات كثيرة خلال المصادر القديمة تبين سلطة والى مصر وإشرافه على عمال برقة والمغرب وعلى الجيوش المرسلة إلى هناك ، فنرى مثلا أن عبد العزيز ابن مروان والى مصر (٦٥ — ٨٦ ﻫ) يقع سوء تفاهم بينه وبين حسان ابن النعمان الغسانى الذى قدم من الشام ليتولى أمر جيوش المغرب ، فيعزله ويولى

---

(١) Grohmann : op. cit. pp. 5,8, 13, 20, etc

(٢) صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٨

موسى بن نصير أمر المغرب[١] . كذلك نرى صالح بن على بن الله العباسى فى ولايته الثانية على مصر (١٣٦ — ١٣٧ هـ) يولى أبا عون على جيوش المغرب[٢] .

على أن هذا الإشراف الذى كان لولاة مصر لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالها وولاتها . ولـكن كانت تضم برقة والمغرب أحيانا تحت سلطة والى مصر مباشرة ، فقد جمع لمسلمة بن مخلد والى مصر (٤٧ — ٦٢ هـ) أمر مصر والمغرب[٣] ، كما امتدت سلطة صالح بن على فى ولايته الثانية على مصر الى المغرب وفلسطين[٤] ، ونجد الخليفة أبا جعفر المنصور يضم إلى والى مصر يزيد بن حاتم (١٤٤ — ١٥٢ هـ) برقة بالإضافة إلى مصر[٥]

ونلاحظ أن ولاة مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين كانوا من العرب ، ولا عجب فقد كان معظم الوظائف الـكبرى فى الدولة الإسلامية حينئذ للعرب دون سواهم .

وقد أعطى الخلفاء الأمويون لعمالهم على الولايات قسطاً كبيراً من الحرية ولذا ظهر فى الدولة الأموية شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى وخالد بن عبد الله القسرى وعبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير وغيرهم . وفى عهد الدولة الأموية فى مصر نجد معاوية يولى عمرو بن العاص صلاة مصر وخراجها ويجعلها طعمة له بعد عطاء جندها والنفقة على إدارتها ، فظل عمرو من سنة ٣٨ هـ إلى سنة

---

(١) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٥٢ — ٥٣
(٢) الـكندى ص ١٠٢
(٣) الـكندى ص ٣٨
(٤) الـكندى ص ١٠٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣٢٨
(٥) الـكندى ص ١٠٢ وأبو المحاسن جـ ٢ ص ٣

٤٣ هـ حين وفاته . ونجد مثلا مسلمة بن مخلد يظل والياً على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ — ٦٢) وتوفى هو وال عليها ، وكذلك عبد العزيز بن مروان يظل فى ولايته على مصر حوالى إحدى وعشرين سنة (٦٥ — ٨٦ هـ) وتوفى وهو وال عليها ، وكان عبد العزيز شبه ملك مستقل فى حكم البلاد من مقره فى الفسطاط أولا ثم فى حلوان التى أمر ببنائها فى سنة ٧٠ هـ ، واتخذها عاصمة له على أثر وقوع الطاعون بمصر [1] أو على أثر مرضه بالجذام [2]

وفى العصر العباسى يتغير الحال ؛ فالدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ولذا نجد بين ولاة مصر من قبل خلفائها بعض ولاة من عناصر فارسية . وكان آخر وال عربى على مصر عنبسة بن إسحق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) [3] على أنه ظهر عنصر جديد فى الدولة العباسية اعتمد عليه الخلفاء وهو عنصر الأتراك . وقد بدأ الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) سياسة الاعتماد على الأتراك والاستكثار منهم ، إذ رأى فيهم قوما يحبون القتال والحرب وليست لهم عصبية العرب وليس لهم وطن قديم يريدون إحياءه كالفرس . وسرعان ما تغلغل الأتراك فى الدولة وأصبحت بيدهم شؤونها الحربية والمدنية . ونجد مصر تتأثر بتلك السياسة أيضاً فيليها ولاة من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التركى (٢٤٢ — ٢٥٣ هـ) [4]

(١) الكندى ص ٤٩ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٢٠٩ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٧٣ .

(٢) أبو صالح الأرمنى : كنائس وأديرة مصر ص ٦٦ وسعيد بن بطريق : التاريخ المجموع جـ ٢ ص ٤٠ .

(٣) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ٢٠٢ وخطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٩٤ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٠٠ .

(٤) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ٢٠٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٠٨

وأهم ما نلاحظ فى حكم مصر فى العصر العباسى كثرة تغيير الولاة ، وقد يكون هذا راجعاً إلى بعد مقر الخلافة العباسية (أعنى بغداد وسامرا) عن مصر ، فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاة مصر فى الحكم طويلا لئلا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد . وقد يكون ذلك راجعاً أيضا إلى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيق بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية ، وخاصة منذ عهد المعتصم ، ولذا عنى هؤلاء الخلفاء بتولية ولاة كثيرين فى مدد متقاربة قصيرة كيلا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمكين لنفسه فيها ، كما استخدموا البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاة .

على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق نتيجة لسياسة الإقطاع التى اتبعتها ، فمنذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) إتبع الخلفاء العباسيون سياسة إقطاع بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات على أن يؤدوا مالا معيناً للخلافة .

ولا ريب فى أن النظام الإقطاعى فى الشرق كان يختلف اختلافا كبيراً عنه فى الغرب ، ولعل أكبر فرق بين النظامين الشرقى والغربى أن الإقطاع الأوروبى كان يتوارث فى أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة أما فى الشرق فلم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه ، كذلك كان السكان فى الغرب يقطعون مع الأرض بعكس النظام فى الشرق . وقد أقطع الخليفة الرشيد افريقية (تونس الحالية) لإبراهيم بن الأغلب فى سنة ١٨٤هـ[١] ، وربما تكون قسمة العالم الإسلامى إلى قسمين إقطاعيين فى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) الذى عاصره أحمد بن طولون ، والذى قسم الدولة العباسية إلى إقطاعين : شرقى وغربى ، على أن يحكم القسم الشرقى أخوه الموفق ويحكم القسم الغربى ابنه المفوض إلى الله ، ربما تكون هذه

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٧١

القسمة قد سبقتها قسمة أخرى فى عهد الخليفة المأمون ، فيذكر الطبرى[١] أنه فى سنة ٢١٣ هـ ولى المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر ، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم وقد ثبت المعتصم من الحكام من ثبت وعزل من عزل فى البلاد الخاضعة لحكمه . وتدل أوراق البردى على أنه فى سنة ٢١٧ هـ كانت الأوامر والرسائل التى تصدر إلى الولاة باسم الخليفة المأمون يذكر فيها اسم المعتصم بجانبه[٢] . وقد علمنا من نص « بروتوكول »[٣] تاريخه ٢١٧ — ٢١٨ هـ أن الأمير المعتصم كتب اسمه بعد الخليفة المأمون مع كيدر الذى كان واليا على مصر فى سنة ٢١٧ — ٢١٩ هـ فى حين أن كيدر هذا كان الوالى الذى أقامه الخليفة مباشرة[٤]

ولما ولى المعتصم الخلافة (٢١٨ — ٢٢٧) هـ حذا حذو الرشيد والمأمون فاقتطع أشناس التركى ولاية مصر . وقد علمنا من أوراق البردى أن القائد أبا جعفر أشناس تولى الأمارة على مصر فى سنة ٢١٩ هـ من قبل المعتصم ثم أذن له بأن يولى الحكام بنفسه وهذا يدل على مكانة أشناس ، فقد كان يذكر اسمه فى خطبة الجمعة مع الخليفة . ومنذ سنة ٢٢٧ هـ كان تحت حكمه دولة تمتد من بغداد إلى آخر حدود المغرب . كما ضربت السكة باسمه الذى نقش على الموازين والمكاييل[٥] ، وقد ظل أشناس صاحب إقطاع مصر ويمين ولاتها من قبله إلى أن توفى سنة ٢٣٠ هـ .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ١٠ ص ٢٧٩

(٢) جروهمان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١١

(٣) كان درج البردى يتألف من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة الأولى من هذه الأوراق باليونانية πρωτοχολλον Protocol وكانت تشمل على الكتابة الرسمية التى تسمى الآن الطراز (جروهمان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية جـ ١ ص ٤)

(٤) جروهمان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية ص ١١

(٥) جروهمان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١٢

ثم أعطى الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) مصر لإيتاخ التركى إقطاعاً له[١] ولم تقتصر سلطة إيتاخ على مصر، بل نرى الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) يفوض إليه فى سنة ٢٣٤ هـ أمر الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة مضافا إلى مصر[٢]. ولكن لم يلبث المتوكل أن أمر بالقبض على إيتاخ فى المحرم سنة ٢٣٥ هـ وأقطع مصر ابنه وولى عهده المنتصر[٣] الذى ظل يولى ولاة مصر إلى أن توفى المتوكل وولى المنتصر الخلافة (٢٤٧-٢٤٨هـ). وفى سنة ٢٥٤ ولى ابن طولون بالنيابة عن باكباك التركى صاحب إقطاع مصر[٤]

على أن سياسة إقطاع الأتراك ولاية مصر ادت إلى نتيجة لم تكن فى الحسبان. إذ كان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس، كما كان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم فى العاصمة خوفا من أن يستقلوا بالبلاد التى كانوا يحكمونها فكان هؤلاء الأتراك لا يحكمون بأنفسهم بل يستخلفون من يقوم بالأمر نيابة عنهم على أن يحمل إليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة[٥].

وتدل الوثائق البردية على أنه كان يدعى للخليفة وللوالى معاً فى خطبة الجمعة[٦]. وإذا كان الخلفاء يراقبون أصحاب الإقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد، فإنه لم يكن فى استطاعتهم أو لم يدر بخلدهم أن يراقبوا نوابهم، ولم يكن من العسير على نائب والٍ له شخصية بارزة وله آمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى مركز الخلافة نفسها. وهذا ما حدث فى عهد أحمد بن طولون الذى استقل بمصر عن الخلافة وأسس بها دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية كانت أول دولة مستقلة فى تاريخ مصر الإسلامية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥م).

(١) أبو المحاسن: النجوم جـ ٢ ص ٢٥٥ (٢) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٢٧٥
(٣) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٢٧٨ (٤) المقريزى: خطط جـ ١ ص ٣١٣
(٥) الدكتور زكى محمد حسن: مصر والحضارة الإسلامية ص ٤
(٦) جروهمان: المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١٢

٢ — النظام المالى

الجزية والزكاة

قبل أن نبدأ بتفصيل الكلام على النظام المالى للعرب فى مصر يجدر بنا أن نشير أولا إلى معنى الجزية والخراج . فالمعروف أن الجزية هى الضرائب المفروضة على الرءوس أما الخراج فهو ضريبة الأرض ، ولكننا كثيراً ما نجد فى المراجع خلطا بين هاتين الضريبتين فنرى الجزية تعنى ضريبة الرءوس وضريبة الأراضى معاً . ويلاحظ Van Berchem[١] أن كلمة خراج يقصد بها الضريبة العقارية ، وأيضا جزية الرءوس ؛ وأحيانا تطلق على ضرائب أخرى تختلف فى طبيعتها عن هاتين الضريبتين .

بعد فتح العرب لمصر ، وأعنى هنا بعد معاهدة بابليون الأولى ، فرض العرب على أهل مصر الجزية ، وهاك نص ما ذكره المؤرخون . « فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها[٢] من القبط ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ... وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران رفع ذلك عرفاؤهم[٣] بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع

(١) la Propriété territoriale et l'impôt p. 21

(٢) أعلاها وأسفلها أى الوجه القبلى والوجه البحرى

(٣) العريف : العالم بالشيء ومن يعرف أصحابه والجمع عرفاء. ويذكر De Sacy أن العريف معناها كاتب وهى المقابلة للكلمة اليونانية جرافس γραφευς أى كاتب Sur la Nature et les Révolutions du droit de propriété p. 179

من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس وكانت فريضتهم يومئذ إثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة[1] » .

هذا فيما يتعلق بالجزية التى فرضت على أهل الذمة فى مصر كما ذكرها بعض المؤرخين . ويذكر البلاذرى[2] فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه وضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً . ولا نفهم من هذا النص إذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أم قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم . أى أنه إذا استثنينا النص الذى ذكره البلاذرى بأن الفقراء لم يدفعوا الدينارين نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساووا فى دفع الجزية . ولكن لو كان العرب عاملوا أهل الذمة فى مصر على هذا الأساس لثار عليهم المصريون من أول الفتح ، ولكان العرب قد عادوا بذلك إلى تعسف الحكم الرومانى والبيزنطى الذى كان يعنى ذوى النفوذ والثراء من الأعباء المالية أو من أغلبها بينما يقع عبؤها على الطبقات الفقيرة من السكان . كما أن هذا لا يتفق والإسلام الذى يدعو إلى الإنصاف والعدل ، كما لا يتفق وسياسة العرب الحكيمة ، التى كانت ترمى إلى التحبب إلى أهل البلاد وإلى توطيد سلطانهم فيها ليس بقوة السيف وإنما بحسن السياسة .

وقد أثبتت أوراق البردى فساد الرأى الذى يقول بمساواة الذميين فى دفع الجزية وأثبتت أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص . ففى كتاب من قرة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوه نجده يأمره بأن يرسل

---

(١) ابن عبد الحكم (طبعة المعهد الفرنسى) ص ٦٣ — ٦٤ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥١

(٢) فتوح البلدان ص ٢١٤

كشفاً بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فى كل مكان ، والجزية الواجب عليهم أداؤها وما يملكه كل رجل من الأراضى وما يقوم به من الأعمال . ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيراً حسناً ومعاقبة من يتنكب عن طريق العدل[١] ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفاً بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وبالجزية الواجبة عليهم ، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون عادلا فى عمله ، ولما هدده إذا هو لم يتبع طريق الحق أو أوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء من جانب أهل كورته ، ولاكتفى الوالى بمعرفة عدد رجال كورته وبذلك يعرف الجزية الواجبة عليهم . وفى كتاب آخر بعث به قرة بن شريك نراه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل فى تقدير الضرائب الواجبة على كل فرد وأن يسهل عليهم الاتصال به كى يسمع ما يقولون[٢] .

وقد حفظت لنا أوراق البردى أيضاً كشوفا من القرن الثالث الهجرى دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكرت فيها مقدار الجزية الواجبة على كل ، وقد اختلفت هذه الجزية باختلاف كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية : فشخص يدفع ديناراً ، وآخر ديناراً ونصفاً ، وثالث ثلثى دينار ، ورابع ديناراً وثلثاً وهكذا[٣] . وهذا

---

(١) Bell. Translations of the Greek Aphrodito, der Islam, II, p. 272

(٢) Bell op. cit. pp. 281-282

(٣) Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. vol. III pp. 197-178, 201-203, 217, 219, 220-221.

بلا شك راجع إلى تقدير الجزية على أساس ثروة كل شخص . ويجمع الفقهاء أيضا على أن الجزية كانت تتناسب إلى حد ما مع ثروة الشخص فيؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ومن الوسط أربعة وعشرون ومن دون الوسط إثنا عشر درهما[١] وعن هشام بن أبى رقية اللخمى أن صاحب إخنا[٢] قدم على عمرو بن العاص فقال له « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر[٣] لها فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة . لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم[٤] » وهذا يبين لنا أن العرب لم يحددوا الجزية على أهل الذمة فى مصر ، وإنما اكتفوا بفرضها عليهم كما يظهر ذلك من نص معاهدة بابليون ، وترك تقديرها للوالى أو الخليفة . ويذكر ابن عبد الحكم[٥] فى رواية له عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهبة عن يونس عن ابن شهاب « أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ ويحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٥١ والماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨

(٢) إخنا بالكسر ثم السكون والنون مقصور وبعض الناس يقول إخنو ووجدته فى غير نسخة من كتاب فتوح مصر بالجيم واحفيت فى السؤال عنه بمصر فلم أجد من يعرفه إلا بالخاء وقال القضاعى وهو يعدد كور الحوف الغربى وكورتا إخنا ورشيد والبحيرة وجميع ذلك قرب الاسكندرية وأخبار الفتوح تدل على أنها مدينة قديمة (معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ١٦٦) .

(٣) فى الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٧٧ « فنصبر لها »

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٣ — ١٥٤ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٧٧

(٥) المرجع نفسه ص ١٥٣

المعاهدين ما سمى على نفسه لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه ، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا نظر عمر فى أمره فإذا احتاجوا خفف عنهم وإن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم » .

وكانت الجزية فى مصر تدفع نقـدا بالدنانير وكسور الدنانير ، وكان المصريون يعرفون تلك الضريبـة حسب ما ورد فى قطع « الاوستراكا » وفى أوراق البردى المكتوبة باليونانية باسم دِمُزْيا δημοσια أما فى أوراق البردى العربية فتعرف باسم الجزية[١] .

وكما كانت الجزية تجبى من أهل الذمة كان يجبي من المسلمين الزكاة أو الصدقة ، ويقول المقريزى[٢] أن أول من جبى الزكاة بمصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولـكن أوراق البردى أثبتت غير ذلك ، إذ تبين منها أن الولاة فى مصر كانوا يقومون بجباية فريضة الزكاة ويتسلم الأهالى إيصالا أو براءة بعد تأدية ما يجب عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الإسلامية . ولدينا إيصال يرجع إلى القرن الثانى الهجرى (سنة ١٤٨ هـ) عن زكاة بعض الأشخاص[٣]

الملكية العقارية فى مصر وضريبة الأرض أو الخراج

قبل أن نتعرض للكلام على ضريبة الأرض أو الخراج يجدر بنا أن نعرف موقف الفاتحين أزاء أراضى المصريين . وهنا يعترض الباحث سؤال

---

(١) Crum Coptic Ostraca, p. 3, 37, van Berchem : Une page Nouvelle de l'hist. d'Egypte p. 161., Becker: Neue Arabische Papyri pp. 253-254, Grohmann:Arabic Papyri. vol. III .pp. 16-17

(٢) الخطط جـ ١ ص ١٠٨

(٣) Grohmann : Arabic Papyri vol. III. p. 177

طالما واجه المؤرخين الأقدمين والمحدثين ، وهو « هل فتحت مصر صلحاً أم عنوة ؟ وذلك لأن الأراضى التى تفتح صلحا تكون فيئا للمسلمين[1] فإذا كانت مصر فتحت صلحا ، بدون قتال وبمقتضى عهد ، يتفق المصريون مع الفاتحين على مقدار الجزية والخراج التى تدفع لهم دون أن يمس الفاتحون أراضى المصريين أو يأخذوها منهم عنوة وقهرا .

أما الأراضى التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة وتقسم بين الفاتحين طبقاً للآية الكريمة « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير[2] » فالخمس الذى لله عز وجل مردود من الله تعالى على الذين سمى الله (للرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) لا يوضع فى غيرهم ، وذلك إلى الأمام يضعه فيمن حضره منهم بعد أن يجتهد رأيه ويتحرى العدل ، وما بقى بعد الخمس فهو للذين غلبوا عليه من المسلمين يقسم بينهم بالسوية[3] .

وأما إذا كانت مصر فتحت عنوة فإنها تصبح غنيمة للفاتحين كما بينا سابقا وتخرج أراضى المصريين من أيديهم ولا يكون لهم أى حق فيها . ولذا وجب أن نعرف هل فتحت مصر صلحا أم عنوة ، لنرى أى الأحكام طبقت عليها فيما يختص بالأراضى . وقد اختلف الأمر على المؤرخين

---

(١) الفيء هو ما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج (ابن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٣)

(٢) سورة الأنفال آية ٤١

(٣) ابن آدم القرشى : ص ٣ — ٤

فى ذلك مثل ابن عبد الحكم[١] ثم القريزى[٢] وأبو المحاسن[٣] والسيوطى[٤] فنرى المؤرخ الواحد منهم يكتب أن بعض الرواة ذكر أن مصر فتحت عنوة ، والبعض ذكر أنها فتحت صلحا ، وفريق ثالث قال إنها كلها فتحت صلحا إلا الأسكندرية أو الأسكندرية وبعض قرى الوجه البحرى فإنها فتحت عنوة .

فالرواة الذين أخذ عنهم هؤلاء المؤرخون والذين قالوا أن مصر فتحت صلحا إلا الأسكندرية يبررون نظريتهم بأن حصن بابليون — الذى حدد فتحه مصير مصر السياسى — فتح صلحا لا عنوة بمقتضى المفاوضات التى جرت بين المقوقس وعمرو بن العاص ويثبتون نظريتهم بأنه كان للمصريين عهد بينهم وبين العرب . وأن الأسكندرية فتحت صلحاً فى الفتح الأول ولكن لما انتقض الروم سنة ٢٥ هـ ، فتحها العرب عنوة وقهراً ، والفريق الذى يقول إن مصر فتحت عنوة يثبت نظريته بأنه لم يكن للمصريين عهد ولا عقد . وهنالك فريق وسط يقول إن مصر فتح بعضها صلحاً والبعض الآخر عنوة كالأسكندرية وبعض القرى التى ظاهرت الروم على العرب .

على أنه مهما اختلفت آراء هؤلاء المؤرخين فإنهم لم يختلفوا فى أن مصر أجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحاً . وقد ذكرت آنفاً أن صلح بابليون

---

(١) فتوح مصر وأخبارها . طبعة المعهد ص ٧٤ — ٨٢

(٢) الخطط جـ ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥

(٣) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٩ — ٢٠

(٤) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٥ — ٥٦

عقد بعد فتح المسلمين للحصن عنوة وذكرت أن فتح الحصن هو الذى حدد مصير مصر السياسى . أى أن مصر فتحت عنوة ، وفى الوقت نفسه قبل العرب أن يمنحوا المصريين عهداً ، فالعرب فى الواقع كانوا يعتبرون أنفسهم محاربين للروم لا المصريين . كما أنه عند ما فتح العرب الإسكندرية سنة ٢٥ هـ عنوة كان فتحها انتصاراً على الروم وعلى قائد الأمبراطور قنسطنز الثانى ولم يؤثر ذلك فى عهد الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين . ويؤيد ذلك الرأى ماذكره البلاذرى[١] فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص . إذ قال « اشتبه على الناس أمر مصر فقال قوم فتحت عنوة وقال آخرون فتحت صلحاً والثلج[٢] فى أمرها أن أبى (يعنى عمرو بن العاص) قدمها فقاتله أهل اليونة[٣] ففتحها قهراً وأدخلها المسلمين ، وكان الزبير أول من علا حصنها ، فقال صاحبها لأبى إنه قد بلغنا فعلكم بالشام ووضعكم الجزية على النصارى واليهود وإقراركم الأرض فى أيدى أهلها يعمرونها ويؤدون خراجها فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أرد عليكم من قتلنا وسبينا وإجلائنا قال . فاستشار أبى المسلمين فأشاروا عليه بأن يفعل ذلك إلا نفراً منهم سألوا أن يقسم الأرض بينهم ، فوضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل ، رزقا للمسلمين تجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم ، وأحصى المسلمون

---

(١) فتوح البلدان ص ٢١٤ — ٢١٥

(٢) الثلج ما تطمئن إليه النفس وترتاح له وتسر به

(٣) اليونه — يعنى بها بابليون

فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً [١] أو عمامة وسراويل [٢] وخفين فى كل عام أو عدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً [٣] . وكتب عليهم بذلك كتابا وشرط لهمَ إذا وفوا بذلك أن لا تباع نساؤهم وأبناؤهم ، ولا يسبوا ، وأن تقر أموالهم وكنوزهم فى أيديهم ، فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه وصارت الأرض أرض خراج ، إلا أنه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظن بعض الناس أنها فتحت صلحاً . ولما فرغ ملك اليونة من أمر نفسه ومن معه فى مدينته صالح عن جميع مثل صلح اليونة فرضوا به وقالوا : هؤلاء المتنعون [٤] قد رضوا وقنعوا ـ فنحن به أقنع لأننا فرش [٥] لا منعة لنا . ووضع الخراج على أرض مصر فجعل على كل جريب [٦] ديناراً وثلاثة أرادب طعاما وعلى رأس كل حالم

---

(١) البرنس : قلنسوة طويلة كانت تلبس فى صدر الإسلام . كل ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلا به

(٢) السروال لباس يستر النصف الأسفل من الجسم . والكلمة فارسية وهى مؤنثة وقد تذكر

(٣) كانت الأثواب القبطية مشهورة بدقة صنعها وغلاء ثمنها .

(٤) المتنعون : الأقوياء المتحصنون الذين لا يقدر عليهم

(٥) فرش : المراد بها أهل فرش والفرش هو الفضاء الواسع من الأرض

(٦) الجريب وحدة تقاس بها الأرض . قال الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ١٤٦ فأما الجريب فهو عبارة عن عشر قصبات فى عشر قصبات والفدان الحالى كما تعلم يساوى ٣٣٣ قصبة مربعة .

ويقول الأب أنستاس الكرملى فى كتابه النقود العربية وعلم النميات ص ٣١ . أن أهل البصرة يعرفون الجريب إلى عهدنا هذا وهو عندهم نحو من مائة نخلة . ومن غير النخيل أرض سعتها هكتار . (الهكتار ١٠٠٠٠ متر مربع)

دينارين وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه » .

ومن ذلك نرى أن الأراضى تركت لأهل البلاد ولم تقسم بين الفاتحين .

وكذلك جاء فى نص الصلح الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر : « هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص »[1] .

وورد أيضاً نص آخر أنه من الشروط التى اصطلح عليها أهل مصر مع الفاتحين أن تكون « لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شىء منها[2] »

وهكذا نرى أن العرب أبقوا أراضى مصر على حالها ولم يتعرضوا لها ، بالرغم من فتحهم لمصر عنوة ، وذلك بناء على العهد بينهم وبين المصريين وهذا مما يجيزه الفقهاء للفاتحين ويفسرون ذلك بأن « الغنيمة جميع ما أصابوا من شىء قل أو كثر حتى الأبرة إلا الأرضين فإن الأرضين إلى الأمام إن رأى أن يخمسها ويقسم أربعة أخماسها للذين ظهروا عليها فعل ذلك ، وإن رأى أن يدعها فيئاً للمسلمين على حالها أبداً فعل بعد أن يشاور فى ذلك ويجتهد رأيه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقف بعض ما ظهر عليه من الأرضين

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٢٩ وابن خلدون : كتاب التاريخ ج ٢ ص ١١٥ والقلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٢٤ وابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة المعهد — ص ٦٤ وخطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٢ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه [١] »

ولا ريب فى أن عمر بن الخطاب أظهر حكمة بالغة باتباعه تلك السياسة وهى عدم تقسيم الأراضى بين الفاتحين ولا سيما أنه لم يفعل ذلك فى مصر وحدها بل فى العراق والشام . فانه لم يرد أن يشغل جنده بالزراعة والأراضى بينما الجهاد يناديهم فى كل مكان ، كما أن العرب فى جملتهم لم يكونوا أمة زراعية . ومن جهة أخرى رأى عمر بن الخطاب ألا يثير عليه سخط أهالى البلاد المفتوحة حتى يعاونوه على تثبيت سلطان المسلمين ، كما أن أهل مصر وغيرها كانوا أعلم بزراعتهم وريهم ولا بد أن عمرا كان يسترضى جنده ويعوضهم عن امتلاك الأرض بمنحهم الأموال والغنائم الأخرى غير الأرض . ولعل أبلغ مثل يرينا سياسة عمر إزاء الأراضى المفتوحة من حيث عدم تقسيمها بين الفاتحين ذلك الكتاب الذى بعث به إلى سعد بن أبى وقاص حين فتح العراق يقول فيه « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع [٢] ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء [٣] » .

الآن وقد عرفنا أن العرب أبقوا أراضى المصريين على حالها يجدر بنا أن نرى ما كانت عليه الملكية العقارية فى مصر زمن الفتح وكيف أن الغزوات

---

(١) ابن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ٤ — ٥

(٢) الكراع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير

(٣) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٣ — ١٤ وابن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ١٣ والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٥ — ٢٦٦

الأجنبية التى توالت على مصر كانت سبباً فى إضعاف الملكية فيها ، إذ كان الغزاة ينتزعون الأراضى من الأهالى أو يمنحونهم حق الانتفاع فقط .

وفى عهد الرومان وخاصة منذ القرن الثانى للميلاد نرى زيادة ملحوظة فى الأراضى التى يمتلكها المصريون وكان أصحاب هذه الأراضى يؤدون ضريبة عقارية للدولة[١] . ويقول Van Berchem[٢] أن عمر بن الخطاب حول الأراضى التى فتحت خارج جزيرة العرب إلى أراضى وقف متبعا فى ذلك ما اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام بشأن بعض أراضى جزيرة العرب . وكأن عمر أراد بتحويله الأراضى المفتوحة إلى أراض موقوفة أن يضمن للجماعة الإسلامية فى عهده وفى المستقبل أملاكا عامة ، لا يتصرف فيها . وإنما يديرها الخلفاء لصالح الجماعة الإسلامية .

على أنه لا يمكننا قبول نظرية الوقف هذه فيما يتعلق بمصر . فإذا كانت الأراضى قد صارت وقفاً فى هذه البلاد كان ذلك معناه أن العرب منحوا المصريين حق الانتفاع بها فقط . ولكن صلح بابليون قد أقر أراضى المصريين على حالها وأمنهم عليها ، ونحن لانستطيع الجزم بأن المصريين كانوا يملكون حق الانتفاع فقط قبل الفتح ، خصوصاً وأنه وجدت ملكيات تامة زمن البطالسة وزادت تلك الملكيات فى عهد الرومان . كذلك تدل الأوراق البردية التى ترجع إلى عهد الولاة على أنه كان يحق لأهالى مصر التصرف فى الأراضى التى يملكونها بالبيع والشراء والتوريث والهبة[٣] ، وهذا طبعا مما ينقض نظرية الوقف .

---

(١) Jouguet: l'Egypte Oréco-Remaine p. 348

(٢) La Propriéte territoriale. p. 23

(٣) انظر جروهمان : الأوراق البردية العربية . الجزء الأول ص ١٢٩ — ١٣٠ و ١٣٢ — ١٣٣ و ١٤٥ و ١٤٦ — ١٤٨

فرض العرب على أراضى المصريين ضريبة عقارية تعرف بالخراج ، ونعرف مما ورد فى أوراق البردى ومما ذكره المؤرخون أن الخراج فى مصر كان يجبى عينا ونقداً ، ففى كتاب من قرة بن شريك سنة ٩١ هـ إلى أهل شبرا بسيرو من كورة أشقوه نجده يطلب منهم دفع متأخرات الجزية عليهم بالدنانير ودفع ضريبة الطعام قمحاً[١] ، وضريبة الطعام هنا تعنى الخراج أو جزءاً منه . كذلك حفظ لنا ورق البردى إيصالا عن خراج سنة ٢٣٣ هـ دفعه بعض الأشخاص ويتبين منه أن الخراج دفع نقداً[٢] . وفى كتاب آخر من قرة بن شريك إلى صاحب أشقوه نجده يطلب منه أن يرسل إليه القمح المفروض على أهل كورته ، ويخبره أنه إذا وجد الأهالى صعوبة فى دفع الضريبة غلة فلا بأس من دفعها نقداً ويحدد له ما يعادل عدداً معيناً من الأرادب نقداً ، ولكنه يطلب منه أن يعمل على إرسال القمح لا النقود[٣] ويذكر البلاذرى[٤] فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه جعل على كل جريب ديناراً وثلاثة أرادب طعاماً . وفى رواية أخرى للبلاذرى[٥] عن يزيد بن أبى حبيب أن أهل الجزية بمصر صولحوا فى خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل والخل على دينارين دينارين ، فألزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه . ويذكر اليعقوبى[٦]

---

(١) Becker: Neue Arabische Papyri. p. 267, Grohmann: Arabic Papyri. vol. III. p. 48

(٢) Grohmann: ap. cit. vol. III. pp. 141-142

(٣) Bell: Translations... (Der Islam, Band III) p. 271

(٤) فتوح البلدان ص ٢١٥

(٥) المصدر السابق ص ٢١٦

(٦) تاريخ جـ ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧

أن عمرو بن العاص جبى من مصر أربعة عشر ألف ألف دينار من خراج رؤوسهم[١] لكل رأس دينار وخراج غلاتهم من كل مائة أردب أردبين .

يتبين مما سبق أن الجزية كانت تدفع نقداً بينما كان الخراج يدفع عيناً ونقداً . وكان يطلق على الضريبة التى تدفع عيناً فى أوراق البردى العربية اسم « ضريبة الطعام » أما فى أوراق البردى اليونانية فكانت تعرف باسم امبوليه εμβολη[٢] . ويجدر أن نشير هنا إلى أن القمح كان أهم ما يجبى من ضريبة الطعام ، ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحيانا غير الغلال ، الزيت والعسل وأنواع الطعام الأخرى[٣] . وكان يصرف من المال الذى يجبى عطاء الجند الرابط فى مصر[٤] ، كما أن أرزاق الجند فى مصر كانت تعتمد على ضريبة الطعام[٥] .

وكان الخراج فى مصر يجبى على أساس مساحة الأراضى التى يمتلكها الشخص كما كان الحال فى عهد الرومان والبيزنطيين . على أنه كان يراعى فى ذلك حالة فيضان النيل فى كل عام ، لارتباطه بالزراعة ، وقد وضح ذلك تماماً من نص الصلح الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر كما ذكرنا سابقا . وكذلك كان يراعى فى تقدير الخراج كية المحصول التى تنتجها

---

(١) يعنى بخراج الرؤوس هنا الجزية

(٢) Bell : op. cit. p. 271, van Berchem : Une page Nouvelle de l'histoire d'Egypte p. 161, Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne T. IV, p. 169

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٥ و Wiet : Art. Kibt, Encyclopaedia of Islam vol. II p. 998, Bell (der Islam. Band XVII p. 8)

(٤) Becker, Neue Arabische. pp; 251-252, Grohmann: Arabic Papyri vol III pp; 12-18, van Berchem : Une page Nouvelle; p; 161

(٥) Bell : op. cit. p. 271, pp. 383-384, van Berchem op. cit p. 161

الأرض وحالة الأرض إذا كانت عامرة أو غامرة . وقد كتب الماوردى[1] فى هذا المعنى فقال إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها فى زيادة الخراج ونقصانه « أحدها ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها ، والثانى ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار؛ فنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه، فيكون الخراج بحسبه ، والثالث ما يختص بالسقى والشرب لأن ما التزم المؤنة فى سقيه بالنواضح[2] والدوالى[3] لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقى السيح[4] والأمطار. ومن الناس من اعتبر شرطاً رابعاً وهو قربها من البلدان والأسواق وبعدها لزيادة أثمانها ونقصانها ، وهذا إنما يعتبر فيما يكون خراجه ورقا[5] ولا يعتبر فيما يكون خراجه حباً[6] ، وتلك الشروط تعتبر فى الحب والورق .

لاشك إذن فى أن الضرائب التى كانت ترسل إلى الخلافة كانت عيناً ونقداً وأنه عقب الفتح مباشرة بدأت مصر ترسل القمح إلى المدينة كما كانت ترسله لروما ومن بعدها لبيزنطه . وهذا مما حدا الأب لامانس[7] Lammens على القول بأنه لم تكن لمصر سوى أهمية اقتصادية إذ كانت تنتج الحبوب وتدفع الضرائب .

والمعروف أن عمر بن الخطاب كتب فى سنة ٢١ إلى عمرو بن العاص

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٤٢ — ١٤٣

(٢) نضح البعير الماء : حمله من بئر أو نهر لسقى الزرع

(٣) الدالية : الناعورة يديرها الماء والأرض تسقى بدلو أو بناعورة ، والجمع دوال

(٤) السيح : الماء الجارى الظاهر

(٥) الورق هنا بمعنى النقود

(٦) الحب بمعنى الغلال

(٧) Un Gouverneur Omaiyade d'Egypte. p. 102

بعلمه ما فيه أهل المدينة من الشدة ، ويأمره أن يبعث إليها ما يجمع من الطعام فى الخراج ، فكان ذلك يحمل إليها ومعه الزيت . وانقطع فى فتنة عثمان ثم حمل فى أيام معاوية ويزيد ، ثم انقطع إلى زمن عبد الملك بن مروان ، ثم لم يزل يحمل إلى زمن المنصور[١] . ومن ذلك نرى أن مصر بدأت تمير الحجاز عقب الفتح مباشرة وكان ينقطع ذلك المورد أيام الفتن والثورات . وقد ذكر البلاذرى أن الطعام ظل يرسل إلى خلافة أبى جعفر والمقصود هنا أنه ظل يرسل إلى زمن أبى جعفر عن طريق البحر ، وذلك لأن أبا جعفر أمر بطم خليج أمير المؤمنين الذى كان الواسطة بين مصر وبلاد العرب بحرا ، وقد كانت الغلال ترسل أولا إلى المدينة بوصفها مقر الخلافة ، ولكن الواقع أن إرسالها لم يبطل إلى يومنا هذا — إذا استثنينا فترات معينة — بالرغم من أنه حل محل المدينة عواصم أخرى للخلافة وبالرغم من التغيرات السياسية التى حدثت فى مصر وفى الخلافة نفسها .

ولدينا بعض النصوص التى تشير إلى مقدار ما كان يرسل نقداً إلى بيت المال فى مقر الخلافة . فيقال إنه فى زمن معاوية أرسل واليه على مصر مسلمة ابن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) ستمائة ألف دينار[٢] . إلى بيت المال ، بعد أن دفع عطاء الجند وأنفق على البلاد ما تحتاجه وبعد إرسال القمح إلى الحجاز ، ويذكر ساويرس[٣] أن ما كان يحمل إلى بيت المال مائتا ألف دينار بعد النفقة على الأجناد وما تحتاج إليه البلاد .

ونلاحظ أنه وجدت فى مصر منذ الفتح العربى أراض امتلكتها

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٦

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٠٢

(٣) سير الآباء البطاركة (Patr. Orient. T.V.) ص ١٨٩

حكومة العرب ، إذ كان هنالك قبل الفتح أراض يمتلكها الأباطرة امتلاكا خاصا غير تلك الأراضى التى كان يمتلكها سائر أفراد الشعب سواء أ كانوا من الروم أم من المصريين . فهذه الأراضى التى كانت ملكا خاصا للأباطرة أو التى هرب أهلها أو هلكوا زمن الفتح ، لا بد أنها آلت إلى الخليفة ، وارث الأباطرة فى مصر ، فكان له حق التصرف فيها وكان تصرفه هذا لا يمس حقوق الأهالى ولا ينقض الصلح الذى أعطاه العرب للمصريين . وكانت حكومة العرب تتبع فى الانتفاع بالضياع التى استولت عليها طريقة الإقطاع. وقد زادت هذه الضياع التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف إليها من الموات أو الأرض المهجورة agri deserti أثناء الحكم العربى نفسه .

وتذكر النصوص أن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر أحد الصحابة منية الأصبغ[1] بمصر فحاز لنفسه منها ألف فدان ولم تزل له إلى أن مات . واشتراها بعده ذلك الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته . وكانت أقدم وأفضل قطيعة بمصر[2]

ونلاحظ هنا أن نظام الإقطاع بدا فى عصر الولاة ولكن بدءه وتطوره يختلفان عن نظام الإقطاع فى الغرب لأن من العوامل الأساسية فى نشأة الإقطاع فى الغرب وفى أسباب منحه رغبة الأمير أو الملك فى أن يحصل على عون حربى ممن دونه من الأمراء والأشراف . بينما لم يدخل العنصر الحربى فى نظام الإقطاع الإسلامى فى مصر إلا فى نهاية العصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك ، ودخل بأسلوب آخر ، يتلخص فى انتفاع الجند بدخل

---

(١) شمالى القاهرة وموقعها الحالى قريب من ضاحية الدمرداش

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٣٧ — ١٣٨ والمقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٦ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٦

الإقطاعات المختلفة بغير منحهم الأراضى للإقامة فيها وزراعتها . كما لم يوجد فى الإقطاع بمصر حق الوراثة الذى كان يتمتع به أصحاب الاقطاع فى أوربا .

ونعرف أن الأراضى التى امتلكها المسلمون كان يدفع عنها العشر زكاة لها كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى . ويذكر الفقهاء أن الأرض الموات أرض عشر أيضاً أى أن من يحييها يدفع العشر ولا يؤدى عنها خراجا[1] . ومن الوجهة النظرية كان القبطى الذى يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية ، ولاشك فى أن ذلك حدث طويلا ، ثم رأت الحكومة أن فى هذا جل الخطر على مالية القطر فأصبح نوع الضريبة متصلا بالأرض نفسها وأصبح القبطى إذا اعتنق الإسلام لا تعفى أرضه من الخراج . والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية ، لأن دخل الحكومة وماليتها يجب أن يكونا مستقلين إلى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الإسلامى وما إلى ذلك مما يصعب على الحكومة تقدير أثره فى ماليتها . بل إن هذه القاعدة لم تلبث أن طبقت على العرب أنفسهم بحيث أنهم إذا اشتروا أرضاً عليها خراج جزية ظلوا يدفعون هذا الخراج الواجب عليها ولم تصبح هذه الأرض عشرية[2] .

ونلاحظ أن الخراج الذى يفرض على الأرض التى صولح أهلها على أن تكون لهم يسمى خراج جزية ، أما الخراج الذى يفرض على الأرض التى صولح أهلها عليها على أن تصير وقفاً يسمى خراج أجرة . ولا يسقط عنها باسلامهم

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٧٠

(٢) Becker : Islamstudien t. II. p. 281

أو بانتقالها إلى غيرهم من المسلمين بعكس خراج الجزية[١] ولا نعرف أن مصر فرض عليها خراج أجرة لأن أرضها لم تكن وقفاً كما بينا ، وإنما كان خراجها خراج جزية . والواقع أن نظام الأرض فى فجر الإسلام وما عليها من ضرائب عشرية أو خراجية كان نظاماً مطاطاً مرناً ولم يستقر إلا بعد ذلك بقرون طويلة . والمعروف أن الأرض فى مصر فى عصر الولاة أصبح يفرض عليها الخراج بمضى الوقت سواء أسلم مالكها أو كانت ملكا لأحد المسلمين . ونعرف أن القبط والمسلمين على السواء ثاروا فى العهد العباسى من أجل زيادة الخراج زيادة أجحفت بهم .

ضرائب الصناعة والتجارة

كانت حكومة العرب منذ الفتح تفرض ضرائب على الصناع والأجراء . وتقدر هذه الضرائب بقدر احتمالهم[٢] .

وكان العرب فى مصر — كالبيزنطيين — يفرضون ضرائب على التجارة وتعرف هذه الضرائب بالمكوس[٣] .

ويقال إن ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه ، وكان ممن شهد فتح مصر من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان والياً لعمرو بن

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣١ — ١٣٢ و ١٤٠

(٢) ابن عبد الحكم : طبعة تورى ١ ص ١٠٢ — ١٠٣

(٣) يذكر جروهمان Grohmann : Arabic Papyri. vol. III. p. 9 أن كلمة مكس مشتقة من اللفظ السريانى ماكسو makso ، ويذكر المقريزى أن أصل المكس فى اللغة الجباية يقال مكسه يمكسه مكسا ، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية ، والماكس هو العشار ويقال للعاشر صاحب مكس. والمكس أيضا انتقاص الثمن فى البياعة ومكس درهم معناه نقص درهم فى بيع ونحوه . وعشر القوم معناه أخذ عشر أموالهم، والعشار هو قابض العشر (الخطط ج ٢ ص ١٢١)

العاص على المكس فى مصر(١) . وأثر عن زريق بن حيان الذى كان على مكس مصر زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه قال « إن الخليفة كتب إليه أن يراقب من مر عليه من المسلمين فيأخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر له من التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً وما نقص بحسابه حتى تبلغ عشرين ديناراً ، فإن نقصت عن ذلك تركها ولا يأخذ منها شيئاً ، وإذا مر عليه أهل الذمة أخذ منهم من كل عشرين ديناراً ديناراً وما نقص فبحسابه ذلك حتى تبلغ تجاراتهم عشرة دنانير ، فإن نقصت عن ذلك لا يأخذ منها شيئاً . وألا يأخذ من التجار مرة أخرى قبل انقضاء العام وأن يكتب لهم كتابا بما أخذ منهم(٢) .

ويظهر أن هذه الضرائب التى يحدثنا عنها المؤرخون كانت تؤخذ من التجار الذين يتاجرون فى مصر نفسها أعنى أنها كانت تؤخذ على التجارة الداخلية . وكان مقر إدارة هذه الضرائب فى الجهة التى عرفت باسم المقس وهى قرية أم دنين التى كانت تقع شمالى الفسطاط ، وإنما سميت المقس لأن العاشر أو صاحب المكس كان مقره هناك فقيل المكس وقلب فقيل المقس(٣) .

وتثبت أوراق البردى وجود هذه الضرائب التى تفرض على التجارة الداخلية (٤).

وكما اهتمت حكومة العرب فى مصر بفرض ضرائب على التجارة

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٢٣
(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٢٢
(٣) المصدر نفسه ص ١٢١
(٤) Becker: Neue Arabische Papyri. p. 256 Grohmann: Arabic Papyri. vol. III. p. 8, van Berchem: Une Page Nouvelle p. 164.

الداخلية فى البلاد فإنها لم تنس أيضاً أن تفرض ضرائب على التجارة الخارجية التى تمر بثغورها أو التى ترد إليها أو تصدر منها . فيذكر المقريزى [١] أنه كان يجبى من التجار فى الثغور المصرية ، وهى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والأسكندرية ، ضرائب مقررة . فالمكس قبل الإسلام كان عبارة عن حق فرض الضرائب على الأسواق، أو حق فرض الضرائب التى تجبى فى الموانى والبلاد التى على الحدود المصرية ، وقد حافظ المسلمون على هذا الحق وقربوه من نظام الزكاة أو المشور [٢] .

الضرائب الأخرى

كانت حكومة العرب فى مصر تفرض على المصريين ضرائب أخرى غير تلك التى ذكرناها ، ويمكننا اعتبار واجب الضيافة على أهل البلاد للجند المسلمين الذين يمرون فى البلاد من هذه الضرائب ، فقد اشترط على القبط بعد فتح العرب لمصر أن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين وجبت عليه الضيافة لهم ثلاثة أيام [٣] . ولعل السبب الذى حدا بالعرب إلى ذلك هو أنهم فى أول عهدهم بمصر كانوا جنوداً وكانت إقامتهم قاصرة على العاصمة التى بنوها لأنفسهم أو فى الثغور لحمايتها ضد الأعداء . وواجب الضيافة هذا أخذه العرب من الرومان والبيزنطيين فى مصر .

وقد ورد فى نصوص أوراق البردى ذكر لضرائب غير عادية . فنرى قرة بن شريك يطالب فى رسائله إلى صاحب أشقوه بجمع تلك الضرائب

---

(١) الخطط جـ ١ ص ١٠٩

(٢) Van Berchem op. cit. pp. 164-165

(٣) ابن عبد الحكم ، طبعة المعهد ص ٦٤ وخطط المقريزى : جـ ١ ص ٢٩٢ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥١

المادية أو بجبايتها من الناس بالعدل (١) وربما كانت حكومة العرب تفرض هذه الضرائب تبعًا لازدياد مصروفات الدولة عن إيراداتها . ونعرف أنه فى ولاية موسى بن مصعب الخثعمى على مصر (١٦٧ — ١٦٨ هـ) فرضت ضرائب على أهل الأسواق والدواب (٢) .

لما ولى ابن طولون مصر ألغى ضرائب كان قد ابتدعها ابن المدبر (٣) ويحدثنا المقريزى (٤) عن هذه الضرائب فيقول : إن أحمد بن محمد بن مدبر لـما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين ابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة من بعده فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس وقرر على الـكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا سماه المصايد إلى غير ذلك ، فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجى وهلالى . والخراجى ما يجبى مسانهة ، أما الهلالى فهو ما يجبى مشاهرة . وكان الهلالى يعرف فى زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعاون وهى التى ألغاها ابن طولون . ويلاحظ بيكر Becker حسب ما ورد فى أوراق البردى أن ابن المدبر ولى خراج مصر منذ سنة ٢٤٧ هـ لا كما يذكر المقريزى بعد سنة ٢٥٠ هـ (٥) ونتبين من أوراق البردى أنه فرضت ضريبة مراعى المواشى وضريبة الصيد بين سنتى ٢٤٧ و ٢٥٣ هـ (٦) .

---

(١) Bell: op. cit. pp. 272, 281-282

(٢) الـكندى : الولاة والقضاة ص ١٢٥

(٣) الـكندى : ص ٢٠٥ — ٢١١ والمقريزى : جـ ١ ص ٢١٢ — ٢١٣ و Zaky M. Hassan: les Tulunides. p. 88

(٤) خطط جـ ١ ص ١٠٣ و ١٠٧ — ١٠٩ و جـ ٢ ص ٢٦٧ و Zaky Hassan: op. cit. pp. 244-246

(٥) Zaky Hassan. op. cit. p. 87

(٦) جروهمان : المحاضرة الرابعة عن الأوراق البردية العربية ص ٧ .

ونلاحظ على وجه الإجمال أن النظام المالى العربى كان مأخوذاً إلى حد كبير من النظام البيزنطى ، ولم يكن أخف منه وطأة إلا أنه كان يمتاز بتبسيطه بعض الشيء ، فقد أبطل العرب وخاصة فى أول عهدهم بالفتح بعض الضرائب التافهة التى استحدثها البيزنطيون ، إلا أن النظام المالى فى مجمله لم يكن سوى صورة مماثلة للنظام البيزنطى . وقد زادت وطأة هذا النظام خاصة فى عهد أصحاب إقطاع مصر من الترك كما يتبين من أوراق البردى[١]

نظام جباية الضرائب

اتبع العرب فى جباية الضرائب النظام الذى اتبعه البيزنطيون من قبل فكانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائبَ المفروضة عليها .

ففى كتاب من قرة بن شريك فى سنة ٩١ هـ إلى صاحب شبرا بسيرو من كورة اشقوه يذكر فيه أن على قريته من جزية سنة ٨٨ هـ ⅔ ١٠٤ دينار ومن ضريبة الطعام ½ ١١ أردبا من القمح[٢] ، وفى كتاب آخر أرسله سنة ٩١ إلى أهل شبرا أجيه بنوتيه من كورة أشقوه يذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ٣٧ ديناراً[٣] ، وفى كتاب ثالث أرسله سنة ٩١ هـ لأهل هروس ابيرميوطس من كورة أشقوه ذكر أنه أصابهم من جزية سنة ٨٨ هـ ½ ٢٨ ديناراً[٤] . وكما كان الحاكم العام فى مصر فى عهد الرومان يقدر الضرائب التى تفرض على مختلف نواحى البلاد على أساس المعلومات التى يقدمها إليه

---

(١) Zaky Hassan: op. cit. p. 244

(٢) Becker: Neue Arabische Papyri p. 267, Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 48

(٣) Becker: op. cit. p. 267, Grohmann: op. cit. p. 51

(٤) Becker: op. cit. p. 268, Grohmann op. cit. p. 54

الحكام المحليون ، كذلك نجد العرب يتبعون نظاماً يشبه النظام السالف . فنرى قرة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة أشقوه تعليمات خاصة بجباية الضرائب فيأمره بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كى يختاروا رجالا أمناء أذكياء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر استطاعتهم ، وبعد أن يقوموا بمهمتهم هذه تحت إشراف صاحب الكورة ، يطلب منه أن يرسل إليه نتيجة عملهم بعد أن يحتفظ بنسخة لنفسه ، ويطلب منه أيضاً أن يكتب أسماء وألقاب ومحل إقامة هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب ، وينذره بأنه إذا وجد أن قرية حملت أكثر مما تحتمل من الضرائب أو أقل فإنه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة أيضا أشد عقاب[1].

وهذا يؤيد ما ذكره ابن عبد الحكم[2] والمقريزى[3] والسيوطى[4] من أنه لما استوثق الأمر لعمرو بن العاص « أقر قبطها على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وإن قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية وما زوتها ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكورة ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع »

من هذا نرى أن صاحب الكورة هو الذى كان يتصل بالوالى أو عامل

---

(١) Bell : op.cit p. 282

(٢) فتوح مصر ، طبعة تورى ، ص ١٥٢ — ١٥٣

(٣) الخطط جـ ١ ص ٧٧

(٤) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٣

الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على كورته وعلى القرى التى تدخل فى دائرة هذه الكورة ، ويشرف على تقدير هذه الضرائب رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها تحت إشراف صاحب الكورة .

وقد قام فى مصر فى العصر العباسى نظام آخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات[١] الأراضى ، ويشبه نظام الالتزام ، الذى وجد فى العهد الرومانى ، فيقول المقريزى[٢] : « وكان من خبر أراضى مصر ، بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات ، أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها إلى ناحيته فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانه على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرائبة مقدرة فى ديوان الخراج ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين ، يقال لما

---

(١) يذكر دى ساسى أن كلة قبالة معناها أن أحد الأشخاص يضمن دفع ضريبة معينة أو يلتزم بتنفيذ عهد أو ارتباط Sur la nature et les Révolutions du droit de propriété territoriale p. 200

(٢) الخطط جـ ١ ص ٨٢

تأخر من مال الخراج البواقى . وكانت الولاة تشدد فى طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة[١] وراكوا البلاد[٢] كلها وعدلوها تعديلا جديداً فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص فيها ولم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو بن العاص إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعه وصار العسكر[٣] منزلا لأمراء مصر فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون »

من الوصف السابق نعرف أنه كان يقوم فى جامع عمرو ثم فى جامع ابن طولون مزاد لتقبل الأرض أو ضمان خراجها ، وكان التقبل لأربع سنوات (حتى تتعادل سنو المحصول الضعيف بسنى المحصول الطيب) وكان المتقبل يخصم من المبلغ المطالب بدفعه ما ينفقه فى كرى الترع وما إلى ذلك . ولسنا نعرف تماما تفصيل علاقة المتقبل مع رجال الإدارة

وقد ظهرت فى العصر العباسى مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أول من أراد إدخالها فى مصر[٤] ونتبين هذا مما ذكره الكندى[٥] والقريزى[٦] عن محمد بن الأشعث والى مصر (١٤١ —

(١) تحويل السنة معناه تحويل السنين القمرية إلى شمسية فإذا جمع الخراج على حسب السنين القمرية فكأننا نجمع الخراج فى مدى ٣٢ سنة شمسية ثلاثا وثلاثين مرة وهذا ضد طبيعة الأشياء . وعلى هذا تحذف سنة كل ٣٣ سنة قمرية أى يحذف كل ٣٣ سنة قمرية خراج سنة . وهذا ما يسمى لتحويل (خطط المقريزى ج ١ ص ٧٣
De Sacy : Sur la Nature et les Revolutions p. 200

(٢) الفعل راك والاسم روك . معناها تقويم الأراضى ومسحها De Sacy : op. cit. p. 200

(٣) فى الواقع كانت القطائع هى مقر أمراء الدولة الطولونية منذ أن بناها أحمد ابن طولون لا العسكر

(٤) Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 243-244

(٥) الولاة والقضاة ص ١٠٩

(٦) الخطط ج ١ ص ٣٠٦

١٤٣ هـ) إذ قالا: «فلما استقر محمد بن الأشعث بها بعث أبو جعفر إلى نوفل بن الفرات أن أعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر فإن ضمنه فأشهد عليه وأشخص إلى وإن أبى فاعمل على الخراج ، فعرض عليه ذلك فأبى » أى أن الخليفة أراد أن يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله . ويبعد أن يرفض أى شخص أن يلى خراج مصر ، ولكن من المعقول أن يرفض ضمان خراجها مثلما فعل محمد بن الأشعث ، وذلك خشية العجز عن القيام بما التزم به نظراً لاضطراب أمور البلاد فى كثير من الأحيان ، أو لاحتياجه إلى المال للنفقة على الإدارة وعلى الجند .

وكانت الضرائب بعد الفتح — إذا استثنينا الضرائب غير المادية — تجبى كل سنة قمرية . وكان المصريون قبل الفتح يعتمدون فى الزراعة والحصاد وجباية الخراج على السنين الشمسية والشهور القبطية . وقد اضطر العرب إلى تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية ، فكانوا يسقطون سنة عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قمرية ، وسموا ذلك الازدلاق لأن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب[١] .

وكان الأهالى الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون إيصالات عرفت فى أوراق البردى العربية باسم براءة[٢] وكان جابى الضريبة العينية ينتخبه السكان ويسمى القبال[٣] ونسمع عن قبال قرية فى ورقة بردية كتبت سنة ١٣٤ هـ[٤]

(١) انظر المقريزى — خطط جـ ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٣

(٢) Crum : Coptic Ostraca. pp; 36-37, Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 141-142

(٣) Papyri Schott-Reinhardt I. 45

(٤) Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 102

وكانت الضرائب العينية المكونة من الحبوب ترسل إلى أهراء الما...
أما الضرائب النقدية فكانت ترسل إلى ديوان الخراج والأموال[٢]
طريق فروعه فى الأقاليم ، وكان يشرف على كل فرع من فروع المالية
الأقاليم موظف يسمى الجسطال[٣]

ويظهر أنه كانت تتبع فى مصر فى ذلك العصر وسائل الشدة ...
الخراج . ونعرف أن الليث بن الفضل والى مصر خرج إلى الخليفة الرشيد
سنة ١٨٧هـ وسأله أن يبعث معه بالجيوش لأنه لا يستطيع استخراج ال...
من أهل الحوف إلا بجيش . ولكن محفوظ بن سليمان ضمن للخليفة حيف
جباية خراجها عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخليفة الخراج[٤]

كذلك تبين ورقة بردية عربية من القرن الثالث الهجرى مدى ال...
التى كانت تتبع فى جباية الأموال ، ففيها أمر بأنه إذا لم يؤد كل فرد ما ...
من الأموال يضرب عشرة سياط ويغرم فى صلب ماله ديناراً[٥] .

---

(١) ...: Translations of Greek papyri (Der Islam II) p. 271. 381

(٢) ديوان الخراج والأموال بمثابة وزارة المالية وقد وجد العرب فى مصر ...
الديوان فأبقوه على حاله حتى أنه كان يكتب باليونانية والقبطية إلى أن أمر عبد
ابن عبد الملك بتعريب هذا الديوان سنة ٨٧ هـ

(٣) ...cker : Neue Arabische Papyri. p. 353; Grohmann. op.
vol. III p. 17

(٤) الكندى : ص ١٤٠ ومتز ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٥) ...ohmann · Arabic Papyri vol. III. p. 104

النقود الإسلامية فى مصر

كان بين البيزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط وبألا يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية ، ولهذا كانت عملة بلاد الفرس الجارية هى الدراهم الفضية ، بينما شاعت العملة الذهبية فى بلاد الإسلام التى كانت تحت حكم الرومان من قبل [(١)]

وكان العرب فى الجاهلية يتعاملون بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة ، والدنانير البيزنطية وكانت من الذهب . فلما جاء الرسول عليه الصلاة والسلام أقرهم على ذلك ، وكذلك فعل من بعده خليفته أبو بكر الصديق [(٢)] . وتذكر بعض المراجع أن أول من ضرب النقود من الخلفاء هو عبد الملك بن مروان [(٣)] ، على أن المقريزى [(٤)] يذكر أن عمر بن الخطاب أقر النقود على حالها إلا أنه فى سنة ١٨ هـ ضرب الدراهم على نقش الفارسية وشكلها غير أنه زاد فى بعضها « الحمد لله » وفى بعضها « محمد رسول الله » وفى بعضها « لا إله إلا الله وحده » . ولما بويع عثمان بن عفان بالخلافة ضرب دراهم ونقش عليها « الله أكبر » [(٥)] .

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣١٦

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٦٥ — ٤٦٦ والمقريزى : النقود الإسلامية ص ٢ — ٤

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٨ والقلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٤٢٤ وأبو المحاسن : النجوم جـ ١ ص ١٧٦

(٤) المقريزى: النقود الاسلامية ص٤ — ٥ والمقريزى: إغاثة الأمة ص٥١ — ٥٢

(٥) المقريزى : النقود الاسلامية ص ٥ وإغاثة الأمة ص ٥٢

وقد سك معاوية فى خلافته أيضاً دراهم ودنانير[١] . ولما قام عبد الله ابن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة ، ويقال إنه أول من ضرب الدراهم المستديرة كذلك ضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق ، فلما قدم الحجاج بن يوسف العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أبطل تلك العملة وقال : « ما نبقى من سنة الفاسق أو المنافق شيئاً[٢] »

غير أن هذه النقود التى سكها خلفاء الدولة الإسلامية وأمراؤها لم تثبت على وزن واحد بل كانت متغيرة الأوزان[٣] . كذلك كان العرب يتعاملون بالنقود الأجنبية جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية ، إلى أن ولى عبد الملك ابن مروان الخلافة وتمهدت له الأمور فى الدولة بعد القضاء على منافسيه والخارجين عليه ، فأراد أن يصلح النقود ويوحدها فى جميع المملكة الإسلامية ويستغنى عن النقود الأجنبية[٤] .

---

(١) المقريزى : النقود ص ٥ وإغاثة الأمة ص ٥٢ — ٥٣

(٢) المقريزى . النقود ص ٥ — ٦ وإغاثة الأمة ص ٥٣

(٣) انظر المقريزى : النقود ص ٤ — ٦ وإغاثة الأمة ص ٥١ — ٥٣ De Sacy : Traité des monnaies Musulmanes pp. 17—19 والأب انستاس الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص ٢٧ — ٣٣

(٤) روى المؤرخون أن السبب الذى حدا بعبد الملك إلى هذا هو أن القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر ويأتى العرب من قبل الروم الدنانير فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذى يكتب فى رؤوس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله . فكتب إليه ملك الروم إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه ، فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه . قال فكبر ذلك فى صدر عبد الملك وكره أن يدع سنة حسنة سنها فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره فى ذلك فلم يكن منه إلا أن قال . حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سكا ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا فى الطوامير . فقال عبد الملك : فرجتها عنى فرج الله عنك ، وضرب الدنانير (البلاذرى . فتوح البلدان ص ٢٤٠ والمقريزى : النقود ص ٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٧٦ — ١٧٧)

ولذا نرى عبد الملك يضرب الدنانير والدراهم في سنة ٧٦ هـ بعد تعديل في أوزانها مما يتفق والزكاة . وقد أرسل إلى الأمصار الإسلامية كلها لتضرب نقودها بمقتضى السكة التي ضربها عبد الملك[١] . وربما حمل المؤرخين على القول بأن عبد الملك بن مروان أول من ضرب النقود في الإسلام كونه نظم سك النقود وجعلها وزنا واحداً وجعلها تسرى في جميع أنحاء المملكة الإسلامية ، لأننا رأينا أنه ضربت نقود فعلا قبل عبد الملك . والحق أن لعبد الملك الفضل الأول في إصلاح السكة وتوحيدها في أنحاء الدولة الإسلامية والاستغناء عن النقود الأجنبية . وهذا مما يسهل كثيراً في انتظام المعاملات ، إذ أن كثرة ضروب العملة الموجودة في بلد ما تدعو إلى الاضطراب في التعامل ، وكان الخلفاء من بعد عبد الملك يضربون سكة على وزن سكته وأحيانا يغيرون في أوزانها . ولما انتهت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ صار الخلفاء العباسيون يضربون سكا أيضاً .

* * *

تدل قطع « الاستراكا »[٢] على أن المعاملات بين الأهالى في مصر قبل الفتح كان أساسها العملة الذهبية المعروفة بالدينار tremision, solidus denarius [٣] ، أى أن مصر كانت تتبع قاعدة الذهب[٤] . ويذهب علماء الاقتصاد السياسى إلى القول بأن نظام المعدن الفردى الذهبى لا يمنع استعمال

---

(١) انظر : المقريزى : شذور العقود ص ٦ — ٨ والأب انستاس الكرملى : النقود العربيه ص ٣٤ — ٣٩

(٢) قطع من الفخار والأحجار ، كتبت عليها بعض الشعوب القديمة ، ولا سيما الاغريق والفراعنة والقبط ، واستنبط منها علماء الآثار كثيرا من الحقائق التاريخية .

(٣) Crum : Coptic Ostraca. pp. 23. 45. 78. 79. 80

(٤) إذا كان أساس النظام النقدى في الدولة الذهب يقال إنها تتبع قاعدة الذهب gold standard (الدكتور عبد الحكيم الرفاعى . الاقتصاد السياسى جـ ١ ص ٤٧٩)

نقود أخرى غير الذهب ، وبخاصة النقود الفضية ، ولكن الذهب يكون وحده هو العملة القانونية التي لها قوة إبراء غير محدودة[١] ، وتعتبر النقود الأخرى عملة مساعدة[٢] ، ولا نجد في الاستراكا سوى إشارة أو اثنتين إلى النقود الفضية في مصر وتعرف بالدراهم[٣] . ويظهر أن النقود الصغيرة التي كانت تستعمل في مصر إذ ذاك — كالقروش وكسورها اليوم — كانت العملة البرنزية[٤] .

ويقول المقريزي[٥] : « أما مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المنسوب إليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ذهباً في سائر دولها جاهلية وإسلاما ، يشهد لذلك بالصحة أن خراج مصر في قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب » .

وتؤيد أوراق البردي وقطع الاستراكا ماذكره المقريزي ، إذتشهد كلها بأن الجزية والضرائب وإيجار الأراضي وأجور العمال وسائر المعاملات كانت تدفع بالدنانير وأقسامها ، وتعرف الدنانير في أوراق البردي اليونانية باسم solidi[٦] . ويظهر أن مصر بعد الفتح كان يتعامل فيها بالدنانير الذهبية التي كان يتعامل بها قبل ذلك ، ولا بد أن النقود الإسلامية قد دخلت فيها

---

(١) أي تكون أداة للوفاء فإن القانون لا يعترف لغيرها بقوة الإبراء من الديون — عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ص ٤٤٨

(٢) عبد الحكيم الرفاعي : الاقتصاد السياسي ص ٤٨

(٣) Crum : op.cit. p. 23

(٤) Crum : op. cit. p. 23. 42. 45

(٥) النقود الاسلامية ص ١١ وإغاثة الأمة ص ٦٢

(٦) Crum: Coptic Ostraca. pp.36—37, Bell:(der Islam 11).pp.271. 274 etc., Becker: Neue Arabische Papyri. pp. 254—267 etc.,Grohmann Arabic Papyri vol. 11. pp. 44, 45, 48, vol. 111. pp. 17, 31 48. 141

بعد الفتح . ويذكر Quatremère [١] وSauvaire [٢] أن الكاتب القبطى بشندى Picendi أسقف قفط الذى عاصر فتح العرب ، كتب كتابا إلى أساقفة أمته (وهذا الكتاب محفوظ فى مكتبة باريس) يقول فيه : « إن العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس وصورة السيد المسيح ومسحوا الصليب وصورة المسيح و كتبوا محلها اسم نبيهم محمد الذى يتبعون تعاليمه واسم خليفة نبيهم ونقشوا الاسمين معاً على النقود الذهبية » .

وربما ظلت النقود الأجنبية فى مصر يتعامل بهـا جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية حتى إصلاح عبد الملك بن مروان للسكة وتحريمه الدنانير الأجنبية ، أى أن السكة فى مصر خضعت للسكة الإسلامية ، وهذا مظهر من مظاهر التبعية دون شك . ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة فى الخلافة إلا بعد أن استقلت عنها كما حدث فى عهد أحمد بن طولون [٣] . وفى ذلك يقول المقريزى [٤] : « ومع هذا فإن مصر لم تزل منذ فتحت دار إمارة وسكتها إنما هى سكة بنى أمية ثم بنى العباس إلا أن الأمير أبا العباس أحمد ابن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية » .

---

(١) Mémoires géographiques et Historiques sur l'Egypte t. 1, p 343.

(٢) Matériaux (Journal Asiatique. Septième Série T. XIV) pp. 456—457.

(٣) Stanley Lane-Poole : Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo pp 135-6

(٤) النقود الإسلامية ص ١٢

٣ — النظام الحربى

١ — الجيش

بعد أن تم للعرب فتح مصر بقى بها جيش احتلال عربى ولم يشرك العرب المصريين فى هذا الجيش ، ولم يرد فى صلح بابليون أية إشارة تدل على السماح للمصريين بالاشتغال بالجندية . وربما دعا العرب إلى انتهاج تلك السياسة خوفهم من أن يحيى المصريون روح القومية المصرية على حسابهم وأن يقوموا بطردهم من بلادهم متى حانت لهم الفرصة ، فرأوا من الحكمة أن يبعدوهم عن الأعمال الحربية وألا يتركوا لهم إلا الأعمال المدنية . وربما كان العرب يشكون فى كفاءة المصريين الحربية ، إذ كان المصريون زمن الفتح قد غمرتهم روح التواكل والاستسلام ، بينما كان العرب حينذاك شعباً يتقد حماسة وشجاعة ، ولم يكونوا قد تنعموا بعد وغمرتهم تلك الروح التى تغمر الشعوب حين تعتاد الترف والرخاء .

ولا أدل على هذه الروح المعنوية القوية وهذا الجهاد فى سبيل الله من تلك الكلمات التى فاه بها عبادة بن الصامت رسول عمرو بن العاص أثناء المفاوضات التى جرت بين العرب والروم قبل فتح حصن بابليون ، إذ قال للمقوقس : « أنا قد وليت وأدبر شبابى وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه . وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلب للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا . وما يبالى أحدنا إن كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها

يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله واقتصر على هذا الذى بيده ، ويبلغه ما كان فى الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه[1] » .

وقد حرم الخليفة عمر بن الخطاب على الجند فى مصر وفى سائر الأقاليم المفتوحة الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض ، لئلا يركنوا إلى الكسل ويسيطر عليهم حب المال والنعيم . والحق أن العرب بهرتهم ثروة البلاد التى فتحوها ، بل إن رغبتهم فى الانتفاع بخيراتها العظيمة كانت من الأسباب التى شجعتهم على المضى فى حروبهم وشحذت هممهم للغزو والفتوحات[2] .

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩١

(٢) ليس فى هذا مايشين الإسلام فى شىء ولاسيما من قوم كالعرب لم تجد الطبيعة على بلادهم بغنى وخصب يجعلان العيش فيها سهلا ميسورا . فانتظار الغنيمة كان من أسباب الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع الميلادى وظل من العوامل المعروفة فى الحروب حتى العصر الحديث . وحسبنا أن نذكر قول بونابرت للجنود الذين سار على رأسهم لغزو إيطاليا سنة ١٧٩٦ : « أيها الجنود ! أنتم عراة وليس لديكم الغذاء الطيب الكافى والحكومة مدينة لكم بالكثير ، ولكنها لاتستطيع أن تعطيكم شيئاً وسوف أقودكم الآن فى أخصب سهول الدنيا وستصبح فى يدكم مقاطعات غنية ومدن كبيرة ... »

ولا يفوتنا أن المؤرخين العرب أنفسهم قد فطنوا إلى هذا السبب الاقتصادى فكتب البلاذرى مثلا : « قالوا لما فرغ أبو بكر رضى الله عنه من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفى غنائم الروم فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب ... » (فتوح البلدان . ط القاهرة سنة ١٩٠١ ص ١١٤) راجع أيضا
L. Caetani , Annali dell' Islam vol 2 pp 831—861

وقد بدا خطر هذه الروح للخليفة عمر بن الخطاب فأراد كبح جماح الجند لأن واجب الجهاد كان يناديهم فى كل مكان ، فلم يرض بتقسيم الأراضى بينهم كما رأينا ، بل حرم عليهم الاشتغال بالزراعة . ويذكر ابن عبد الحكم[1] فى رواية له عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد بأن يمنعوا الجنود من الزرع والمزارعة[2] لأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل .

وكتب الماوردى[3] أن من واجبات أمير الجيش « أن لا يمكن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بهما عن مصابرة العدو وصدق الجهاد » . ويرى Lane-Poole [4] أن من أسباب تلك السياسة أن الاستعمار الدائم كان بعيداً كل البعد عن تفكير عمر بن الخطاب ، وأنه كان حريصاً على أن يظل الجند على أهبة الاستعداد للانتفاع بهم فى أى مكان آخر عن امتلاك الأراضى والاستقرار ليكونوا مستعدين دائما للجهاد والحرب .

ولكننا لا نستطيع الأخذ بهذا الرأى فليس امتلاك الجند الأرض شرطا للاستعمار المنظم . ولا يعقل أن جيوش المسلمين كانت حملات للنهب والسلب . بل الأرجح أن عدم امتلاك الأراضى كان سياسة موضوعة وأنه جزء من سياسة نشر الدين الإسلامى ونفوذ المسلمين ، تلك السياسة التى حرص العرب على اتباعها فى البداية لحببتهم إلى الشعوب التى غلبوها على

(١) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٦٢

(٢) إذا أجر المالك جزءاً من أرضه واتفق مع المستأجر على أن يؤدى الايجار من المحصول عرف ذلك باسم المزارعة . وفى القاموس زارع فلانا أى عامله على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها

(٣) الأحكام السلطانية ص ٤٢

(٤) A History of Egypt in the Middle Ages p. 15

أمرها ، وكان لهذه السياسة أكبر الأثر فى تثبيت أقدامهم فى البلاد التى حلوا بها . فالاحتلال العربى يذكرنا بالاحتلال الرومانى قديماً والاحتلال الإنجليزى حديثاً ، فإننا لا نلمس تدخلا كبيراً من جانب تلك الشعوب فى نظم البلاد المفتوحة رغم أنهم يستغلونها استغلالا منظما وينتفعون بثرواتها أيما انتفاع ويحتفظون لأنفسهم بالحكم والسيادة والرئاسة العليا لها . وطبيعى أن الكلام على « احتلال عربى » لا ينصرف إلا إلى الفترة السابقة لتعريب مصر واندماج المصريين والعرب لتأليف الأمة المصرية الحديثة .

و يعزو المؤرخون تدوين الدواوين إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فى عهده ، فكان لا بد من ضبط الأموال وتقرير العطاء المفروض للأجناد وأسراتهم وما إلى ذلك مما تطلبه أمور الدولة بعد اتساعها ، وكان فى مصر ديوان للجند تدون فيه أسماؤهم وأسراتهم لتقرير العطاء والأرزاق اللازمة لهم . وأول من دون ديوانا للجند فى مصر هو عمرو بن العاص ، ثم دون عبد العزيز بن مروان[1] تدويناً ثانياً ، ودون قرة ابن شريك التدوين الثالث ، ثم دون بشر بن صفوان (١٠١ — ١٠٢ هـ) التدوين الرابع[2] . وكان الجند يثبتون فيه على حسب قبائلهم التى ينتمون إليهـا ، ونلاحظ هذا فى نظام الجيش الذى فتح مصر ، إذ كان مقسما على حسب القبائل ، وفى مدينة الفسطاط أيضاً التى اختطها العرب اتخذت كل قبيلة لنفسها خطة مستقلة عن القبائل الأخرى . وكان أهل الديوان فى مصر

---

(١) فى كتاب الولاة والقضاة يذكر الكندى أنه تدوين عمر بن عبد العزيز ابن مروان ، ولكن المقريزى يذكر أنه تدوين عبد العزيز بن مروان ، وهو الصحيح

(٢) الكندى ص ٧١ وخطط المقريزى : جـ ١ ص ٩٤

زمن خلافة معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفا[1]. ويذكر ابن عبد الحكم[2] والمقريزى[3] أن معاوية بن أبى سفيان جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا يدور على المجالس كل صباح ليسأل عما إذا كان مولود قد ولد فيهم أو ضيف حل بهم فيكتب أسماءهم وأسراتهم ويذهب إلى الديوان ليثبتهم فيه .

والذى حمل بشر بن صفوان على تدوينه الديوان ما رآه من تفرق قبيلة قضاعة فى القبائل الأخرى ، فاستأذن الخليفة يزيد بن عبد الملك ليستخرجهم من كافة القبائل ويجعلهم فى قبيلة على حدة فأذن له بذلك[4] .

ونجد بعد هذا أن قبيلة قيس مثلا تلحق بالديوان زمن الخليفة هشام بن عبد الملك[5] . ومن يقرأ أخبار الولاة يجد عادة أن كل وال جديد يصحب معه نفرا من قبيلته وعشيرته ، وكان هؤلاء الولاة عربا حتى نهاية الدولة الأموية . أما فى الدولة العباسية فقد جدت عناصر أخرى فارسية دونت فى الديوان . ثم ما لبث أن ظهر عنصر آخر طغى على العنصر العربى والفارسى ، وقوام هذا العنصر الجديد الجند الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم وأثبتهم فى الديوان. بل إن المعتصم لم يقف عند هذا ، فقد أمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم فى سنة ٢١٨ هـ ففعل ذلك كيدر[6]، وكان من أثر هذا أن انتشر العرب فى أنحاء مصر يسمون

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٩٤

(٢) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٠٢ .

(٣) الخطط ج ١ ص ٩٤

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٠ — ٧١

(٥) الكندى ص ٧١

(٦) الكندى : ص ١٩٣ وخطط المقريزى : ج ١ ص ٩٤

وراء الرزق عن طريق آخر غير طريق الجهاد والحرب ، فاحترفوا الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من المهن والحرف التي كانت إلى ذلك الوقت وقفا على أهل البلاد .

ويستنبط من أوراق البردى أن الوالى كان يطلب المال من أصحاب الكور عند حلول موعد عطاء الجند وأسراتهم (١) أو يطلب من أصحاب الكور إرسال ضريبة الطعام لتوزيع الأرزاق على أهل الديوان (٢) .

ولسنا نعرف تماما المبادىء التي كانت تقدر على أساسها أعطيات الجند وهل كان ينظر إلى القبيلة وسابقتها فى الإسلام وفضلها فى الجهاد ، أو كان الأساس قدر ما على الشخص من التزامات عائلية . ولكن من المحتمل أن بعض الخلفاء كان يزيد أعطيات بعض القبائل استرضاء لها واصطناعاً لأبنائها ، ولعل عطاء الفارس كان ضعف عطاء الراجل ليستطيع أن ينفق منه على فرسه

ويذكر الماوردى أن تقدير العطاء كان بحيث يغنى المرء عن الاشتغال بحرفة أخرى تشغله عن القتال والحرب . ومهما يكن ، فقد كان من الواجب أن يراعى فى تقدير العطاء ثلاثة وجوه : أحدها عدد من يعوله الفرد من الذرارى والمماليك ، والثانى عدد ما عنده من الخيل والظهر (٣) . والثالث ظروف الموضع الذى يحل فيه من الغلاء والرخص . وإذا مات أحدهم أو قتل يصبح عطاؤه إرثا من بعده يأخذه ورثته . ويختلف الفقهاء فى ذلك ، فبعضهم

---

(١) Becker: Neue Arabische Papyri. pp. 251—252, Grohmann: Arabic Papyri vol. 111. pp. 12—13

(٢) Bell: Translations of the Greek Papyri (Der Islam, Band 11.) p. 271

(٣) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال

يقول إن ورثته يحالون على مال العشر والصدقة لأن عطاءه قد سقط بموته ، والبعض يقول بأن يورث ورثته من عطائه ، وهذا فيه تشجيع للجنود على التجند .

ونحن نعرف من المصادر التاريخية أن العطاء لم يستمر على حال واحدة ، فالخليفة عثمان بن عفان أول من زاد فى عطاء الجند[١] ، ولكن هذه الزيادة لم تستمر بعده ، فبعض الخلفاء أبقاها والبعض منعها . فنجد مثلا عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) يكتب بزيادة أعطيات الناس فى ولاية أيوب ابن شرحبيل (٩٩ — ١٠١ هـ)[٢] ويأمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بمنعها (١٠١ — ١٠٥ هـ)[٣] . كذلك كانت الحال فيما يختص بالأرزاق ففى رواية عن ابن لهيمة أن أرزاق المسلمين كانت اثنى عشر أردبا فى كل سنة فنقص أردبين أردبين فصار كل رجل إلى عشرة ، فلما ولى حفص بن الوليد (فى ولايته الثانية ١٢٤ — ١٢٧ هـ) صيرهم إلى اثنى عشر اثنى عشر[٤] . ويجدر ملاحظة كثرة هذه الكمية التى كانت تصرف للفرد الواحد ، ولكن المفروض أن كل رجل يعول أسرة . على أن إنقاص العطاء والأرزاق كثيراً ما كان يثير اضطرابات ومشاكل عدة بين الأجناد العرب المقيمين فى مصر ، خصوصاً فى أواخر الدولة الأموية وفى خلال الدولة العباسية عند ما أصبح العرب يملكون أراضى زراعية ، إذ أصبحوا يؤدون خراجا وفى الوقت نفسه يأخذون عطاء ، وإنقاص العطاء أو زيادة الخراج يكون معناه زيادة الأعباء المالية على العرب ، وهذا كان سبباً فى ثوراتهم بمصر كما سنرى . ولا أدل على

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٩٣

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٦٨

(٣) الكندى ص ٧٠

(٤) الكندى ص ٨٢

كثرة الاضطرابات والمشاكل التى قامت بين العرب بسبب العطاء والأرزاق من أنه فى عهد ولاية الحسن بن التختاخ (١٩٣ — ١٩٤ هـ) بمصر ثاروا عليه حينما أعطاهم العطاء ثلثاً عيناً[١] وثلثاً بزاً[٢] وثلثاً قمحاً ، ووقعت فتنة عظيمة قتل بسببها فريق من الجند ومن أهل مصر فى المسجد الجامع وانقض أهل الرملة على بعض الأموال وهى فى طريقها إلى دار الخلافة وأخذوا منها عطاءهم كاملا وقالوا . هذا عطاؤنا قد ساقه الله إلينا[٣]

ولسنا نعرف كيف كانت الأعطيات تصرف للجند ، ولكن أكبر الظن أن الجند كانت فيهم رتب مختلفة من أمير وعريف وخليفة وقائد ونقيب وما إلى ذلك من الرتب التى لم نتبين تماماً الفرق بين كل منها فى فجر الإسلام ، ومن المحتمل أن العرفاء كانوا يتسلمون الأعطيات ويتولون تفريقها على الجند

ويظهر أنه كان هناك وقت معين يعرفه الجند أو أهل الديوان ، يتسلمون فيه عطاءهم على رأس كل سنة . ويقال إن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قطع العطاء عن جند مصر سنة فكتب إليهم كتابا يعتذر فيه فى السنة التالية ، ويقول « إنى إنما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدو حضرنى فاحتجت فيه إلى المال ، وقد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة فكلوا هنيئاً مريئاً وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه[٤] »

ومن أقوال الفقهاء فى هذا الصدد[٥] : « ويكون وقت العطاء معلوما

---

(١) العين : الذهب المضروب أو الدينار خلاف الفضة المضروبة
(٢) البز : الثياب من الكتان أو القطن . السلاح والجمع بزوز
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٤٦
(٤) الكندى ص ١٩٤ وخطط المقريزى : جـ ١ ص ٩٤
(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٥ — ١٩٦

يتوقعه الجيش عند الاستحقاق وهو معتبر بالوقت الذى يستوفى فيه حقوق بيت المال ، فإن كانت تستوفى فى وقت واحد من السنة جعل العطاء فى رأس كل سنة ، وإن كانت تستوفى فى كل شهر جعل العطاء فى رأس كل شهر ، ليكون المال مصروفا إليهم عند حصوله فلا يحبس عنهم إذا اجتمع ولا يطالبون إذا تأخر ، وإذا تأخر عنهم العطاء عند استحقاقه وكان حاصلا فى بيت المال كان لهم المطالبة به كالديون المستحقة ، وإن أعوز بيت المال لعوارض أبطلت حقوقه أو أخرتها كانت أرزاقهم دينا على بيت المال وليس لهم مطالبة ولى الأمر به ، كما ليس لصاحب الدين مطالبة من أعسر بدينه »

كذلك اشترط على المصريين ضيافة الأجناد ، فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام[١] ، وهذا كان يوفر على الجند كثيراً من العناء عند انتقالهم من جهة إلى أخرى فى أنحاء مصر .

ولا يسمح المقام هنا بأن نعرض للتجنيد فى الإسلام عامة من حيث إنه كان تطوعا فى البداية ثم دخله نوع من الإلزام فى عصر بنى أمية ، فاننا لا نكاد نرى فى المصادر العربية مايساعد على أن نجلى غوامض هذه المسألة وأكبر ظننا أن حال التجنيد من تطوع وإلزام كان يتغير بين حين و ... بتغير الأمراء واختلاف ظروف القتال وقوة الخلافة نفسها ونوع العناصر التى كانت تعتمد عليها فى تكوين الجيوش الإسلامية .

وكان ملحقا بالجيش طائفة تسمى المطوعة ، وربما كان أساسها أهل البلاد الذين كانوا فى جيش مصر أثناء الفتح العربى لها ، وهذا لا يخالف ما ذكرناه من أن العرب أبعدوا المصريين عن الاشتراك فى الجيش

---

(١) ابن عبد الحكم — طبعة المعهد — ص ٦٤ والمقريزى — خطط ج ١ ص ٢٩٢ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥١

إذ أن هؤلاء المطوعة لم يدخلوا فى صلب الجيش ولم يشتركوا اشتراكا فعلياً فيه ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى خدمة الجيش وفى أوقات الضرورة القصوى كما كان عملهم مقصوراً على مصر وحدها ، ولم يكن لهؤلاء المطوعة عطاء ولم يثبتوا فى الديوان ، إنما كان عطاؤهم من الصدقات . فيذكر الكندى[٢] أن مواحيز[٣] مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة ، وكانت أحباس السبيل[٤] التى يتولاها القضاة تجمع فى كل سنة فإذا جاء شهر أبيب فرق القاضى أموال السبيل التى جمعت من الأحباس على المطوعة ، ومن كان فقيراً من أهل الديوان الذين يشغلون مواحيز مصر من العريش إلى لوبية ومراقية[٥] .

ويحسن هنا أن نشير إلى اهتمام الخلفاء بأمر حامية مصر وذلك لأهمية موقعها ، فمصر تقع فى منطقة يسهل منها التوسع جنوبا وغربا وشرقا بل وشمالا عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، أى أنهـا قاعدة للفتوحات والتوسع ما دامت محتفظة بقوتها ، أما إذا تطرق إليها الضعف فان العدو يهددها من هذه الجهات . أى أن مركز مصر يتطلب السهر دائما على شئونها والعناية

---

(٢) الولاة والقضاة ص ٤١٨ — ٤١٩

(٣) الماحوز : المكان الذى يكون بين القوم وبين عدوهم وهو من استعمال أهل الشام ، ويذكر Dozy أن الماحوز فى سوريا معناه الحدود Supplément aux dictionnaires Arabes)

(٤) أحباس السبيل : الأوقاف التى توقف فى سبيل الله

(٥) مراقية : اسم لحد مصر الغربى بينها وبين برقة . فى خطط المقريزى ج ١ ص ١٦ « قال القضاعى : الذى يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقية وفى آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس وهى برقة » وفى ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٧٠ لوبية ومراقية كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من السماء ولا ينالها النيل .

بالجيش الذى يحميها . وليس غريباً أن ترى الرواة ينسبون إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه أحاديث خاصة بهذا الشأن ، فقد روى عبدالله بن لهيعة عن حديث لعمرو بن العاص أنه قال « حدثنى عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يارسول الله ؟ قال : لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة[١] »

وروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال فى خطبة له بمصر : « واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية[٢] »

ولا بد أن حامية مصر قد زادت بعد الفتح زيادة كبيرة ، ونعلم أن حامية الاسكندرية أو رباطها كانت إثنى عشر ألفاً (٤٣ — ٤٤ هـ) ، ولكن قائد هذا الرباط كتب إلى عتبة بن أبى سفيان والى مصر يشكو قلة من معه من الجند وأنه يتخوف على نفسه وعليهم[٣] . ونستطيع أن نلمس هذه الزيادة الكبيرة إذا تذكرنا أن الجيش الذى قدم إلى مصر لفتحها قبل ذلك بنحو عشرين عاما كان كله يتراوح بين ١٢ ألفاً و١٥ ألفاً من الجنود .

وقد ظلت مصر طوال هذا العهد قاعدة للفتوحات والتوسع تخرج منها جيوش الخلافة جنوبا وغربا ، إما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التى ذهبت لفتح النوبة أو لفتح برقة ، وأما لمشاركة جيوش الخلافة فى حملاتها للتوسع غربا ، فمنذ ما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مصر فى خلافة

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٤

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦

(٣) الكندى ص ٣٦

عثمان بن عفان خرج منها لغزو أفريقية(١) .

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان خرجت جيوش الخلافة من مصر لغزو أفريقية أيضا . ومن القواد الذين اشتهروا بغزوها في عهد معاوية عقبة ابن نافع الفهري(٢) وغزيت أفريقية من مصر أيضا في خلافة عبد الملك بن مروان(٣)، وفي أوراق البردى أن المصريين اشتركوا في الأسطول الذي ذهب لغزو أفريقية بحرا في خلافة الوليد بن عبدالملك(٤)، والواقع أن غزو أفريقية كان منذ البداية على يد الجند من الحامية العربية في مصر .

وكتب البلاذرى « كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والى مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب »(٥) وكان إخضاع برقة وطرابلس على يد جنود عمرو بن العاص ، ولكن فتح شمالي أفريقيا بدأ سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) بقيادة خلفه في ولاية مصر عبد الله ابن سعد ومعه جنود من حامية مصر وجنود آخرون أمده بهم الخليفة عثمان بن عفان . وقد نجح الجيش الاسلامى في الوصول إلى الموضع الذي تقوم فيه الآن مدينة القيروان ، ثم انحدر إلى الجنوب الغربي وأوقع بجيش البيزنطيين هزيمة منكرة عند سبيطله وأصاب غنائم كثيرة ، ولكن البيزنطيين كانت لهم حاميات أخرى في قلاع حصينة ومدن منيعة ، ولعل

---

(١) ابن عبد الحكم : طبعة تورى ص ١٨٣ — ١٨٤ والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٦ — ٢٢٧ والكندى : الولاة والقضاة ص ١٣

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٩٤ — ١٩٧ والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٣) ابن عبد الحكم . شرحه ص ٢٠٠ — ٢٠١ والبلاذرى . شرحه . ص ٢٢٩ .

(٤) Bell : op. cit (der Islam II) p. 279

(٥) فتوح البلدان ص ٢٣٢

عبد الله بن سعد كان يخشى أن يعودوا إلى الهجوم فقبل ما عرضه عليه عظماء إفريقية حين تقدموا إليه بأن يترك البلاد على أن يأخذ منهم غرامة حربية كبيرة . فرجع الجيش إلى مصر مثقلا بالغنائم بعد حملة دامت نحو عام كامل أدرك فيها ضعف إفريقية وسهولة فتحها وبذر فيها الفوضى وشجع قبائل البربر على الخروج على طاعة البيزنطيين .

وكان منتظرا أن يعود العرب فى مصر إلى غزو إفريقية ولكن أزمة الخلافة والنزاع بين على ومعاوية والشأن الذى كان لمصر فى الثورة على عثمان ثم النزاع على الخلافة من بعده كل ذلك ترك لافريقية فترة هدوء وسلام وأبعد عنها الفاتحين المسلمين نحو سبعة عشر عاما .

ولما استقر الامر لبنى أمية عاد عمرو بن العاص إلى ولاية مصر وعاد الجند المسلمون فى مصر إلى التطلع نحو الغرب ولكن عمرو بن العاص توفى سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) وخلفه ابنه عبد الله ثم عزله الخليفة معاوية وولى معاوية بن حديج زعيم الحزب الأموى بمصر أثناء النزاع بين على ومعاوية .

وخرج معاوية بن حديج إلى أفريقية بأمر من الخليفة على رأس جيش من حامية مصر سنة ٤٤هـ (٦٦٤م) . فهزم جيشا بيزنطيا كبيرا نزل من البحر عند Hadrümetum (سوسه الحالية) واستولى على حصن جلولاء ثم رجع إلى مصر محملا بالغنائم .

وأتى بعد ذلك دور احتلال إفريقية وفتحها فتحا منظما ، وكان ذلك على يد عقبة بن نافع الذى شيد مدينة القيروان سنة ٥٠هـ — (٦٧٠م) وبالرغم من ذلك فإن إفريقية لم تصبح فى عهده ولاية قائمة بذاتها تتبع الخلافة مباشرة ، بل ظلت ملحقة بولاية مصر ، بل إن عقبة بن نافع نحى عن حكمها حين عهد معاوية بن أبى سفيان بولاية مصر والمغرب لمسلمة بن مخلد الأنصارى

فولى المغرب أبا المهاجر أحد مواليه . ولـكن عند ما ولى الخلافة يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع إلى قيادة المسلمين فى إفريقية سنة ٦٢ ﻫ (٦٨١ م) فقام بحملة واسعة النطاق فى شمالى أفريقية هزم فيها جيوشاً من الروم والبربر وتقدم إلى أن وصل إلى شاطىء المحيط عند طنجة ، ويروى أنه قال حينئذ : « يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك » . على أن عقبة لم يحسن سياسته ولم يفد من هذه الانتصارات ، بل اتحد ضده الروم والبربر بزعامة كسيلة . وقتل عقبة وانهزم جيشه سـنة ٦٤ ﻫ (٦٨٣ م) واضطر المسلمون إلى التخلى عن كل فتوحاتهم غربى برقة وارتد عن الإسلام معظم البربر الذين كانوا أسلموا قبل ذلك .

ولم يستطع المسلمون أن يبادروا بالأخذ بالثار ، فقد شغلهم عن ذلك ما كان من نزاع بين الخليفة عبد الملك بن مروان ومنافسه عبد الله بن الزبير ، ثم انتهز عبد الملك فترة هدوء فأرسل إلى إفريقية جيشا سيره أخوه وعامله على مصر عبد العزيز بن مروان ، وعقد لواءه لزهير بن قيس البلوى . واستطاع المسـلمون أن يهزموا جيوش الروم والبربر سـنة ٧٠ ﻫ (٦٨٩ م) وقتل فى هذه المعركة كسيلة زعيم البربر وترك زهير بن قيس حامية بالقيروان ورحل يريد الرجوع إلى مصر ولـكنه فوجىء فى برقة بحملة أنزلها الروم من البحر حين بلغهم أنه تقدم من برقة إلى إفريقية وترك برقة خالية فعاثوا فيها فسادا وقاتلوه هو ومن معه حين عادوا من إفريقية فى طريقهم إلى مصر وكان النصر للبيزنطيين وقتل زهير ومعظم جنوده . وعزم الخليفة عبد الملك ابن مروان على الانتقام لهذه الهزيمة وكان النزاع بينه وبين عبد الله بن الزبير قد انتهى بقتل عبد الله ، فاستطاع الخليفة أن يرسل إلى إفريقية جيشا كبيرا بقيادة حسان بن النعمان الغسانى . ونجح هذا الجيش فى طرد الروم من

قرطاجنة بمساعدة الأسطول الإسلامى سنة ٧٧هـ (٦٩٨ م) ثم تحول إلى البربر فى جبل أوراس حيث نجحت زعيمتهم « الكاهنة » فى توحيد كلمتهم وهزمت المسلمين . فتقهقر حسان ومن بقى من جيشه إلى برقة . وظل فيها خمس سنين ، كانت الكاهنة خلالها تحكم إفريقية حكما مطلقا قوامه الظلم والعسف ، والظاهر أنها ظنت أن المسلمين يريدون استغلال بلادها ، وحمل الغنائم منها فلجأت — حين شعرت بقرب هجومهم — إلى تخريب البلاد وهدم العمائر وقطع الأشجار مما أثار الحضر والمشتغلين بالزراعة من سكان البلاد سواء أكانوا من البربر أم من الروم ، واستطاع المسلمون بقيادة حسان ابن النعمان أن يفيدوا من هذه الحال ، ورحب بهم كثيرون من السكان واستطاعوا أن يوقعوا بجيش الكاهنة هزيمة منكرة ، وانتهت بقتلها مقاومة البربر . وعاد حسان إلى القيروان ثم عزله الوليد بن عبد الملك . وفى سنة ٨٦هـ (٧٠٥ م) . أرسل الخليفة إلى إفريقية موسى بن نصير والياً على البلاد يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة . وهكذا أصبحت إفريقية منذ ذلك الحين ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر ، بعد أن كانت منذ بدأ الفتوح تتبعها فى الإدارة وتتلقى منها الجيوش الفاتحة .

على أن مصر لم تكن مركزا للعمليات الحربية البرية فحسب ، بل كان على المسلمين أن يعنوا بحماية سواحلها ، وقد أثبتت الحوادث أنهم كانوا محقين فى ذلك ، فكثيرا ما أغار الروم على الأسكندرية أو غيرها من الثغور . وقد رأينا أن الروم نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين وأغاروا على الأسكندرية سنة ٢٥ هـ وتقدموا منها إلى الدلتا يريدون إخراج المسلمين من مصر . وتم طرد الروم على يد عمرو بن العاص .

كذلك اشتبك عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر مع الروم فى

سنة ٣٤ هـ (٦٥٤م)، وكانوا تحت قيادة الأمبراطور قنسطانز الثانى[1] (٦٤١ - ٦٦٨ م) الذى كان يحاول طرد العرب من مصر واسترداد الأسكندرية كما فعل فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ويقال إن مراكب الروم فى هذه الغزوة كانت ألف مركب أو سبعمائة، أما المسلمون فقد لقوهم فى مائتى مركب، ورغم هذا فقد انتصر المسلمون عليهم، وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذى الصوارى لكثرة سوارى المراكب واجتماعها[2]، ويقال إن هذه الغزة كانت فى سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) وأن ريحا شديدة فرقت الروم[3]، وقد تتابعت غزوات الروم بعد ذلك على الشواطىء المصرية، ففى إمرة مسلمة بن مخلد على مصر نزل الروم بالبرلس فى سنة ٥٣ هـ فخرج المسلمون إليهم براً وبحراً واستشهد فى تلك الغزوة وردان مولى عمرو بن العاص[4]، ثم نزل الروم على دمياط فى سنة ٩٠ هـ فى خلافة الوليد بن عبد الملك[5] أى أن غزوتهم هذه كانت فى أوائل ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ — ٩٦ هـ) أو فى أواخر ولاية عبد الله بن عبد الملك (٨٦ — ٩٠ هـ)، وكذلك نزل الروم بتنيس[6]

(١) يجدر أن نشير هنا إلى أن المراجع العربية تذكر دائما قسطنطين بن هرقل لاقنسطانز.

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٨٩ — ١٩٠ والكندى ص ١٣ . وخطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٩١ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٨ وخطط المقريزى ج ٢ ص ١٩٠

(٥) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢١٤

(٦) تنيس : بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين مهملة : جزيرة فى بحر مصر (يعنى هنا بحيرة المنزلة) قريبة من البر ما بين دمياط والفرما فى شرقيها (ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٨٢). ويقول المقريزى فى الخطط ج ١ ص ١٨١ « وما زالت تنيس مدينة عامرة ليس بارض مصر مدينة أحسن منها ولا أحصن من عماراتها إلى أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة أربع وعشرين وستمائة فاستمرت خرابا » .

فى سنه ١٠١ هـ فى إمرة بشر بن صفوان (١٠١ — ١٠٢ هـ) وقتل فى تلك الغزوة أميرها مزاحم بن مسلمة المرادى[١] فى جمع من الموالى[٢] وفيهم يقول الشاعر :

ألم تربع فتخبرك الرجال بما لاقى بتنيس الموالى[٣]

وفى خلافة هشام بن عبد الملك نزل الروم دمياط فى إمرة حنظلة بن صفوان الثانية على مصر فى ثلثمائة وستين مركباً فقتلوا وسبوا ، وذلك فى سنة ١٢١ هـ[٤]. ويذكر المقريزى[٥] أنه لما قامت الفتنة بين الأخويين محمد الأمين وعبد الله المأمون وما استتبع ذلك من الفتن فى مصر طمع الروم فى هذه البلاد ونزلوا دمياط فى أعوام بضع ومائتين . كذلك أغار الروم على مصر فى ولاية عنبسة بن إسحاق فنزلوا بدمياط سنة ٢٣٨ هـ وملكوها وقتلوا وسبوا عدداً كبيراً منها ثم مضوا إلى تنيس وأقاموا بأشتومها[٦]، ويظهر أن غزو الروم فى تلك المرة كان وقعه شديداً ؛ فان الخليفة المتوكل أمر ببناء الحصون فى دمياط وتنيس والفرما ، فأنفقت فى ذلك الأموال العظيمة ، وبدىء فى بناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ هـ[٧].

---

(١) فى الكندى ص ٧٠ يقول إنه « ابن أحمر بن مسلمة المرادى » .
(٢) الموالى هنا معناها أهل البلاد الوطنيين أو المصريين .
(٣) الكندى ص ٧٠ وخطط المقريزى جـ ١ ص ١٧٧ .
(٤) خطط المقريزى جـ ١ ص ٢١٤ .
(٥) خطط المقريزى جـ ١ ص ٢١٤ .
(٦) الأشتوم بالضم ثم السكون والنون وتاء مثناة مضمومة والواو ساكنة وميم موضع قرب تنيس (ياقوت . معجم البلدان جـ ١ ص ٢٧٦) .
(٧) الكندى ص ٢٠١ — ٢٠٢ وخطط المقريزى جـ ١ ص ١٨٠ — ٢١٤

ويذكر ابن عبد الحكم[1] والسيوطى[2] أنه لما استقامت البلاد وفتح المسلمون الإسكندرية جعل عمرو بن العاص ربع الجند لرباط[3] الإسكندرية صائفة يقيمون ستة أشهر ، ويعقبهم شاتية يقيمون ستة أشهر أيضاً ، ويقال إن عمر بن الخطاب كان يبعث فى كل سنة جنداً من أهل المدينة ليرابط بالإسكندرية ، وكان يكاتب الولاة قائلا : « لا تغفلها ولا تكشف رابطتها ولا تأمن الروم عليها » ، وكذلك اتبع عثمان بن عفان سنة عمر بن الخطاب ، وكاتب عبد الله بن سعد فى هذا الشأن يقول : « قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالإسكندرية وقد نقضت الروم مرتين فألزم الاسكندرية رابطتها ثم أجر عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر » .

ولا نعلم إذا كان هذا يحدث فى حامية الاسكندرية فحسب أو فى الاسكندرية وحاميات البلاد الأخرى . وربما كان تغيير الحاميات ونقلها يقصد به العرب راحة الجند وتجنب تعويدهم على الإقامة فى مكان واحد كما يتبع فى جيوش العصر الحديث .

ب — البحرية

« ساهمت مصر بنصيب وافر فى إنشاء الأساطيل الإسلامية الأولى ويمكننا القول بأن عبد الله بن سعد الذى خلف عمرو بن العاص فى حكم مصر كان أمير البحر الثانى فى الإسلام . أما أمير البحر الأول فكان معاوية ابن أبى سفيان أثناء ولايته على الشام وقبل أن تصير له الخلافة . فكان

(١) فتوح مصر وأخبارها — طبعة تورى — ص ١٩١ — ١٩٢ .
(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٧١ .
(٣) الرباط : المكان الذى يرابط فيه الجيش . والجمع ربط .

المسلمون يقومون بغزواتهم البحرية ضد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد . وبعد أن كان البحر الأبيض المتوسط فى عهد جستنيان بحيرة بيزنطية أصبح بفضل مصر والشام بحراً إسلامياً . ولا ننسى أن سكان مصر ولا سيما القبط كان لهم الفضل فى بناء السفن وتشييد دور الصناعات فى وادى النيل وفى تونس والشام[1] » .

أجل إن مصر اشتهرت منذ البداية بصناعة السفن التى كان يحتاج إليها أسطول الخلافة ، فالعرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعباً بحريا[2].

ولكن عند ما اتسعت امبراطوريتهم وشملت شعوبا وأمما بحرية ، وعند ما

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) ولكن أهل بلاد العرب الجنوبية فى ممالك معين وسبأ وحمير بإقليم اليمن كانوا يشتغلون بنقل التجارة بين مواطن المدنيات القديمة فى الهند ومصر وبلاد الجزيرة والشام وكانت سفنهم تمخر عباب البحر الواقع جنوبى شبه جزيرة العرب والذى أصبح ينسب إليهم فيقال بحر العرب أو البحر العربى — ومهما يكن من شىء فإن الامبراطورية الاسلامية لم تصبح دولة بحرية بمعنى الكلمة لأن الشعوب التى قامت على أكتافها كالعرب والفرس والترك كانت تتألف فى البداية من قبائل معظمها رحل . ومن الطريف أن بعض المستشرقين أشار إلى أن فى القرآن مواضع شتى يذكر فيها فضل الله عز وجل على الناس بخلق الأرض . ومن ذلك قوله تعالى فى سورة طه آية ٥٣ — ٥٤ (الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) ، أما البحر فقد جاء وصف أحواله فى سورة النور آية ٤٠ (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) راجع مقال الأستاذ هربرت جانسكى عن « البحر فى تاريخ المسلمين وثقافتهم » ، وقد نشر فى كتاب : **Hans Mzik**
Beitrage zur historischen Geographie (Leipzig 1929) p. 42

ومع ذلك كله فلا يستطيع منصف أن ينكر ما حققه المسلمون رغم ذلك من السيادة على البحر الأبيض المتوسط فى فترة من تاريخهم .

راجع أيضاً مادة « سفينة » فى ملحق دائرة المعارف الإسلامية .

اضطروا إلى محاربة شعوب بحرية وعملوا على الاستيلاء على جزائر فى البحار ، بدأوا يشعرون بحاجتهم الماسة إلى أسطول يكون عونا لهم فى تحقيق أمانيهم فى مد سلطانهم وغزو الروم فى عقر دارهم .

لم يكن البحر يركب للغزو فى حياة الرسول عليه الصلاة والصلاة أو فى خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب ، وقيل إن أول من ركب البحر للغزو فى الإسلام العلاء بن الحضرمى وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب ، إذ ندب أهل البحرين وكان أميراً عليها إلى غزو فارس عن طريق البحر بغير إذن الخليفة فغرقت سفن المسلمين وغضب عمر على العلاء ، وأمر بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه .

ولما فتح المسلمون الشام ألح معاوية بن أبى سفيان — وهو يومئذ على جند دمشق والأردن — على الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو البحر معللا ذلك بقرب الروم من حمص ، ولكن الخليفة لم يوافقه على ذلك لأنه خشى على المسلمين من ركوب البحر وقال فى ذلك : « والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » وسرعان ما غيرت الدولة العربية سياستها هذ ورأت ضرورة إنشاء أسطول بحرى للغزو فى البحر وذلك فى خلافة عثمان بن عفان ، فقد وافق على القتال فى البحر على أن يكون الاشتراك فيه تطوعا لا يحمل عليه أحد .

فغزا المسلمون جزائر عدة مثل قبرص وصقلية ورودس وأرواد وكريت وغيرها من الجزائر ، بل إن معاوية بن أبى سفيان غزا مضيق القسطنطينية فى سنة ٣٢ هـ[١] ونعرف أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٧٧ . راجع أيضاً : Lammens
Etude sur le règne du calife omaiyade Moawia 1er pp. 52,270,279

عثمان بن عفان قد قاتل البيزنطيين بحراً فى غزوة ذى الصوارى وانتصر عليهم رغم حداثة العرب فى الحروب البحرية ورغم قلة سفنهم .

وكان طبيعياً أن يستخدم العرب فى غزواتهم البحرية شعوب الأمم التى فتحوها والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم . وإذ كنا فى معرض الكلام على مصر فلا بد أن نذكر هنا أن العرب أفادوا من خبرة المصريين البحرية ومن العمال المصريين أيما إفادة فقد أصبحت مصر عقب الفتح مركزاً لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخيرة الملاحين والعمال المصريين . وأصبح اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية . وقد عقد المقريزى فى كتابه الخطط (ج ٢ ص ١٨٩) فصلا فى ذكر المواضع المعروفة بالصناعة ، كما أشار فى مواضع أخرى من هذا الكتاب (ج ١ ص ٣٠١) إلى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست فى سنة ٥٤ هـ ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتالهم . وقد سميت جزيرة الروضة حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى أحيانا « جزيرة مصر »[1] ولكننا نرجح أن « الصناعة » أنشئت فى مصر الإسلامية قبل هذا التاريخ ، فعبد الله بن سعد غزا غزوته البحرية فى سنة ٣٤ هـ وليس ببعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدأوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥هـ) وأن قتال الروم جعل المسلمين يعنون بصناعة السفن فى جهات مختلفة من أنحاء دولتهم بعد أن كانت الصناعة فى مصر وحدها . فيذكر البلاذرى[1] أنه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم

(١) Maspero et Wiet : Materiaux pour servir à la Geographie d' Egypte p. 68 ; et G. Wiet : Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte II. pp. 197—199.

السواحل الإسلامية وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبى سفيان بانشاء دار للصناعة فى عكا .

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعث إلى حسان بن النعمان عامله على إفريقية يأمره باتخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية ، وقد كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده لإنشاء دار صناعة فيها . أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا إلى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب[٢] .

ويظهر أن بناء السفن فى مصر كان له شأن عظيم فى فجر الإسلام ولا سيا فى العهد الأموى فقد ألقت أوراق البردى شعاعا من النور على صناعة السفن بمصر وأظهرت مهارة المصريين فى تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة الإسلامية المركزية لتلك المهارة ومدى استغلالها على يد الأمراء المسلمين .

وقد أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقاو والتى ترجع إلى عصر الوليد بن عبد الملك أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة[٣] وفى القلزم[٤] وفى الإسكندرية[٥] ، فبعض تلك الأوراق

---

(١) فتوح البلدان ص ١٧٧ .

(٢) أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧ م) ص ٣٨ — ٣٩ راجع أيضاً مقال الأستاذ فييت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص ٣٣ — ٣٤ من كتاب « فى مصر الإسلامية » الذى أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والبكباشى عبد الرحمن زكى) .

(٣) Bell : (Der Islam vol. IV) p. 92

(٤) Bell : (Der Islam vol. II) p. 277

(٥) Bell : (Der Islam vol. II) p. 280

يكشف لنا أن الوالى قرة بن شريك كثيراً ما يطلب من صاحب كورة أشقوه أن يرسل إليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى . كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان ينفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى[١] ، كما كان يفرض على الكور قدراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها[٢] تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول[٣] .

ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب[٤] أو أسطول المشرق[٥] والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية .

ولا بد أن المصريين كانوا يصنعون أيضاً سفنانيلية غير تلك السفن الحربية لأن الطريق المائى فى مصر كان يستخدم كثيراً للنقل[٦] والتجارة فى ذلك العهد . وطبيعى أنه كانت هناك سفن بحرية معدة للتجارة الخارجية

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر فى العهد العباسى أيضا ، فيذكر المقريزى (الخطط ج ٢ ص ١٩١) أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى

---

(١) Bell : (Der Islam vol. II) pp. 271, 272, 279, 280

(٢) هـذه الحقوق للحكومة على الهيئات أو الأفراد كلها من آثار الليتورجيا Leiturgia او الالتزامات الاجتماعية التى عرفت فى العالم القديم .

(٣) Bell : op cit. pp. 277, 279. & (der Islam vol. XVII) p. 8.

(٤) Bell: op. cit. vol. II. p. 279

(٥) Bell : op. cit. vol. XVII. p. 6—8

(٦) انظر مقال فييت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص ٤ — ٦

سنة ٢٣٨ هـ فى خلافة المتوكل وفى ولاية عنبسة بن اسحق على مصر » وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وأنشئت الشوانى[1] برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب . هذا وللناس إذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وإقامة دينه ، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة فى أنه يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الإسلام بلاد العدو فإنها كانت تسير من مصر والشام ومن أفريقية » وأشار المقريزى فى هذه المناسبة إلى تبادل الأسرى بين الروم والمسلمين وإلى افتداء الأسرى المسلمين فى بلاد الروم

وكتب المقريزى أن بعض مناطق وادى النيل كان بها أشجار لا تحصى من سنط ، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار . ويذكر أيضاً أنه كان لا يباع مما فى البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية . ولكن المقريزى (الخطط ج ١ ص ١١٠ — ١١١) يعود فيقول إن هذا بطل جميعه فى زمانه أى فى عصر المماليك واستولت الأيدى على تلك الأشجار فلم يبق منها شىء البتة ونسى هذا من الديوان . وإن كنا لا نعرف متى نشأ هذا النظام ومتى ألغى ، فان من المحتمل أن هذا

(١) الشونة : المركب المعد للجهاد فى الحرب والجمع شوان

الاهتمام بالأخشاب يرجع إلى عهد الولاة ولا سيما فى نهايته.

ومما يذكره المقريزى أيضاً أن القرظ وهو ثمر شجر السنط كان لا يتصرف فيه إلا الديوان وإذا وجد مع أحد شيء منه اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه ، فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع . ولكنه يضيف أن ذلك كله بطل فى عصر المماليك .

ومن هذا نرى أن صناعة السفن فى مصر ، وخاصة السفن الحربية المعدة لمحاربة الأعداء وللدفاع عن الشواطئ ، كانت من أهم الصناعات فى فجر الإسلام كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى عظمة الدولة الإسلامية البحرية ، إذ كانت الخلافة تعتمد عليهم فى إنشاء أسطولها الحربى . بل المعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط وظل كذلك إلى زمن معاوية بن أبى سفيان . وحتى بعد ذلك العهد كانت الخلافة تستخدم العمال والفلاحين المصريين فى دور الصناعة التى أنشأتها فى المشرق والمغرب كما يتبين من أوراق البردى . ثم أصبحت الخدمة فى الأسطول شرفا عظيما يتمناه كل امرئ فى مصر .

ونلاحظ أن الدولة الإسلامية التى كانت تخشى غزو البحر حتى خلافة عمر بن الخطاب استطاعت بعد ذلك أن يكون لها شأن فى البحر . فمنذ أيام عثمان بن عفان بدأ المسلمون يمتلكون بعض الجزر فى البحر المتوسط ، واستطاعت مصر فى خلافته أن تهزم الروم فى موقعة ذى الصوارى البحرية . وقد سميت بهذا الاسم لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال فيها ، ونسمى فى الكتب الأوربية واقعة فوبيكا phoenicus وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكة غربى الأسكندرية[1] . والحق أن هذه

---

(١) Justus Perthes : Atlas Antiquuis Tab 18 D 3 ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوبى آسيا الصغرى بجوار ثغر فونيكس Phoeinx راجع M. Canard : Expedition des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la Légende (Journal Asiatique, Janvier - Mars 1926 وانظر ما كتبه الدكتور زكى محمد حسن فى هذا الصدد فى عدد شهر مايو سنة ١٩٢٤ من مجلة المقتطف ص ٤٨٢ — ٤٨٣ .

المركة كانت نصراً بحرياً كبيراً للمسلمين . ومما ذكره المقريزى فى وصفها أن قسطنطين بن هرقل[١] قدم لغزو الإسكندرية سنة ٣٤ هـ على رأس أسطول من نحو ألف سفينة . وكان عبد الله بن سعد قد أنزل نصف جنوده إلى البحر ثم فوجئ بقدوم العدو وعلم من أحد الرسل أو المراقبين أن الروم أقبلوا فى ألف مركب (؟!) بقيادة قسطنطين بن هرقل « وكانت مراكب المسلمين مائتى مركب ونيفا فقام عبد الله بن سعد بين ظهرانى الناس فقال : بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل عليكم فى ألف مركب فأشيروا على . فما كلمه رجل من المسلمين فجلس قليلا لترجع إليهم أفئدتهم ثم قام ثانية فكلمهم فما كلمه أحد فجلس ، ثم قام الثالثة فقال إنه لم يبق شىء فأشيروا على ، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال : أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين فقال عبد الله اركبوا فركبوا . وإنما فى كل مركب نصف شحنته لأنه قد خرج النصف الآخر إلى البر ... فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد اقتتلوا بالنبل والنشاب فقال : غَلبت الروم . ثم أتوه فقال : ما فعلوا ؟ قالوا : قد نفذ النبل والنشاب فهم يرمون بالحجارة فقال غَلبت الروم . ثم أتوه فقال : مافعلوا ؟ قالوا : قد نفدت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف . قال : غُلبت الروم (بضم الغين) !

وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال . قال : فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الأمير بمركب من مراكب العدو فكان مركب العدو

---

(١) يجدر الإشارة هنا أن امبراطور البيزنطيين حينذاك كان قنسطانز بن هرقل لا قسطنطين كما تذكر المراجع العربية .

بحتر مركب عبد الله إليهم فقام علقمة بن يزيد المطيفي وكان مع عبد الله بن سعد فى المركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها . فسأل عبد الله امرأته بعد ذلك بسيسة ابنة حمزة بن يشرح وكانت مع عبد الله يومئذ — وكان الناس يغزون بنسائهم فى المراكب — من رأيت أشد قتلا ؟ قالت : علقمة صاحب السلسلة . وكان عبد الله قد خطب بسيسة إلى أبيها فقال له إن علقمة قد خطبها وله على فيها رأى فإن تركها أفعل ، فكلم عبد الله علقمة فتزوجها عبد الله بن سعد ثم مات عنها عبد الله فتزوجها علقمة بن يزيد »[١] .

وانتهى الأمر بأن أصبحت الدولة الإسلامية سيدة فى البحر المتوسط . وإليك نص ما ذكره ابن خلدون فى « المقدمة » (فصل ٣٤) عن عظمة المسلمين فى هذا البحر : « وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والأفرنج »

وإذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التى فتحوها والتى تعلموا منها هذا الفن والتى استخدموها فى حاجاتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين

وليس فى المراجع العربية ما يمكننا بوساطته أن نعرف شيئاً يستحق

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٦٩ . وقد أتينا بهذا النص الطويل لما فيه من أخبار طريفة عن أساليب القتال البحرى عند المسلمين . راجع أيضاً : G. Wiet L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne t. IV. pp. 29.30.

الذكر عن أشكال السفن الحربية المصرية ومعداتها فى فجر الإسلام ، ولكن أكبر الظن أنها لم تكن تختلف كثيراً عن السفن المعروفة عند الروم فى ذلك العصر ، لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند الرومان والبيزنطيين ، بل إن السفن التى صنعت بمصر للمسلمين فى البداية « أخذت أشكالها من سفن الروم التى استولى عليها عمرو بن العاص فى واقعتى الإسكندرية »[١] وطبيعى أن المراكب الحربية كانت متنوعة فى أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك الأسماء المختلفة التى اطلقت عليها بعد ذلك مثل الحراقات والشونات والطرادات والعشاريات والشلندات والمسطحات[٢] .

وإذا كنا لا نعرف تماما معدات تلك السفن وأسلحتها فإننا نظن أنها كانت تشبه ماعرف بعد ذلك عن السفن الحربية الإسلامية فى العصور الوسطى ، وكان فى بعضها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم وفى بعضها منجنيقات وآلات تقذف النفط ، وكان بعضها لحمل المؤن لرجال الأسطول والبعض الآخر لحمل الخيل[٣]

ومما يعرف من تقاليد المسلمين فى القتال حينئذ أنهم كانوا فى بعض الأحيان يصحبون نساءهم فى المعارك البحرية[٤] .

على أن تاريخ البحرية عند المسلمين لا يزال يحتاج إلى بحوث طويلة ، لأن أخبار البحر وركوبه كثيرة فى كتب الأدب والتاريخ وتقويم البلدان

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٢

(٢) انظر الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٠ حاشية ٥ وما جاء فيها من مراجع وانظر مادة سفينة فى ملحق دائرة المعارف الإسلامية

(٣) راجع جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٠ — ١٨٢ عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الاسلامى وأنواعها ومعداتها (فى أعداد السنة الحادية والعشرين من مجلة الهلال ثم طبعت مستقلة بمطبعة الهلال سنة ١٩١٣ م)

(٤) راجع المقريزى : خطط ج ١ ص ١٦٩ . وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٥

فلا بد من جمعها للدراســة ما يمكن الوصول إلى معرفته عن أساطيل الحرب والتجارة فى الأمم الإسلامية المختلفة [١] . وقد ظهر باللغة الأردية سنة ١٩٣٥ كتاب عن البحرية الإسلامية للسيد سليمان ندوى فى جمعية الدراسات الإسلامية بمدينة بومباى . كما ظهر فى لندن سنة ١٩٢٨ مؤلف بالإنجليزية عن تاريخ البحرية الإيرانية للسيد هادى حسن . وعنى المستشرقون الفرنسيون فى بلاد المغرب بدراسة الملاحة والبحرية عند المسلمين فى تلك البلاد . ولـكن هذه الدراسات كلها لم تؤت ثمارها بعد .

(١) من الأبحاث الطيبة التى ظهرت حديثاً فى هذا الميدان تاريخ الأسطول العربى للأستاذ محمد ياسين الحموى (دمشق ١٣٦٤ هـ : ١٩٤٥ م) .

٤ — النظام القضائى

أدخل العرب فى مصر نظاما قضائيا يقوم على أساس الشريعة الاسلامية ، ويخص الفاتحين من العرب أو الذين يسلمون من أهل البلاد ، أما الذميون فكان لهم قضاؤهم إلا إذا احتكموا إلى القاضى المسلم فله أن يحكم بينهم بالعدل . قال تعالى : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين[١] » . ويذكر الكندى[٢] أن القاضى خير بن نعيم الحضرمى (١٢٠ — ١٢٨هـ) كان يقضى بين المسلمين فى المسجد ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضى بين النصارى ، وأنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود ، ويتحقق من عدالة هؤلاء الشهود بين أهل دينهم .

ونجد القاضى محمد بن مسروق الكندى (١٧٧ — ١٨٤ هـ) يسمح للنصارى المتخاصمين بالدخول فى المسجد الجامع كالمسلمين ليقضى بينهم[٣] .

كان القضاء فى الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة[٤] ، ولكن لما كان الخليفة لا يمكنه مباشرة كل أمور القضاء بنفسه ولا سيما بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعا كبيرا منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، نجده يفوض القضاء إلى غيره كما كان يفوض إلى الولاة حكم الولايات المفتوحة . فنجد الخليفة عمر بن الخطاب يعين أول قاض بمصر وهو قيس بن أبى العاص

---

(١) سورة المائدة آية ٤٥ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٣٥١ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٩١ والقلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٤١٨ — ٤١٩

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٢ — ١٨٣ (فصل فى الخطط الدينية الخلافية)

السهمى (سنة ٢٣ هـ[١]) ونرى معاوية بن أبى سفيان يولى القضاء بها سليم ابن عترالتجيبى (سنة ٣٠ — ٦٠ هـ[٢])، ويولى الخليفة هشام بن عبد الملك القاضى يحيى بن ميمون الحضرى فى سنة ١٠٥ هـ[٣]. وكذلك كان الحال فى عهد الخلفاء العباسيين، فكانوا هم الذين يولون القضاة، فنرى الخليفة أبا جعفر المنصور يولى القضاء عبد الله بن لهيعة سنة ١٥٥ هـ[٤]، وكذلك فعل من بعده من الخلفاء. ولكن بعض القضاة كان يعينهم الولاة بتفويض من الخليفة لواليه، فنرى والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) يولى القضاء عبد الرحمن بن حجيرة الأكبر (٦٩ — ٨٣ هـ) وعندما يبلغ الخليفة هشام بن عبد الملك أن قاضيه يحيى بن ميمون الحضرى سيء السيرة يكتب إلى واليه على مصر الوليد بن رفاعة (١٠٩ — ١١٧ هـ) يطلب منه أن يعزله قائلا: «اصرف يحيى عما يتولاه مذموما مدحورا وتخير لقضاء جندك[٥] رجلا عفيفا ورعا تقيا سليما من العيوب لا تأخذه فى الله لومة لائم» وعندئذ عزله الوليد وولى القضاء توبة بن نمر الحضرمى سنة ١١٥ هـ[٦].

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص ٣٠٠ — ٣٠١

(٢) الكندى ص ٣٠٣

(٣) الكندى ص ٣٤٠

(٤) الكندى ص ٣٦٨ — ونلاحظ هنا أن الكندى يناقض نفسه حين يقول: «ثم ولى القضاء بها عبد الله بن لهيعة مستهل سنة خمس وخمسين ومائة من قبل أمير المؤمنين أبى جعفر وهو أول قاض ولى مصر من قبل الخليفة» فالواقع كما رأينا وكما يذكر الكندى فى مواضع أخرى من كتابه أن الخليفة هو الذى عين معظم قضاة مصر قبل ابن لهيعة.

(٥) يستنبط من «قضاء الجند» هنا أن العرب فى مصر حتى أيام الخليفة هشام ابن عبد الملك لم يكونوا إلا جنوداً أو ان الذين أسلموا من المصريين لم يكونوا سوى أقلية بدليل انه لم يهتم بالتعميم فى خطابه بل خص القضاء على الجند. ولكن قد يكون المقصود بكلمة جند هنا المنطقة الحربية Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes

(٦) الكندى ص ٣٤١ — ٣٤٣

وأحيانا كان الوالى يولى القاضى ويقره الخليفة على ذلك . فنرى والى مصر داوود بن يزيد بن حاتم المهلبى (١٧٤ — ١٧٥ هـ) يولى المفضل بن فضالة القضـاء سنة ١٧٤ هـ ، ثم يرد كتاب الخليفة الرشيد باقراره فى السنة نفسها[1] .

هـذه أمثلة أوردتها لأبين أن سلطة القضاء كان مرجعها إلى الخلافة مباشرة ، إذ كان الخليفة هو رئيس القاضى المباشر . وكان القضاة فى مصر أكثر استقرارا فى مناصبهم من الولاة ، وهذا طبعا ممـا يستدعيه حسن سير العدالة ، ففى كثير من الأحيان كان القاضى يشغل منصبه فى عهود ولاة مختلفين أو فى عهود خلفاء مختلفين وكثيرا ما مات القضاة فى مصر وهم فى مناصبهم ، فنجد القاضى سليم بن عتر التجيبى يتولى القضاء عشرين سنة (٤٠ — ٦٠ هـ[2]) بينما يتعاقب فى حكم مصر فى عهده أربعة ولاة هم عمرو ابن العاص وعتبة بن أبى سفيان وعقبة بن عامر الجهنى ومسلمة بن مخلد ، ونرى عبـد الرحمن بن حجيرة الأكبر يلى القضاء أربعة عشر عاما ويظل يشغل هذا المنصب حتى موته (٦٩ — ٨٣ هـ) فى ولاية عبد العزيز بن مروان[3] ، ونجد القاضى عياض بن عبيد الله الأزدى يلى القضاء فى مصر نيابة عن خليفتين متواليين هما سليمان بن عبـد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) وعمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ)[4] ، ويلى عبد الله بن لهيعة

---

(١) الـكندى ص ٣٨٥
(٢) الـكندى ص ٣٠٣ — ٣١١
(٣) الـكندى ص ٣١٤ — ٣٢٠
(٤) الـكندى ص ٣٣٣ — ٣٣٤

الحضرمى[١] القضاء مدة تسع سنين (١٥٥ — ١٦٤ هـ[٢]) نيابة عن الخليفة أبى جعفر المنصور ثم المهدى ، بينما يلى مصر فى هذه المدة سبعة ولاة .

ولم يكن القاضى ليرضى بأن يتدخل فى أحكامه أحد ، إذ كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التى تحاط بالهيبة والإجلال ، كما كان لصاحبها نفوذ كبيرة يتفق مع خطورة العمل الذى يؤديه ، ولا نعرف أن والياً من ولاة مصر جمع إلى سلطته ولاية القضاء . ولم نسمع عن حدوث تصادم بين حكم القاضى وسلطان الوالى فى العصر الذى نحن بصدده سوى ماحدث إزاء مسألتين تمسان الأحوال الشخصية[٣] .

ولدينا أمثلة كثيرة ترينا إلى أى حد كان القاضى مستقلا لا يقبل أى وساطة أو شفاعة ، وشديدا فى أحكامه إذا ما تبين له الحق . فيروى الكندى[٤] أن توبة بن نمر الحضرمى لما ولى القضاء بمصر (١١٥ — ١٢٠هـ) « دعا امرأته عفيرة فقال : يا أم محمد . أى صاحب كنت لك ؟ قالت : خير صاحب وأكرمه ، قال : فاسمعى . لا تعرضى لى فى شىء من القضاء ولا تذكرينى بخصم ولا تسألينى عن حكومة ، فإن فعلت شيئا من هذا فأنت طالق ، فإما أن تقيمى مكرمة وإما أن تذهبى ذميمة . فانتقلت عنه فلم تكن تأتيه إلا فى الشهر والشهرين » .

---

(١) عثر على شاهد قبر عبد الله بن لهيعة الحضرمى . وهو شاهد من الرخام كتب اسمه وسنة وفاته وهى جمادى الآخرة سنة ١٧٤ هـ ومحفوظ الآن بدار الآثار العربية بالقاهرة .

Répertoire Chronologique d'épiagraphie Arabe. t. I, pp. 42—43

(٢) الكندى ص ٣٦٨ — ٣٧٠

(٣) الكندى ص ٣٦٧ و ٤٢٧ وآدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٥٤ — ٣٥٥

(٤) الكندى ص ٣٤٢ — ٣٤٣

وروى عن خير بن نعيم فى ولايته على القضاء (١٣٣ — ١٣٥ هـ) «أن رجلا من الجند قذف رجلا من الأهالى فخاصمه إليه وثبت عليه شاهدا واحدا، وأمر بحبس الجندى إلى أن يثبت الرجل شاهدا آخر، فأرسل أبوعون (والى مصر إذ ذاك) فأخرج الجندى من الحبس، فاعتزل خير بن نعيم وجلس فى بيته وترك الحكم، فأرسل إليه أبو عون فقال: لا، حتى ترد الجندى إلى مكانه»[1].

وروى أيضا أن صاحب البريد شفع فى خصم إلى القاضى أبى الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى (١٧٠ — ١٧٤ هـ) فكتب إليه الحزمى: «ماأنت والقضاء! عليك تدبير دوابك وبراذعها وكنس زبولها» وما لبث أن استعفى عن القضاء فأعفى[2].

ويروى عن القاضى عيسى بن المنكدر (٢١٢ — ٢١٤هـ) أن رجلين اختصما اليه فقضى لأحدهما على الآخر ولم يكتف بذلك بل أمر صاحب الحق بأن يضجع خصمه ويضع قدمه على خده لبذله بالحق[3].

ومع ذلك فلم يكن كل قضاة ذلك العصر موسومين بالعدالة والنزاهة، بل وجد أحيانا القاضى المرتشى والقاضى غير النزيه. فقد عزل الخليفة هشام بن عبد الملك القاضى يحيى بن ميمون الحضرمى (١٠٥ — ١١٤ هـ) عن ولاية القضاء لما بلغه أنه لم ينصف يتيما احتكم إليه بعد بلوغه[4]، كما اتهم هذا القاضى بأن كتبته كانوا يقبلون الرشوة وهو يعلم ذلك ولا ينهاهم[5]

(١) الكندى ص ٣٥٦
(٢) الكندى ص ٣٨٤
(٣) الكندى ص ٤٣٧
(٤) الكندى ص ٣٤١
(٥) شرحه ص ٣٤٠

وقيل كذلك أن القاضي عبد الرحمن ابن عبد الله العمرى (١٨٥ — ١٩٤هـ) جمع من الرشوة أموالا كثيرة[1] .

ولم يكن هناك محكمة خاصة للفصل في القضايا ، إنما كانت مجالس القضاء تعقد في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

ويذكر الكندى أن القضاة كانوا يجعلون للقضاء بين النصارى يوما في منازلهم إلى أن جاء القاضي محمد بن مسروق فأذن لهم بالدخول في المسجد[2]

ولا بد أن ولاية القاضي كانت تمتد على الأراضي التي كانت تدخل تحت سلطة الوالي السياسية ، كما أن الاختصاص النوعى ratione materiae للقاضي كان غير محدود سواء أكان في الأمور المدنية أو الجنائية[3] .

وكان القاضي يستمد أحكامه القضائية من مصادر التشريع الإسلامي وهي القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد أو القياس .

وكان بعض القضاة يرجع أحيانا إلى الخليفة في المسائل الدقيقة ، وربما كان ذلك خوفاً من الانفراد بالرأى في مسألة ربما يخطىء فيها باجتهاده وحده ويرى من الأوفق أن يشترك الخليفة معه في حلها استئناساً برأيه وضماناً للعدالة . ومن ذلك أن القاضي عياض بن عبيد الله الأزدى استفتى الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسألة ، فأفتاه فيها[4] ، وأحيانا كان الخليفة لا يبدى رأيا بل يفوض الأمر إلى القاضي ، فقد استفتى القاضي عياض

---

(١) شرحه ص ٣٩٧

(٢) شرحه ص ٣٩٠

(٣) Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte T. 11; pp. 124-125

(٤) الكندى ص ٣٣٤ — ٣٣٥

الخليفة عمر بن عبد العزيز فى مسألة أخرى فكتب إليه : « إنه لم يبلغنى فى هذا شيء وقد جعلته لك فامض فيه برأيك[١] » وكذلك نسمع أن القاضى عبد الله بن يزيد بن خذامر استشار الخليفة عمر بن عبد العزيز فى مسائل فأفتاه فيها[٢] . على أننا لا نعثر فى مصادر هذا العصر على قضاة يستشيرون خلفاء آخرين غير عمر بن عبد العزيز فى المسائل الفقهية ، ولعل هذه حالة فردية يمكن تفسيرها بمكانة عمر بن عبد العزيز الدينية وتفقهه فى الدين .

لكننا نلمس خلال هذه المصادر أن الخلفاء كانوا يرحبون بسماع شكاوى أهل مصر إذا ما انتابهم ظلم أحد القضاة وأنهم يتدخلون فى أحكام أمثال هؤلاء القضاة ، فقد صرف الخليفة هشام بن عبد الملك يحيى بن ميمون الحضرمى عن ولاية القضاء لعدم إنصافه يتيما تظلم إليه بعد بلوغه[٣] ، كذلك نعلم أن الخليفة الأمين فسخ حكم إحدى القضايا حين تبيّن أن حكم القاضى فيها لم يكن منزهاً عن الغرض[٤] .

وقد انتشرت بمصر فى العصر العباسى المذاهب الأربعة المعروفة اليوم . على أن قضاة مصر لم يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين يصدرون أحكامهم وفقاً له . وكان أول قاض بمصر يقول بقول أبى حنيفة إسماعيل بن اليسع الكندى (١٦٤ — ١٦٧ هـ[٥]) وأول من ولى قضاء مصر ممن يقول بقول الامام مالك القاضى إسحاق بن الفرات[٦] . ومما يدل على أن القضاة لم

---

(١) الكندى ص ٣٣٤
(٢) الكندى ص ٣٣٨ — ٣٣٩
(٣) الكندى ص ٣٤١
(٤) الكندى ص ٤١٣
(٥) الكندى ص ٣٧١ والقلقشندى : وصبح الأعشى جـ ١ ص ٤١٨
(٦) الكندى ص ٣٩٣ والقلقشندى ص ٤١٩

يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين ما رواه الكندي[١] عن القاضي أبي الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمي (١٧٠ — ١٧٤ هـ) إذ يقول: «فكانت أحكامه على مذاهب ابن القاسم وسالم وابن شهاب وربيعة وكان مستضلعاً بمذاهب أهل المدينة حافظا لها».

ونعرف أن القضاة كانوا يأخذون رزقا من بيت المال. فكان رزق ابن حجيرة (٦٩ — ٨٣ هـ) من القضاء مائتي دينار في السنة[٢]، وكان رزق عبد الرحمن بن سالم الجيشاني سنة ١٣١ هـ عشرين دينارا في الشهر[٣]، وكان رزق عبد الله بن لهيعة (١٥٥ — ١٦٤ هـ) ثلاثين ديناراً في كل شهر[٤]، وكان رزق الفضل بن غانم (١٩٨ — ١٩٩ هـ) مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر[٥].

ويجدر أن نشير هنا إلى أن النظام القضائي في مصر في عهد الولاة نشأ بسيطا ثم ارتقى وتطور تدريجياً؛ فمثلا لم تكن أحكام القضاة تدون، ولكن حدث مرة أن اختصم إلى القاضي سليم بن عتر التجيبي في ميراث فقضى بين الورثة، ثم أنكروا حكمه وعادوا إليه ثانية فقضى بينهم وكتب بذلك

(١) الكندي ص ٣٨٣

(٢) الكندي ص ٣١٧

(٣) الكندي ص ٣٥٤

(٤) الكندي ص ٣٦٩

(٥) الكندي ص ٤٢١ وفي ص ٤٣٠ أن رزقه كان ١٦٣ ديناراً. فيما يتعلق بأرزاق القضاة أنظر آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٦٢ — ٣٦٤. ويذكر متز جـ ١ ص ١٣٤ نقلا عن خطط المقريزي جـ ٢ ص ٩٩ «أن الأخشيد أول من رتب الرواتب» ولكن هذا يتنافى مع ما ذكرنا سابقاً من أن القضاة كان لهم أرزاق قبل ذلك.

سجلا[١] ، فكان أول قاض فى مصر سجل سجلا بقضائه[٢] . وتبعه فى ذلك القضاة من بعده . كذلك لم يكن للقاضى شىء تصان فيه كتبه وأوراقه ، بل كان كاتب القاضى يحضر ، ومعه الكتب فى منديل فاتخذ القاضى محمد بن مسروق الكندى لنفسه قمطراً يحفظ فيه أوراقه ، وكان يختمها قبل أن يودعها القمطر ، وإذا جلس للقضاء أحضرت[٣] وظلت هذه العادة متبعة من بعده .

وقد عنى قضاة هذا العهد عناية كبيرة بأحوال الشهود الذين يتقدمون للشهادة فى المحاكم ، فنجد المفضل بن فضالة فى ولايته الثانية على القضاء (١٧٤ — ١٧٧ هـ) يتخذ فى مجلسه عشرة رجال للشهادة[٤] ، كذلك اتخذ القاضى عبد الرحمن بن عبد الله العمرى الشهود ودون أسماءهم وأسقط ما عداهم من سائر الناس ، واتبع القضاة من بعده هذه الطريقة[٥] ، وفى ولاية لهيعة بن عيسى الثانية على القضاء سنة ١٩٩ هـ نراه يعهد إلى سعيد بن تليد أحد كتبته ويسمى صاحب المسائل ليجدد السؤال عن الشهود فى كل ستة أشهر وكانوا نحو ثلاثين رجلا ، ومن حدثت له جرحة[٦] أوقفه وقد أوقف غير واحد ممن شهد عنده وبلغته جرحته[٧] . كذلك كان القاضى عيسى بن المنكدر يعهد إلى صاحب مسائله بالسؤال عن الشهود ، وفضلا عن

(١) السجل هنا معناه تدوين الأحكام لا التسجيل المعروف اليوم
(٢) الكندى ص ٣٠٩ — ٣١٠
(٣) الكندى ص ٣٩١ — ٣٩٢
(٤) الكندى ص ٣٨٦
(٥) الكندى ص ٣٩٤
(٦) الجرحة ما تجرح به شهادة الخصم أو حجته أى تسقط .
(٧) الكندى ص ٤٢١ — ٤٢٢

ذلك فقد كان هو نفسه يتنكر فى الليل ويمشى فى السكك ليسأل عن الشهود[١] .

ومن التقاليد التى نشأت فى هذه الفترة أيضاً خروج القاضى فى نفر من أهل الصلاح لرؤية هلال رمضان ، وقد نشأ ذلك التقليد فى ولاية عبد الله بن لهيعة الحضرى للقضاء ، حينما اختلف الناس فى رؤية هلال رمضان فى سنة ما من ولايته ، فبعضهم زعم أنه رآه والبعض لم يره وشك الناس فى ذلك فلما كان العام التالى خرج عبد الله بن لهيعة فى نفر من أهل المسجد ممن عرفوا بالصلاح لرؤية هلال رمضان وإثبات الرؤية ، وكانوا يخرجون لرؤيته فى الجيزة[٢] .

ونلاحظ أن إنشاء ديوان الأحباس أو الأوقاف يرجع إلى هذا العهد منذ سنة ١١٨ هـ وكان القضاة هم الذين يشرفون عليه ، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر الحضرمى (١١٥ — ١٢٠ هـ) وكانت الأحباس قبل ذلك فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم فقال توبة : « ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدى عليها حفظا من التواء والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صارت الأحباس ديوانا عظيما[٣] » .

---

(١) الكندى ص ٤٣٧

(٢) الكندى ص ٣٧٠

(٣) الكندى ص ٣٤٦ . أنظر مادة وقف فى دائرة المعارف الإسلامية

الباب الثانى

موقف مصر من الحركات السياسية والدينية

التى ظهرت فى الخلافة

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرة ظهر الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ومن الذى يتولاها ، وهل هى إرث فى بيت النبي وفى فرع معين من هذا البيت كبنى هاشم أو بنى أمية ، أم يتقلد أمرها أى فرد كفء لها بغض النظر عن القبيلة التى ينتسب إليها . فالدين الإسلامى لم ينص على شكل حكومة معينة للأمة العربية أولغيرها من الأمم ، ولم يعهد الرسول إلى شخص معين من بعده ليكون زعيما للأمة العربية يتولى الإشراف على أمورها الدنيوية والدينية . وأقصد بالدينية هنا الإشراف على تنفيذ أحكام الدين ، لا أن يخلف الرسول فى صفته الدينية، إذ أن النبوة والرسالة قد انتهت بوفاة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاةوالسلام

وكان امتناع العباس عم الرسول وعلى بن أبى طالب وطلحة والزبير وغيرهم ممن لم يرضوا بمبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة إيذانا بما حدث بعد ذلك من انقسام المسلمين إلى سنيين وشيعيين . وكثر النزاع حول الخلافة ومن يتولاها ، وكان هذا النزاع تارة بالكلام والجدل وتارة بالسيف والحرب ، وقد اتبع كل فرقة أو حزب من الأحزاب التى نشأت أفراد عديدون ، إما إيمانا بعقائدها ومبادئها ، وإما رغبة فى منفعة أو مصلحة مادية تعود عليهم ؛ كبث بعض تعاليم الديانات والمذاهب القديمة وصوغها فى قالب إسلامى رغبة

فى إساءة سمعة الدين الإسلامى أو إحياء وطن قديم على حساب الدولة الإسلامية .

وقبل أن نعرض للكلام عن الحركات التى قامت فى الخلافة والتى اشتركت فيها مصر ، يجدر بنا أن نشير إلى أن الذين اشتركوا فى تلك الحركات لم يكونوا من المصريين الوطنيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى ، وإنما كانو من الجند العربى الذين استقروا بمصر او من الأجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية . أما المصريون أنفسهم سواء أ كانوا من الأقباط أو من الذين أسلموا بعد الفتح فلم يشتركوا فى تلك المنازعات — إذا استثنينا معاونتهم إلى حد ما للعباسيين ضد الأمويين .

(١) — الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين

(٢٠ — ٤٠ هـ = ٦٤٠ — ٦٦٠ م)

١ — موقف مصر من الثورة التى قامت ضد عثمان بن عفان

ظهر النزاع حول الخلافة بأجلى مظاهره فى الثورة التى قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان ، إذ احتكم فى ذلك النزاع إلى السيف بدلا من أن يحكم العقل واللسان ، وكانت هذه أول مرة يحتكم فيها إلى السيف فى النزاع الخليفى الذى يدور حول مسائل الحكم والملك .

عرف عثمان بمكانته الدينية العالية ، ولما انتخب خليفة بعد مقتل عمر ابن الخطاب فى آخر سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) سار على سياسة سلفه فى الفتوح وتم فى عهده فتوحات وغزوات كثيرة [١] . على أنه لم تمض ست سنوات

(١) الطبرى ج ٥ ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٧٧ ، ٨١ .

من حكمه حتى بدأت تسرى ضده حركة تذمر فى الولايات الإسلامية المختلفة وقد ترأس هذه الحركة رجل يهودى من أهل صنعاء أسلم زمن عثمان بن عفان واسمه عبد الله بن سبأ وكان يعرف بابن السوداء لسواد أمه . ويظهر أن عبد الله بن سبأ هـذا كان من الذين أسلموا ليضلوا الناس عن الإسلام وليكيدوا لهذا الدين ، فتنقل فى البلاد الإسلامية يحاول ضلالتهم كما يذكر المؤرخون ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام ، ولكن يظهر أن محاولاته لم تكن ذات بال فى تلك البلدان ، فلم ينجح فى الحجاز أو الشام كما أنه طرد من البصرة والكوفة ، فأتى إلى مصر ووجد أن الحالة فيها كانت مهيأة للثورة ضد عثمان فأخذ ينشر دعايته وتعاليمه ، فكان مما نشره مذهب الرجعة . وأخذ يقول إنه يعجب ممن يقول إن عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد عليه الصلاة والسلام وقد قال تعالى : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)[1] ، ولذا فإن محمدا أحق بالرجوع من عيسى . كذلك نادى عبد الله بن سبأ بمذهب الوصاية ، فذكر أن لكل نبى وصى وعلى بن أبى طالب وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فإن عليا خاتم الأوصياء ، أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى الرسول ، وبذلك حرض ابن سبأ المصريين على الوثوب على عثمان لأخذه الخلافة بغير حق[2] . ولسنا هنا بحاجة إلى القول بأن تعاليم ابن سبأ بعيدة عن الإسلام ، فالرجعة والوصاية من تعاليم النحل والديانات المختلفة التى وجدت قبل الإسلام فليس للرسول وصى كما أنه ليس فى الإسلام رجعة ، فذهب

---

(١) سورة القصص آية ٨٥ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٨ ، خطط المقريزى . ج ٢ ص ٣٣٤ .

الرجعة هذا لا يقر بالموت بل يدهب إلى أن الإنسان يتغيب ثم يعود ثانية ، أما تعاليم الإسلام فتقول بأن كل الناس تموت ثم تبعث يوم القيامة

وقد أنكر الثائرون على عثمان أموراً ، منها الدور الفخمة التى شيدها لأهله وبناته بالمدينة ، وتوليته أهله وبنى عمه من بنى أمية على الأعمال والولايات دون غيرهم[1] ، كذلك قالوا إن عثمان وسع على نفسه وعلى أهله بخلاف أبى بكر وعمر اللذين اعتادا التقلل والكف عن أموال المسلمين ، فنفر المسلمون من ذلك التبذير وعهدهم قريب بضبط أبى بكر وعمر[2]، وزعموا أيضا أن الوليد بن عقبة صلى بالناس الصبح وهو أمير عليها أربع ركعات وهو سكران ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم . فلما بلغ عثمان ذلك لم يسرع إلى إقامة الحد عليه بل أخر ذلك[3] .

قد تكون هذه الأسباب التى تذرع بها الثائرون مبالغ فيها أو غير صحيحة . وإن صحّت فهى فى الواقع أسباب لا تستدعى الثورة ضد الخليفة ، وقد قيل عن عثمان إنه قد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر بن الخطاب ماعيبت عليه[5] ، وربما أطمع الناس فيه دماثة خلقه ولينه .

ولم يغفل فيلسوف المؤرخين ابن خلدون[1] ما انطوت عليه هذه الثورة ، فقد أوضح أن المسألة لم تكن مسألة عثمان إنما كانت عود إلى الجاهلية ونزاع بين القبائل على السيادة ، وأنفة بعض القبائل العربية مثل بنى بكر بن وائل وعبد القيس وربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم ، من سيادة

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٨٦ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ .

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣١ .

(٥) العبر وديوان المبتدا والخبر ج ٢ ص ١٣٨ — ١٣٩ .

المجاهدين والأنصار من قريش وسهواهم ، فأظهروا الطعن فى ولاة عثمان وفى الخليفة نفسه ، فلما وصلت تلك الأخبار إلى الصحابة بالمدينة ارتابوا لها وحملوا عثمان على النظر فى الأمر .

ومما يدل على أن المسألة كانت مسألة أغراض مختلفة ما رواه الطبرى (١) من أنه عندما حرض عبد الله بن سبأ أهل مصر على الطعن فى أمراء عثمان «وإظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» أخذ أهل مصر يكتبون الكتب إلى الأمصار المختلفة فى عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم فى مثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يحدث ، حتى « أوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير مايظهرون ويسرون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء . إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا إنا لفى عافية مما فيه الناس » .

ويظهر أن الخليفة عثمان كان يجهل تلك الحركة فى بادئ الأمر ، إذ أنها كانت حركة سرية . ويظهر أيضا أنها وصلت إلى مسامع الصحابة بالمدينة أولا فأعلموا عثمان بها وأشاروا عليه بأن يرسل رجالا ممن يثق بهم إلى الأمصار المختلفة ليتبين ذلك الأمر ففعل ، وأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر ، وأرسل غيرهم إلى سائر الجهات ، فلما عاد الرسل إلى عثمان أخبروه أن الحالة على ما يرام وأن أهل البلاد لا ينكرون شيئاً وأن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم ، ولكن عمار بن ياسر الذى أرسله الخليفة إلى مصر تخلف ولم يعد إلى المدينة ، ولشد ما كانت دهشتهم عند ما أرسل واليها عبد الله بن سعد كتابا إلى المدينة يقول إن قوما استمالوه ، منهم عبد الله بن سبأ

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٨ — ٩٩ .

وخالد بن ملجم وكنانة بن بشر[١]

ويجدر بنا الآن أن نعرف موقف الثائرين فى مصر وكيف كانت هذه البلاد سببا فى تعجيل الحوادث وفى إشعال نار تلك الثورة التى انتهت بقتل الخليفة عثمان بن عفان ، والتى كانت سببا فى انقسام المسلمين على أنفسهم انقساما طال أمده وتعددت مناحيه .

ذكرنا أن عبد الله بن سبأ طرد من البصرة والكوفة ولم يلق أى نجاح فى الشام ، ثم قدم إلى مصر فوجدها متهيئة لقبول دعوته وللطعن فى عثمان ، وهذا الأمر يستلفت النظر ويدعو الباحث إلى أن يتساءل عن السبب فى ذلك ؛ فلم نجحت دعوة ابن سبأ فى مصر نجاحا كبيراً ؟ ولم لم يطرد منها كما حدث له فى البصرة أو الكوفة مثلا ؟ نحن لا نجد فى المصادر القديمة ذكر السبب فى ذلك ، ولكن إذا أعوزتنا الأدلة النقلية فلا بأس من أن نلجأ إلى الأدلة العقلية . ويظهر أن الدعوة ضد عثمان نجحت نجاحا كبيراً فى مصر لأن أفراد القبائل العربية التى لا تنتمى لقريش ومن بينهم بعض الصحابة والمجاهدين والذين استقروا بمصر رأوا فيها فرصة للقيام ضد الخلافة ، وهم فى ذلك لم يقصدوا الخليفة عثمان نفسه وإنما أرادوا زعزعة سيادة قريش ، فقد كرهوا تلك السيادة التى زادت منذ ظهور الإسلام . وهذا سبب ذكره المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون كما رأينا . على أنه وجد أيضاً فى مصر بعض القرشيين الذين ثاروا ضد عثمان ، وعلى رأسهم محمد بن أبى بكر الصديق ومحمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبدمناف ، ولا يبعد أن يكون هؤلاء ممن طمعوا فى الخلافة نفسها ، فهم يرومون سيادة

---

(١) الطبرى ج ٥ ص٩٩ ، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٣٩ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

قريش بالطبع ، ولكن ربما حدثتهم أنفسهم وسط حركة التذمر التي سرت بين الناس أن يلقوا دلوهم في الدلاء علهم يصلون إلى منصب الخلافة أو إلى أي منصب عظيم في الدولة الإسلامية . ومع أن عبد الله بن سبأ كان يكيد للإسلام والدولة الإسلامية ومع أن تعاليمه الشيعية أبعد ما تكون عن الدين الإسلامي إلا أنه لا بد كان رجلا ماهرا ذا مواهب متعددة جعلته يجذب الكثيرين إلى تعاليمه الشيعية ، ولم يكن تأثيره عظيما على العامة فحسب ، بل نرى أيضاً أنه استطاع بمهارته أن يجذب إليه رجالا من كبار الصحابة ومن أئمة الحديث وأن يؤلبهم على عثمان ، مثل الصحابي الكبير عمار بن ياسر الذي كان عثمان قد أوفده للاستفسار عن حقيقة ما قيل بصدد التذمر والثورة ولكنه تنكر للخليفة ولم يعد إليه .

واستطاع عبد الله بن سبأ أن يجذب إليه أيضا أحد كبار أئمة الحديث ، كان مقيما بالشام عند ما كان ابن سبأ يتنقل في الأمصار المختلفة ليثير الناس ضد عثمان ، ذلك هو أبو ذر الغفاري[١] . وكان هناك فريق من الصحابة يفضل علياً على غيره ، وطبيعي أن يكون في مصر فريق ممن يؤمنون بأن علياً أحق بالخلافة ممن عداه . .

وهكذا نرى أن الثورة ضد عثمان كان الباعث عليها اتجاهات وميول مختلفة ، فمن ثائر يريد بخروجه الكيد للدين الإسلامي والدولة الإسلامية بوجه عام ، ومن متذمر من خلافة قريش وسيادتها ، ومن طامع في الخلافة ومن شيعي خرج مؤمنا بحق علي بن أبي طالب في الخلافة ، وقد تتجمع هذه العوامل المختلفة في بلد آخر غير مصر . ولكن يظهر أن الذي ساعد على نجاح تلك الحركة فيها والذي سهل على ابن سبأ القيام بمهمته هو انشغال

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٦٦ .

والى مصر إذ داك ، عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، بالحروب الخارجية التى قام بها ، إذ غزا النوبة وعقد مع ملكها هدنة سنة ٣١ هـ وغزا إفريقية سنة ٢٧ هـ كما حارب الروم فى وقعة ذى الصوارى سنة ٣٤ هـ[١] ، وفى هذه الأثناء بالذات كان عبد الله بن سبأ يقوم بدعوته وفى سنة ٣٤ هـ كان الثائرون على عثمان فى مصر والأمصار المختلفة يتكاتبون للاجتماع لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم نقموا عليه بسببه[٢] ، أى أن الثورة التى كان يدعو إليها ابن سبأ والتى كان مركزها فى مصر كانت قد اختمرت وخرجت إلى دور العمل والتنفيذ فى السنة التى كان يغزو فيها عبد الله بن سعد الروم ، تلك الغزوة التى أسفرت عن انتصار العرب الباهر ضد البيزنطيين . ففى الوقت الذى كان عبد الله بن سعد مشغولا بغزوات وفتوحات عظيمة كان ابن سبأ يعمل فى الخفاء ضد عثمان . ويظهر أن عبد الله بن سعد لم يعلم بأمر هذه الثورة إلا سنة ٣٥ هـ بعد رجوعه من غزوة ذى الصوارى كما يخبرنا بذلك أبو المحاسن[٣] ، فليس هناك ما يشير إلى أنه علم بهذه الحركة قبل ذلك الوقت وإلا لما تغافل أو تعامى عنها وهو أخو عثمان فى الرضاعة وموضع ثقته .

وتذكر بعض المراجع المتأخرة أن الذى ساعد على نجاح تلك الحركة فى مصر هو سخط أهلها على واليها عبد الله بن سعد لأنهم كرهوا أن يليهم بعد عمرو بن العاص ولأنه اشتغل عنهم بقتال أهل المغرب وغيرها[٤] ولكن عبارة « أهل مصر » هنا ليس معناها المصريين الوطنيين فهؤلاء

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٢ — ١٣

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٩٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٠ .

(٤) النجوم الزاهرة ص ٨٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢ .

لم يقوموا بتلك الحركة ولكن يقصد بها العرب الذين استقروا بمصر وكانوا أجناداً كما نعلم، فلعل الذين اشتركوا منهم فى الفتح كرهوا أن يولى عليهم غير قائدهم الأول عمرو بن العاص . ولعل عمراً نفسه — وهو المعروف بدهائه العظيم — كانت له يد فى إثارة الاضطراب بمصر ليفسد الأمر على خلفه عبد الله بن سعد . ولعل كثيراً من الجند العرب فى مصر أصبحوا لا يرحبون بقتال أهل المغرب إما رغبة فى الراحة أو استخفافاً بنتائج هذا القتال وما يصيبونه فيه من غنائم .

ولنرى الآن ما تم من أمر هذه الثورة وإلى أى حد نجح الثوار فى ثورتهم .

وفد عبد الله بن سعد بن أبى سرح إلى عثمان بن عفان بالمدينة فى رجب سنة ٣٥ هـ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى فى قول ، أو السائب ابن هشام بن كنانة العامرى فى قول آخر [١]، ولكن خليفته عليها طرد من الفسطاط فى شوال من السنة المذكورة على يد محمد بن أبى حذيفة الذى أخذ يدعو الناس إلى خلع عثمان ويحرض عليه بكل الوسائل الممكنة لدرجة أنه كان كما يذكر المقريزى [٢] يكتب الكتب على لسان أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام ويدعى أنهن كتبنها ويقرأها فى المسجد فإذا فيها الاستغاثة مما عمل فى الإسلام وما صنع فى الإسلام ، وبالطبع صدق أناس وكذب آخرون وبالطبع كان لعثمان شيعة فى مصر فناوأوا ابن أبى حذيفة وأرسلوا إلى عثمان من يخبره بصنيعه ، ومن بين شيعة عثمان فى مصر معاوية بن حديج وخارجة

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٣ — ١٤ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) الكندى ص ١٤، المقريزى ج ٢ ص ٣٣٤ .

ابن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبى أرطاة وغيرهم كثير[١]

وأراد عثمان بن عفان معالجة الموقف باللين والسياسة لا بالعنف والشدة ، خوفا من إراقة دماء المسلمين فأرسل سعد بن أبى وقاص عله يستطيع أن يصلح بين المصريين ويصل إلى حل فى المسألة . ولكن سرعان ما خطب ابن أبى حذيفة فى أتباعه يحضهم على التماسك وألا ينخدعوا لرسول عثمان بدعوى أنه جاء ليشتت أمرهم ويفل عزيمتهم ، وكان لكلامه أكبر الأثر فى أتباعه إذ سار إلى سعد بن أبى وقاص نحو مائة شخص فأساءوا إليه واضطروه إلى العودة من حيث أتى . وما لبث عبد الله بن سعد أن أتى مصر إلا أنه لم يكد يبلغ جسر القلزم حتى منعه أتباع ابن أبى حذيفة من الدخول فيها ، فطلب منهم أن يسمحوا له بالدخول ليخبر جنده بما أتى به ، ولكنهم أصروا على منعه فرحل إلى عسقلان وظل بها إلى أن توفى[٢] .

ولم تقف الثورة فى مصر عند هذا الحد من عصيان الخليفة ، بل فكر ابن أبى حذيفة فى إرسال جيش من مصر إلى عثمان بن عفان ، فأرسل ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس أما قائدهم الأعلى فكان عبد الرحمن ابن عديس البلوى . وكانت النتيجة أن قتل عثمان رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ٣٥ هـ وعاد هذا الجيش ثانية إلى مصر[٣] . وهناك رواية أخرى تذكر أن وفد مصر ، وكان معهم الثائرون من البصرة والكوفة ، خرجوا متظاهرين بأن غرضهم العمرة[٤] ولكنهم كانوا يريدون الثورة على عثمان

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥ ، خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٥

(٢) الكندى ص ١٦ — ١٧ ، خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) الكندى ص ١٧ ، خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٤) العمرة : زيارة البيت الحرام فى غير أوقات الحج ويسمى الحج الأصغر .

ابن عفان ، وكان من بينهم محمد بن أبى بكر الصديق فشكوا إلى عثمان بن عفان واليه على مصر عبد الله بن سعد وطلبوا منه عزله فأجابهم عثمان إلى طلبهم وكتب بتولية محمد بن أبى بكر على مصر وعزل عبد الله بن سعد فقفل ذلك الوفد راجعاً ، وبينما هم فى الطريق رأوا راكباً ارتابوا فى أمره ففتشوه وإذا معه كتاب من عثمان إلى عبد الله بن سعد يأمر فيه بقتل محمد بن أبى بكر ونفر ممن معه ، فأخذوا الكتاب ورجعوا ثانية إلى المدينة. وقرأوه على من فيها من الصحابة وقد أنكر عثمان ذلك الكتاب وحلف لهم أنه لا يعلم من أمره شيئاً ، فظنوا أن الكتاب كتبه مروان بن الحكم كاتب عثمان وابن عمه وطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان فلم يرض عثمان بذلك إذ أن مروان حلف هو الآخر أنه لم يكتبه . فطلبوا إليه أن يعتزل الخلافة فأبى وتمسك بها ، ومالبث الثوار أن تطاولوا عليه وقتلوه أفظع قتلة وربما شجعهم على قتله ماعلموا من استنجاده بمعاوية بن أبى سفيان وعبد الله ابن عامر والى البصرة وأمراء الأجناد فأرادوا أن يتموا ثورتهم قبل وصول المدد إلى عثمان خوفا من أن يقضى على حركتهم هذه بالفشل . وكان يدافع عن عثمان فى داره مائة رجل من الصحابة وهو عدد قليل بالنسبة للثائرين ، ويقال إن محمداً بن أبى بكر هو أول من حرض الثوار على قتله وأول من دخل عليه ليقتله[1] .

قد تكون الرواية السابقة صحيحة وقد يكون خصوم عثمان دسوها دساً بيتهموه بالخداع أو الغفلة ، خصوصاً إذا علمنا أن عبد الله بن سعد كان قد خرج من مصر قبل خروج الثائرين إلى عثمان

ولم يضع قتل عثمان حداً لتلك الفتنة ، بل كان بداية الفتن والمنازعات التى حفل بها التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى .

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٤١ — ٤٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ١٢٨ — ١٣٦

ب — أثر النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في مصر

كان مقتل عثمان بن عفان كما يقول ابن خلدون[1] فتنة ابتلى الله بها الأمة ، فقد بويع على بن أبى طالب من بعده بالخلافة فى سنة ٣٥ هـ ولكن النزاع تجدد بين المسلمين حول هذه المسألة . إذ رأى على ومن تبعه أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها وذلك لاجتماع من اجتمع عليها بالمدينة ، دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن الصحابة ، وأرجأ المطالبة بدم عثمان ريثما يجتمع الناس وتتفق الكلمة فيتمكن حينئذ من ذلك . ورأى آخرون أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة ولا تكون البيعة صحيحة إلا باتفاق أهل الحل والعقد كما أنها لا تكون صحيحة بغيرهم أو بحضور أقلية منهم ، كذلك رأوا أن المسلمين كانوا حينئذ فى فوضى واضطراب فيجب أولاً المطالبة بدم عثمان ثم الاتفاق على خليفة المسلمين . وكان على رأس هذا الفريق المعارض لخلافة على ، معاوية بن أبى سفيان والى بلاد الشام من قبل عثمان بن عفان وابن عمه .

وقد بادر على بعد توليه الخلافة بعزل ولاة عثمان وإرسال عماله إلى الولايات ، كذلك أرسل بيعته إلى جميع الأمصار . والظاهر أن البيعة جاءته من كل مكان إلا بلاد الشام التى كان يليها معاوية بن أبى سفيان ، فكان لابد من نشوب النزاع بين الطرفين وبينما هما يستعدان لذلك وقع على مسرح الخلاف السياسى حادث جديد . هو خروج طلحة والزبير وعائشة زوج

---

(١) المقدمة ص ١٧٩ (فصل فى ولاية العهد) .

الرسول على خلافة علي واشتبا كهم معه في موقعة الجمل التي انتهت بانتصار علي وقتل طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة في سنة ٣٦ هـ. وفي تلك الأثناء استطاع معاوية أن يستميل إليه رجلا من أكبر دهاة العرب: هو عمرو ابن العاص. ويذكر اليعقوبي[١] أن عمرو بن العاص اشترط على معاوية بن أبي سفيان أن تكون ولاية مصر طعمة له نظير مساعدته له ضد علي فقبل معاوية ذلك.

سار علي بن أبي طالب في أواخر سنة ٣٦ هـ من الكوفة — التي اتخذها مقراً لخلافته بعد موقعة الجمل — نحو الشام لمحاربة معاوية وتقابل الفريقان في سهل صفين، حيث نشب القتال بين الفريقين. وانتهت تلك الموقعة في صفر من سنة ٣٧ هـ بحيلة ارتآها عمرو بن العاص. إذ أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح والنداء بتحكيم القرآن بدلا من تحكيم السيف فكان ذلك سببا في فتور أكثر جند علي بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار. وقد اختير عمرو بن العاص حكما من قبل معاوية كما اختير أبو موسى الأشعري من قبل علي. وقيل إن هذا التحكيم انتهى باتفاق الحكمين على خلع علي ومعاوية، فأعلن أبو موسى الأشعري خلعهما، ثم قام عمرو فأعلن خلع علي وتثبيت معاوية لأنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بأن يخلفه[٢].

وقد خرج معاوية من التحكيم أقوى مما كان فقد رضي أهل الشام بخلافته، ولا بد أن فريقاً غيرهم من الناس اعتقد بصحة التحكيم وبصحة خلافة معاوية، كذلك خرج فريق من أتباع علي عليه بسبب رضائه

---

(١) تاريخ جـ ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧.

(٢) انظر الطبري جـ ٦ ص ٣٧ — ٤٠، المسعودي: مروج الذهب. جـ ٢ ص ٢٨ — ٣٣ (ط. القاهرة).

بالتحكيم وهذا الفريق هو الذى يعرف بالخوارج ، كما أن فريقاً آخر من جند على ملوا الحرب والنزاع . وقد عزم على على محاربة أهل الشام لاعتقاده أن الحكمين حكما الهوى ولم يحكما القرآن ، وحث الناس على قتالهم فى سنة ٣٨ فتثاقلوا ولم يطيعوه إذ كانوا قد ملوا الحرب وسئموا القتال .

وقد اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو فلم ينجح من هؤلاء الخوارج سوى عبد الرحمن بن ملجم الذى قتل علياً بالكوفة فى شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ . وبقتله انتهى عهد الخلفاء الراشدين وبايع المسلمون من بعده ابنه الحسن بن على ، ولكن خلافته لم تزد على بضعة أشهر ، إذ كان لا قبل له بمحاربة معاوية وجنده فتنازل له عن حقه فى الخلافة .

* * *

تجلى النزاع بين على ومعاوية بأجلى مظاهره فى مصر التى كانت مركزاً للثائرين على عثمان بن عفان . فبعد مقتله فى ذى الحجة سنة ٣٥ هـ عاد الركب الذى كان قد خرج عليه إلى مصر ثانية ، ويلوح أن نفراً منهم تخلفوا فى المدينة ومنهم محمد بن أبى بكر نفسه ، ويظهر أن أولئك الثائرين كانوا يتوقعون أن ينتقم منهم شيعة عثمان أو أنهم كانوا كعادتهم دائما يمزجون السياسة بالدين ، وذلك لأنهم لما أتوا الفسطاط ودخلوا المسجد صاحوا : « إنا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتله[١] » أما شيعة عثمان فى مصر فقد بايعوا معاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان فسار بهم إلى الصعيد ، ولكن ابن أبى حذيفة أرسل إليهم من يحاربهم والتقى الفريقان فى إحدى قرى البهنسا فكان النصر حليف شيعة عثمان وهزم جيش ابن أبى حذيفة . ثم

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٨ خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٥ .

سار معاوية بن حديج إلى برقة ولا نعرف لماذا سار إليها — ثم رجع ثانية إلى الاسكندرية فأرسل إليه ابن أبى حذيفة جيشاً آخر على رأسه قيس بن حرمل اللخمى فاقتتل الجيشان بخربتا[١] فى أول شهر رمضان سنة ٣٦ هـ فقتل قيس بن حرمل وهزم جيشه[٢] . وعلى هذا نرى أن شيعة عثمان فى مصر انتصرت للمرة الثانية على الحزب الذى ثار على عثمان ولما يمض عام واحد على مقتله .

نرى إذن أن النزاع الذى كان يقوم فى حاضرة الخلافة أو حول منصب الخلافة كان يؤدى إلى فوضى ونزاع فى مصر حتى تكاد تنعدم سلطة الخليفة فى تلك الظروف ، فنرى ابن أبى حذيفة يغتصب ولاية مصر لنفسه دون أن يمينه خليفة ، كما نرى شيعة عثمان وشيعة على يقتتلان فى مصر .

ويظهر أن انتصار شيعة عثمان على ابن أبى حذيفة شجع معاوية بن أبى سفيان على القدوم إلى مصر لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها الجغرافى الممتاز فوصل فى نفر من أصحابه إلى سلمنت من كورة عين شمس فى شوال سنة ٣٦ هـ فخرج إليه ابن أبى حذيفة وأهل مصر[٣] ليمنعوه من دخولها ، فبعث معاوية — بما عرف عنه من الدهاء وحسن السياسة إلى ابن أبى حذيفة يقول إنهم لم يجيئوا لقتال أحد وإنما جاءوا يطلبون القصاص لدم عثمان ويريدون القبض على قاتليه وهما عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر اللذين كانا على رأس الوفد الذى ذهب إلى المدينة لقتل عثمان ، فلم يجب ابن أبى حذيفة

---

(١) خِرْبِتَا . بفتح الخاء أو كسرها كانت من كور الحوف الغربى بالقرب من الإسكندرية وهى الآن خراب لا يعرف (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٦)

(٢) الكندى ص ١٨ — ١٩ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٥ — ٣٣٦

(٣) مصر هنا تعنى الفسطاط لا القطر المصرى لأن معاوية بوصوله إلى عين شمس كان قد دخل القطر المصرى فعلا وليس الفسطاط عاصمة مصر .

طلب معاوية وقال له لو طلبت منا جديا رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك !!
وهنا لجأ معاوية إلى الحيلة مرة أخرى فعرض على ابن أبي حذيفة وأتباعه بأن يعطوه رهنا لكى يتفادوا حربه ضدهم . فرضى ابن أبي حذيفة بذلك وخرج فى الرهن هو وابن عديس وكنانة بن بشر وغيرهم من قتلة عثمان فلما بلغوا لد[1] سجنهم معاوية بهـا . وسار هو إلى دمشق فهربوا من السجن فتبعهم صاحب فلسطين وقتلهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ هـ[2]

واستطاع معاوية بمهارته وسياسته أن يقضى على معظم الحزب العلوى فى مصر ، ولا سيما الذين كانوا قد ثاروا على عثمان ، دون أن يكلفه ذلك حربا أو سفك دماء . ولم يلجأ إلى حربهم أو إلى دخول مصر عنوة فى وقت كان يستعد فيه لحرب يتوقف عليها مصير الخلافة بينه وبين على بن أبى طالب

ولما بلغ عليا نبأ قتل ابن أبى حذيفة أرسل إلى مصر قيس بن سعيد ابن عبادة الانصارى واليا عليهـا من قبله فدخلها فى بداية ربيع الأول سنة ٣٧ هـ . ويظهر أن قيسا كان من أصحاب القدرة السياسية الذين يعرفون كيف يستميلون الرجال حتى المعادين لآرائهم ومبادئهم ، فتراه يحسن إلى شيعة عثمان بخربتا ويكرمهم ويبعث إليهم بأعطياتهم . ولعل معاوية خشى أن تجعل سياسته هذه من مصر ولاية علوية لا تعرف غير على والطاعة له فيقضى بذلك على حزب بنى أمية ، فعمل هو وعمرو بن العاص على إخراجه من مصر بأية وسيلة ، ولكنه امتنع منهما بالدهاء والمكايدة . وأخيرا لجأ معاوية إلى مكيدة استطاع بها أن يجعل عليا يشك فى إخلاص قيس بن سعد فكان

---

(١) هى الآن اللد Lydda فى فلسطين على الطريق الذى يوصل بين مصر وسوريا (لد . بالضم والتشديد .. قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين — ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٠٤) .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩ ، وخطط المقريزى : ج ٢ ص ٣٣٦

معاوية يحدث رجلا من ذوى الرأى من قريش فى هذا ويقول « ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلى من مكايدة كدت بهـا قيس بن سعد حين امتنع منى قيس» . إذ تظاهر معاوية لأهل الشام بأن قيسا من شيعته وأن كتبه ونصائحه تأتيه منه وكتب بذلك إلى شيعته فى العراق ، فسمع بذلك جواسيس على فى العراق ، وانتهى ذلك الخبر إلى على وأراد أن يتحقق من صحته فأرسل إلى قيس يأمره بمحاربة شيعة عثمان بخربتا فرفض قيس مقاتلتهم معللا ذلك بأنهم وجوه أهـل مصر وأشرافهم فمنهم مسلمة بن مخلد وبسر بن أبى أرطأة ومعاوية بن حديج وقال إن معاملتهم بالحسنى خير من قتالهم ؛ فقتالهم لا يجدى نفعا وأنه فى الواقع يكيد لهم بمعاملتهم بالحسنى ، ثم كتب إلى على : « إن كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غـيرى » فعزله على وكانت ولايته على مصر حوالى أربعة أشهر . وولى على مصر الأشـتر مالك بن الحارث النخعى وهو من أعوان على وكبار قواده حضر معه موقعتى الجمـل وصفين . وسار الأشتر إلى مصر حتى نزل القلزم فى بداية رجب سنة ٣٧هـ ، وهناك شرب عسلا فمات مسموما . ولـما سمـع بذلك معاوية وعمرو قال عمرو : «إن لله جنودا من عسل[1]» ومن المحتمل أنه كان لمعاوية وعمر يد فى مقتله .

وكتب أبو المحاسن[2] أن معاوية استاء من تولية الأشتر مصر لـكفايته وشـدته فـكتب إلى عامل القلزم يمنيه بوعود مختلفة على أن يهلك الأشتر بكل طريقة يقدر عليها ، فكان أن قـدم عامل القلزم للأشتر طعاما وعسلا مسموما فمات لساعته .

---

(١) الـكندى : الولاة والقضاة ص٢٠ — ٢٤ ، خطط المقريزى ج ٢ص٣٣٦

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ١٠٣ — ١٠٤

لما علم على بموت الأشتر أرسل إلى مصر محمد بن أبى بكر فكان حكمه بداية النهاية لحكم على بن أبى طالب فى مصر ، ولا غرو فقد كان رجلا يجهل أمور السياسة والحكم ، وكانت تغلب على طبيعته روح الفوضى والثورة ، وفيه حب للرياسة والزهو ، وقد تجلت طبيعته هذه فى ثورته ضد عثمان وفى سياسته فى مصر عندما وليها .

قدم محمد بن أبى بكر إلى مصر فى رمضان سنة ٣٧ هـ . ويقال إن قيس ابن سعد لقيه فنصحه عدة نصائح تختص بحكم مصر ، تذكرنا بساسة قيس قبل أن يعزله على ، ومن تلك النصائح أن يصانع شيعة عثمان فى مصر ليكشف بمعاملته الحسنة عن أمرهم وآرائهم ، كما نصحه بأن يحسن سياسته مع الشعب بوجه عام وبأن يتحبب إلى الناس وذلك بأن يعود المرضى ويشهد الجنائز ، وغير ذلك من النصائح التى تستحق التقدير . على أن محمد بن أبى بكر لم يفعل شيئا من ذلك ، بل كان أول ما عمله أن كتب إلى معاوية بن حديج ومن معه من شيعة عثمان يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه فبعث إلى دورهم فهدمها ونهب أموالهم وسجن ذراريهم ، فنهضت شيعة عثمان لمحاربته ولما علم أنه لا قبل له بهم كف عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية ففعلوا ولحقوا بمعاوية[1] . ويظهر أن ذلك جعل معاوية يتخذ خطة الهجوم وينهى خطة السياسة والمكائد ويرسل جيشا لفتح مصر .

فى ذلك الوقت الذى عزم فيه معاوية على إرسال جيش لاستخلاص مصر من على ، كان قد اتفق هو وعلى على التحكيم عقب موقعة صفين ، ونعرف أن مدة التحكيم كانت بمثابة هدنة يضع فيها الفريقان المتحاربان السلاح . وتذكر المصادر أنهما لما اتفقا على التحكيم غفل على أن يشترط

---

(١) الكندى ص ٢٦ — ٢٨ ، خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٧ .

على معاوية ألا يقاتل أهـل مصر[١] ، ولذا أصبح معاوية فى حل من قتال أهلها . ويذكر أبو المحاسن[٢] أن معاوية طمع فى مصر لما اختلف أهل العراق على على ، وكان معاوية قبل ذلك يهاب مصر لكثرة الشيعة بها بالرغم من أن أهل خربتا كانوا عثمانية ، ويذكر أيضا أن معاوية قصد باستيلائه على مصر أن يستعين بها على حرب على . ولأهمية تلك المسألة استشار معاوية خواصه ومن بينهم عمرو . فقال عمرو : « أهمك أمر مصر وخراجها الكثير وعدد أهلها فتدعونا لنشير عليك فيها فاعزم وانهض ، فى افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك . فقال له معاوية . يا ابن العاص : « إنما أهمك الذى كان بيننا[٣] » وقد رأى بقية خواصه ما رأى عمرو . وفى تلك الأثناء كاتب معاوية شيعته فى مصر وعلى رأسهم معاوية بن حديج ومسلمة ابن مخلد ينبئهم بقدوم جيشه فكتبا إليه : « أما بعد فعجل علينا بخيلك ورجلك ، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائبين فإن أتانا المدد من قبلك يفتح الله علينا » .

هذه هى الرواية التى يذكرها أبو المحاسن ويستفاد منها أن شيعة عثمان بمصر لم يخرجوا منها ، وأن معاوية لم يرسل جيشاً لاستخلاص هذه البلاد إلا بعد أن تمهدت له الأمور فى مصر .

وقد تكون شيعة عثمان فى مصر قد خرجت حقا فى ولاية محمد بن أبى بكر كما ذكرنا سابقاً ، ولكن الأرجح أنها لم تخرج كلها بل ظل فيها طائفة منهم .

وقد أرسل معاوية سنة ٣٨ هـ جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص .

---

(١) الكندى ص ٢٨ ، خطط المقريزى حـ ٣ ص ٣٣٧

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٧ — ١٠٨

(٣) يشير معاوية بذلك إلى الاتفاق الذى كان بينه وبين عمرو على أن يعطيه مصر طعمة له وذلك عند ما تعاهد معه على قتال على

وهنا يجب أن نتذكر أن عمراً لم يكن يستخلص مصر هذه المرة من أيدى البيزنطيين كما فعل سنة ٢٠ هـ وإنما كان يستخلصها من شيعة على ابن أبى طالب ، فكان جيش عمرو فى تلك المرة يحارب فريقا من شعبه يدين بدينه ، لا شعبا أجنبياً عنه ويدين بدين غير الدين الإسلامى . ففى سنة ٢٠هـ وقف العرب كتلة واحدة أمام البيزنطيين ، وهنا فى سنة ٣٨هـ انقسم العرب على أنفسهم وأصبح حزب منهم يقاتل حزبا آخر . وكان جيش عمرو يتكون من أهل دمشق وعليهم يزيد بن أسد البجلى وأهل فلسطين وعليهم رجل من خثعم وكان معاوية بن حديج على رأس شيعة عثمان ، وأبو الأعور السلمى على أهل الأردن . وتقابل جيش عمرو مع جيش محمد بن أبى بكر فاقتتلوا بالمسناة[1] وهزم الجيش الذى كان يقوده محمد بن أبى بكر بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة فى الأرواح . ويبين شدة القتال فى تلك الموقعة ما قاله عمرو : « شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أر يوما كيوم المسناة ولم أر الأبطال إلا يومئذ » وبعد انتصار عمرو دخل هو وأهل الشام مدينة الفسطاط[2] .

هرب محمد بن أبى بكر بعد تلك الموقعة فأقبل معاوية بن حديج فى رهط من أنصاره يبحث عنه فدلتهم على مكانه امرأة فسار إليه معاوية بن حديج وقتله وقال : يقتل كنانة بن بشر ويترك محمد بن أبى بكر وإنما أمرهما واحد[3] ! ويقال إن محمدا طلب المفومن معاوية بن حديج فقال له معاوية : « قتلت ثمانين رجلا من قومى فى عثمان وأتركك وأنت صاحبه ! » فقتله ووضعه فى جيفة حمار ميت وأحرقه بالنار . فكانت ولاية محمد بن أبى بكر

(١) المسناة : مكان بين عين شمس وأم دنين أى شمالى القاهرة .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩

(٣) الكندى ص ٢٩

على مصر خمسة أشهر ومقتله فى ١٤ من صفر سنة ٣٨ هـ وقيل أيضاً إنه قطع رأسه وأرسله إلى معاوية بن أبى سفيان بدمشق وطيف به ، وهو أول رأس طيف به فى الإسلام[1]، وبذلك انتهى حكم الخلفاء الراشدين من مصر فى صفر سنة ٣٨ هـ[2] . وتقديراً لهذه الخدمات التى أداها عمرو بن العاص ولاه معاوية مصر صلاتها وخراجها وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة على إدارتها ، وهذه هى ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر . ولم يلبث عمرو أن خرج للتحكيم الذى كان بين على ومعاوية واستخلف على مصر ابنه عبد الله ، وقيل خارجة بن حذافة صاحب شرطته ، وبعد أن أدى مهمته فى التحكيم كما رأينا عاد ثانية إلى مصر[3] . وهكذا أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ بالرغم من أن علياً ظل خليفة حتى سنة ٤٠ هـ .

٢ — النزاع الذى قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين (٤٠ — ١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٥٠ م) :

ا — دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك فى مصر

طمع عبد الله بن الزبير فى الخلافة كما طمع غيره وتجلت أمنيته هذه منذ خروجه مع أبيه فى موقعة الجمل[4] ، على أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد لخروجه وادعائه الخلافة ، بل نراه يشترك فى خدمة الدولة زمن معاوية

(١) خطط المقريزى : ج ٢ ص ٣٣٧

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١٠

(٣) الكندى ص ٣١ ، خطط المقريزى : ج ٢ ص ٣٣٧

(٤) انظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٦٩ ، ابن طباطبا : الفخرى ص ٧٦

ابن أبي سفيان ويخرج فى الجيش الذى سار لغزو القسطنطينية سنة ٤٩ هـ بقيادة يزيد بن معاوية[١]. وعند ما أخذ معاوية قبيل وفاته البيعة لابنه يزيد، عارض فى تلك البيعة نفر يسير من أهل المدينة منهم الحسين بن على وعبد الله ابن الزبير. وقد حذره معاوية من هؤلاء النفر وخاصة من ابن الزبير إذ قال له « . . . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسـد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمـكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو وثب عليك فظفرت به فقطعه إربا إربا واحقن دماء قومك ما استطعت[٢] ». ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠ — ٦٤ هـ = ٦٨٠ — ٦٨٣ م) امتنع الحسين والزبير عن مبايعته. فأما الحسين فقد خرج على يزيد وقتل فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ بكربلاء، وبقتله خلا الجو لابن الزبير فدعا لنفسه بالخلافة فى سـنة ٦١ هـ وبايعه أهل تهامة والحجاز[٣]. وقد أرسل يزيد جيشا فى سنة ٦٣ هـ لمحاربة ابن الزبير وأتباعه فى المدينة ثم مكة، ومات يزيد ولما يتم إخضاع ابن الزبير. ثم ولى الخلافة معاوية الثانى ابن يزيد، إلا أن مدة خلافته لم تطل فقيل إنه ملك أربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر، وحدثت بعد موته فترة هرج ومرج ونزاع حول منصب الخلافة، وفى تلك الأثناء اتسع نطاق دعوة ابن الزبير الذى بايعه أهل الشام كلهم إلا أهل الأردن، وكذلك بايعه أهل مصر كما غلب على أهل العراق والحجاز واليمن.

ولما بويع مروان بن الحـكم بالخلافة فى سنة ٦٤ هـ (٦٨٤م) كان عليه أن يقضى على معارضة عبد الله بن الزبير. أما فى الشام فقـد انتصر على

(١) الطبرى : ج ٦ ص ١٣٠.
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٩٨
(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٦٠، الطبرى ج ٦ ص ٢٧٣ — ٢٧٤

الضحاك بن قيس عامل عبد الله بن الزبير فى موقعة مرج راهط وقتله وبذلك خلصت بلاد الشام لمروان ، وكذلك استولى مروان بن الحكم على مصر من عامل ابن الزبير كما سنرى ، ومات مروان فى سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) وابن الزبير متغلب على الحجاز والعراق .

وفى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٥ — ٧٠٥ م) تم القضاء على ابن الزبير ، إذا تغلب بنو أمية على العراق فى سنة ٧٢ هـ ، وعلى الحجاز فى سنة ٧٣ هـ ، وانتهى الأمر بقتل ابن الزبير فى هذه السنة .

* * *

وقد مر بنا أن مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ وأصبح ولاتها منذ ذلك الحين يولون من قبل الخلفاء الأمويين ، ولم تظهر دعوة ابن الزبير فى مصر إلا عقب وفاة الخليفة يزيد وذلك فى ولاية سعيد ابن يزيد عليها (٦٢ — ٦٤ هـ) . وقد قام بتلك الدعوة الخوارج وكانوا يحسبون ابن الزبير على مذهبهم[١] . والواقع أن هذه الفرق المختلفة من الشيعة والخوارج كانت تؤيد جموع الثائرين على الخلافة علها تستطيع الوصول إلى مآربها المختلفة دينية كانت أو سياسية . فلم يقل أحد بأن ابن الزبير كان يدين بمذهب الخوارج ، ولكن ربما ادعى الخوارج فى مصر ذلك ، وساعدهم فى دعوتهم هذه ما لاقوه من ترحيب ابن الزبير بهم واعتماده عليهم فى نشر دعوته .

أوفد الخوارج فى مصر وفدا إلى ابن الزبير — ليرسل إلى مصر أميرا من قبله يؤازرونه . كذلك خرج من مصر إلى ابن الزبير أناس من غير

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠ — ٤١ ، خطط المقريزى : ج ٢ ص ٣٣٧

الخوارج ، منهم أبو عبيدة وعياض ابنا عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهرى وأبو بكر بن القاسم بن قيس المذرى وحيان بن الأعين الحضرمى وحجوة ابن الأسود الصدفى — ثم أرسل ابن الزبير واليا عن قبله على مصر هو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهرى ، فقدم مصر فى طائفة من الخوارج الذين قاموا ضد واليها سعيد بن يزيد فاعتزل الولاية سنة ٦٤ هـ ومن ثم بدأت ولاية عبد الرحمن بن جحدم فى شعبان سنة ٦٤ هـ وأصبحت مصر ولاية تابعة لخلافة عبد الله بن الزبير . وقد بايعه الناس فى مصر ومنهم شيعة بنى أمية الذين بايعوه فى الظاهر إلا أنهم كانوا مخلصين للأمويين وللحكم الأموى فى الباطن(١) . فلما بويع مروان بن الحكم خليفة بالشام فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ دعاه شيعته بمصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير .

فقدم مروان بن الحكم إلى مصر وأرسل أمامه جيشا بقيادة ابنه عبد العزيز بن مروان وأمره أن يدخل مصر عن طريق أيلة . وقد أشار الجند على ابن جحدم بحفر خندق حول الفسطاط للدفاع عن مصر ، فأمر بحفر هذا الخندق فحفر فى شهر واحد ، وفى ذلك يقول ابن أبى زمزمة الخشنى .

وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفا قد أثاروا ترابه وخدوه(٢) فى شهر حديث مصدق

وقد أعقب ابن جحدم ذلك بإرسال جيش إلى الشام أمر عليه السائب ابن كنانة بن هشام العامرى كما سير إليها حملة بحرية بقيادة الأكدر بن حمام

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠ — ٤٢ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٧

(٢) خدوه : شقوه

اللخمى . وأرسل إلى أيلة جيشا آخر بقيادة زهير بن قيس البلوى ليمنع عبد العزيز بن مروان من السير إليها . أما جيش السائب فقد انتصر عليه مروان بخدعة غريبة إذ أخبره روح بن زنباع بأن للسائب بفلسطين ولدا رضيعا فأخذه مروان ولما التقى بجيش السائب أظهر له ابنه وهدده بقطع رأس ابنه إذا لم يرجع ، فرجع السائب دون قتال ولذلك سمى جيشه جيش الكرادين ، وأما المراكب التى سيرها ابن جحدم فقد هبت عليها ريح عاصف أغرقتها ونجا أميرها الأكدر وعاد إلى الفسطاط . وقد التقى جيش زهير بن قيس بعبد العزيز على مقربة من أيلة وتقاتلا فانهزم زهير ومن معه[١] .

وسار مروان إلى مصر حتى نزل عين شمس فخرج إليه ابن جحدم فى اتباعه وتحاربوا يوما أو يومين ثم رجعوا إلى خندقهم . وأخذوا يحاربون مروان وهم فى الخندق ، وقد سميت تلك الأيام بأيام الخندق والتراويح ، فكان أهل مدينة الفسطاط ، يتناوبون القتال فيخرج نفر للقتال ثم يرجع ثم يخرج غيرهم ، وهكذا وقد اشتد القتال بين الفريقين حتى قام نفر ليصلحوا بين المصريين ومروان وتم ذلك الصلح وكتب مروان كتابا أمن فيه المصريين ثم دخل الفسطاط فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ[٢] . وانتهى فى مصر حكم ابن الزبير بعد أن دام نحو تسعة أشهر وهى المدة التى ولى فيها عبد الرحمن بن جحدم .

وقد بايع المصريون مروان بن الحكم إلا نفرا لم يرضوا بنكث بيعة ابن الزبير بعد أن بايعوه طائعين . ولما كان مروان يريد أن يقضى على خلافة

---

(١) الكندى ص ٤٢ — ٤٣ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٨

(٢) الكندى ص ٤٣ — ٤٥ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٨

ابن الزبير نهائيا من مصر ، فقد اضطر إلى قتلهم بعد أن أبوا بيعته وكانوا ثمانين رجلا .

وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها فى أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية إلى الحكم الأموى ، كما ولى عليها ابنه عبد العزيز بعد أن زوده بالنصائح الهامة التى تجعل منه حاكما قديرا وتساعده على حكم مصر[١] .

على أن مصر بعد خروجها عن طاعة ابن الزبير لم تقف على الحياد فى النزاع الذى كان بينه وبين الخلفاء الأمويين ، بل مدت يد المساعدة إلى الأمويين كى تعينهم على التخلص منه ، فأرسل عبد العزيز بن مروان والى مصر (٦٥ — ٨٦ هـ) فى سنة ٧٢ هـ حملة بحرية إلى مكة لقتال ابن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل ، وكان فى هذا البعث رجل اسمه عبد الرحمن بن بحنس[٢] أحد موالى تجيب يقال إنه هو الذى قتل ابن الزبير فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ[٣] .

وقد رفعت خلافة ابن الزبير من شأن الخوارج بمصر لفترة يسيرة ، إلا أنهم ، كما يقول المقريزى[٤] ، انكفت ألسنتهم هم والعلوية بعد تغلب مروان على مصر . على أنهم عادوا إلى الظهور فى ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ — ٩٦ هـ) فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، فيذكر الكندى[٥] والمقريزى[٦] أنه عندما خرج قرة إلى الإسكندرية فى سنة ٩١ هـ اتفق

(١) الكندى ص ٤٧ — ٤٨

(٢) كتب الاسم فى المصادر بحنس ويحتمل أن يكون ذلك الاسم « يحنس »

(٣) الكندى ص ٥١ ، خطط المقريزى : جـ ١ ص ٢١٠

(٤) الخطط جـ ٢ ص ٣٣٨

(٥) الولاة والقضاة ص ٦٤

(٦) الخطط جـ ٢ ص ٣٣٨

الخوارج بالاسكندرية ، وكانت عدتهم نحو مائة ، على الفتك به وكان رئيسهم إذ ذاك المهاجر ابن أبى المثنى التجيبى أحد بنى فهم ، وقد علم بذلك رجل يكنى بأبى سليمان فأبلغ قرة ما عزم عليه الخوارج فأخذهم بغتة قبل أن يتفرقوا وحبسهم وقد أقروا بما عزموا عليه فقتلهم .

وبذلك انتهى ذلك الدور من أدوار النزاع حول الخلافة بعد أن ساهمت فيه مصر مساهمة ذات أثر لا يغفى وقد ظلت مصر تقريبا طوال الحكم الأموى فيها (٣٨ — ١٣٢ هـ) هادئة لا تشترك فى أية منازعات أو حركات ظهرت فى مقر الخلافة أو فى غيرها من أنحاء الدولة الإسلامية إذا استثنينا تلك الفترة التى قامت فيها خلافة ابن الزبير فى مصر كما تقدم . على أن مصر دخلت فى أواخر ذلك العهد فى النزاع الذى قام بين الأمويين والعباسيين والذى انتهى بقيام الدولة العباسية كما سنرى .

ب — زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك فى مصر

تجمعت الظروف والعوامل التى أدت إلى زوال الخلافة الأموية وظهر أثرها بوضوح منذ أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى ، فمن شيعة يعملون على الكيد لبنى أمية ليغتصبوا الخلافة منهم ، ومن خوارج كانت مبادئهم وحركاتهم هادمة لخلافة قريش ، إلى موال كرهوا الدولة الأموية لتفضيلها العرب عليهم .

وهذه العناصر المناوئة للدولة وجدت منذ قيام الدولة الأموية ، ومع ذلك لم يظهر أثرها فى إضعافها إلا بعد أن ظهر الضعف من جانب الدولة نفسها ، ولعل أهم مظاهر ذلك الضعف هو انقسام البيت الأموى على نفسه انقساما تاما منذ خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٦ هـ =

٧٤٣ — ٧٤٤ م) إلى أن ولى الخلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في سنة ١٢٧ هـ (٧٤٤ م) ، إذ أصبح كل فرد من أفراد البيت الأموى يتخذ لنفسه حزبا يستعين به على الوصول إلى الخلافة ، مما شجع الطامعين من غير بنى أمية على إلقاء دلوهم في الدلاء علهم يصلون إلى ما يريدون . وكان صاحب النصيب الأكبر في هذه الغنيمة هم العباسيون .

كذلك وضح خطر العصبية القبلية في أواخر عهد الدولة الأموية ومما زاد في شقة الخلاف بين أفراد القبائل أن الخلفاء زجوا بأنفسهم في هذه المنازعات ، فتعصب بعضهم لعرب الشمال وتعصب آخرون لعرب الجنوب .

وقد استغل بنو العباس عم الرسول كل هذه الظروف السيئة التي أحاطت بالخلافة الأموية ، ويظهر أنهم بدأوا منذ أواخر القرن الأول الهجرى ينظرون من جانبهم فيما طمح إليه الشيعة[1] فأخذوا يعملون لأنفسهم واستغلوا في حركتهم الشيعة والموالى استغلالا كبيرا ؛ إذ كانوا يدعون لواحد من آل محمد وطبيعى أن هذا يشمل آل على وآل العباس .

وفي الوقت الذى أثمرت فيه الدعوة العباسية كان حال الخلافة الأموية قد ساء إلى أقصى حد . وقد وجدت الدعوة العباسية في شخصية أبي مسلم الخراسانى صاحب الفضل في إخراجها إلى حيز العمل والتنفيذ ، فهو كما يقول ابن طباطبا[2] « رجل الدولة وصاحب الدعوة وعلى يده كان الفتح » . وقد نجح أبو مسلم في إظهار الدعوة العباسية ورفع راية العباسيين في خراسان سنة ١٢٩ هـ[3] . وتمت الغلبة للعباسيين على الأمويين في خراسان

---

(١) المسعودى : كتاب التنبيه والإشراف ص ٣٣٨

(٢) الفخرى ص ١١٨

(٣) الطبرى جـ ٩ ص ٨٢ — ٨٤

والعراق ، وسار أبو مسلم بجنده من خراسان إلى الكوفة حيث بايع أبا العباس السفاح بالخلافة فى سنة ١٣٢ ﻫ . وتبعه الناس من بعده . وتقابل جيش العباسيين مع الجيش الأموى الذى كان يقوده مروان بن محمد عند نهر الزاب (أحد روافد نهر دجلة) ، وهناك كانت الغلبة للعباسيين فى سنة ١٣٢ ﻫ (٧٥٠ م[١]) وفر مروان بعد ذلك هاربا إلى مصر .

ولا نعرف على وجه التحقيق متى بدأت الدعوة العباسية فى مصر لأن العباسيين كما عرفنا اهتموا بخراسان والمشرق لنشر دعوتهم فيها ولأن محور الحوادث منذ البداية كان فى المشرق ، ولكن كان مقدرا أن تكون نهايتها فى مصر التى فر إليها الخليفة مروان بن محمد ولقى فيها حتفه .

أول ما نسمع عن الدعوة العباسية فى مصر أيام خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ ﻫ) وفى ولاية عبد الرحمن بن خالد عليها (١١٧ — ١١٩ ﻫ) إذ يذكر أبو المحاسن[٢] أن دعاة بنى العباس أرسلوا إليه سرا فأكرمهم ووعدهم فبلغ ذلك هشاما فعزله .

لكن مصر ظلت هادئة لم تتأثر عما كان يدور فى المشرق حتى كانت خلافة مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ ﻫ) فيبدأ الاضطراب فى مصر منذ توليه الخلافة ونرى الجند لا يطيعون أوامر الخليفة فى كثير من الأحيان ، كما نرى النزاع بين القيسية واليمنية يتجلى بأجلى مظاهره فى مصر ولا غرو فقد عمت روح العصبية القبلية إذ ذاك فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، فاليمنيون لا ينفذون أوامر الخليفة ، والقيسيون أو المضريون فى جانب الخليفة ، ولكن بعضهم يشقون عصا الطاعة ، كما يثور بعض أفراد

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٣٠ — ١٣٢ ، ابن طباطبا : الفخرى ص ١٢٥ — ١٢٦

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٨

البيت الأموى تعصبا للخليفة مروان بن محمد وبعضهم يثور ضـده ، كذلك يظهر الخوارج فى مصر . أى أن ما يحـدث فى مقر الخلافة يقـع مثله فى مصر . وهنا نجد ظاهرة لم نمهدها من قبل وهى ثورة الأهالى الوطنيين ومساعدتهم للعباسيين ضد الأمويين ، فالأهالى الوطنيون لم يشتركوا فى المنازعات الخـلافية من قبـل ولـكنهم لعبوا هنا دورا لا يغفل أثره ، فتهيأت بذلك الظروف للعباسيين ، كى يتموا نصرهم ضد الأمويين ، وكى ينشروا دعوتهم فى مصر .

لما بويع مروان بن محمد بالخلافة فى صفر سنة ١٢٧ هـ كان على ولاية مصر إذ ذاك حفص بن الوليد الحضرمى ، فلما أعلن بالفسطاط نبأ بيعة مروان ، كتب حفص إليه يستعفيه من ولايته على مصر فأعفاه مروان منها(١) وهنا يجدر أن نشير إلى أن حفصا هـذا كان من عرب الجنوب ، أو من اليمنية الذين كانوا فى ذلك الوقت فى عداء مستحكم مع المضرية أى عرب الشمال الموالين للخليفة .

ولى مروان بن محمد حسان بن عتاهية على صلاة مصر ، وولى على الخراج عيسى بن أبى عطاء ، وهنا تتجلى العصبية القبلية بأجلى مظاهرها ، كما تتجلى حالة الفوضى التى وصلت إليها البلاد ، وكيف قطعت الدولة العباسية شوطا بعيدا وسط تلك الفوضى الشاملة التى عمت أنحاء الدولة الأموية إذ ذاك . فقد كانت سياسة مروان بن محمد تنطوى على الاتحاد مع القيسية أو المضرية ضد اليمنية ، فـكان طبيعيا أن يثور اليمنيون فى مصر ضد سياسة الخليفة . لذا نجد أن حسان بن عتاهية عندما قدم إلى مصر فى ١٢ من جمادى الآخرة

---

(١) الـكندى : الولاة والقضاة ص ٨٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٩٢

سنة ١٢٧ هـ يأمر بحل الفرق التى كان حفص بن الوليد[١] قد جندها على أن حسان لم يكد يستقر فى ولاية مصر حتى ثار قواد الفرق التى جندها حفص وأعلنوا عدم رضاهم إلا بحفص بن الوليد[٢] . وكان هذا فى الواقع نزاعا بين اليمنية والمضرية . إذ كان اليمنيون يثورون ضد عامل مروان بن محمد الذى كان يهمه موالاة المضريين ، على أن الذى شجعهم على عصيان الخليفة هو حالة الفوضى والاضطراب التى سادت أنحاء الدولة إذ ذاك ، إذ كان الخليفة فى ذلك الوقت مشغولا بمحاربة الخارجين على الدولة من مختلف الطوائف والأحزاب ، حتى إنه عجز عن عمل أى شىء ضد الدعوة العباسية .

ويظهر أن الدعوة العباسية فى مصر كانت فى ذلك الوقت قد قطعت شوطا بعيدا . إذ أرسل ثابت بن نعيم الجذامى — وكان ممن خرجوا على مروان بن محمد — كتابا إلى حفص بن الوليد يدعو فيه إلى خلع مروان ابن محمد . كذلك أتى إلى مصر رسول زامل بن عمرو الذى خلع مروان بحمص ودعاهم إلى مثل ما دعاهم إليه ثابت بن نعيم[٣] . والمهم هنا أن اليمنية وسائر الخارجين على مروان ساروا إلى دار حسان بن ثابت وحاصروه فيها وطلبوا منه أن يخرج من مصر فنزل على رغبتهم واتجه إلى الشام ليلحق بمروان ، فكانت ولاية حسان بن ثابت على مصر ستة عشر يوما . كذلك أخرج الثائرون من مصر صاحب الخراج عيسى بن أبى عطاء . وولى الثائرون عليهم حفص بن الوليد[٤] . على أنه بالرغم من أن حفصا كان من اليمنيين إلا أنه كان رجل دولة بالمعنى الصحيح يعرف أن مصلحة الدولة فوق مصلحة القبيلة

(١) الكندى ص ٨٥
(٢) الكندى ص ٨٥
(٣) الكندى ص ٨٥ — ٨٦
(٤) الكندى ص ٨٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣٠١

وأن طاعة الخليفة واجبة . ويتبين لنا ذلك مما قاله الكندى[١] إذ يذكر أنه ولى مصر فى هذه المرة كرها وأن قواد الجند هم الذين أجبروه على ذلك .

وفى تلك الأثناء قدم حنظلة بن صفوان الكلبى من إفريقية إلى مصر وكان أهلها قد أخرجوه منها ، فنزل بالجيزة . وعند ذلك كتب مروان إلى أهل مصر بتولية حنظلة بن صفوان عليهم . ولكن المصريين عصوا أمر الخليفة مرة أخرى ، بل حاربوا حنظلة وأخرجوه من الفسطاط إلى الحوف الشرقى ، وظل حفص بن الوليد واليا على مصر طوال سنة ١٢٧ هـ حتى أوائل سنة ١٢٨ هـ [٢] .

على أن الخليفة مروان بن محمد وجد أن تنفيذ أوامره فى مصر لا يكون إلا بالقوة ، لذا عزل حفص بن الوليد عن ولايتها فى المحرم سنة ١٢٨ هـ وولى عليها حوثرة بن سهيل الباهلى وزوده بالجيوش لقتال حفص وأهل مصر ، فسار حوثرة إلى مصر يصحبه سبعة آلاف رجل من أهل حمص والجزيرة وقنسرين ، وهنا نجد حفصا مرة أخرى يلبى نداء عقله ولا يستمع لنداء العصبية القبلية حين اجتمع إليه الجند وطلبوا منه أن يمنع حوثرة من دخول مصر ، إذ أبى عليهم ذلك وسلم ما بيده إلى أبى الجراح الجرشى بشر ابن أوس الذى أرسله حوثرة ريثما يحضر إلى مصر [٣] .

ولما دخل حوثرة أرض مصر يصحبه الجنود ، خشى أهل مصر منه ، فأرسلوا إليه يزيد بن مسروق الحضرمى يسأله الأمان فلقيه بالعريش وأجابه إلى ما طلب ، وكتب إلى أهل مصر كتاب أمان فخرج إليه حفص بن

(١) الكندى ص ٨٦
(٢) الكندى ص ٨٧ ، أبو المحاسن جـ ١ ص ٣٠٢
(٣) الكندى ص ٨٧

الوليد فى وجوه الجند ، إلا أن حوثرة لم يعبأ بالأمان الذى أعطاهم إياه فأمر بالقبض عليهم . ثم سار إلى الفسطاط فى ١٢ من المحرم سنة ١٢٨ هـ . وعقب دخول حوثرة الفسطاط بعث فى طلب رؤساء الفتنة وكانوا من اليمنيين وتمكن من القبض عليهم وقتلهم ، ومنهم حفص بن الوليد ، وذلك سنة ١٢٨ هـ [١]

ولم يكد حوثرة يتخلص من اليمنية فى مصر ويمهد أمورها حتى ظهرت فيها حركة أخرى كانت صدى لحركة الخوارج بالحجاز . فمندما قام عبد الله ابن يحيي الملقب بطالب الحق فى الحجاز ضد مروان بن محمد ودعا إلى نفسه بالخلافة ، قدم إلى مصر داعيته ودعا لمبايمته ، فأجابه نفر من تجيب وغيرهم ، ولما علم حسان بن عتاهية صاحب الشرطة بذلك قبض عليهم فقتلهم حوثرة بن سهيل [٢]

وما زال حوثرة يمهد أمور مصر حتى استدعاه مروان بن محمد سنة ١٣١ هـ ليخرج إلى العراق لقتال الخراسانية دعاة بنى العباس[٣]

ولى مصر بعد ذلك المغيرة بن عبد الملك الفزارى فى جمادى الأولى سنة ١٣٢ هـ ثم عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، وفى تلك الأثناء كان مروان بن محمد قد هزم أمام جيش العباسيين فى وقعة الزاب (جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ) وفر إلى حران عاصمة الجزيرة . وكانت مصر البلد الذى فكر مروان فى الهرب إليه علة يستطيع منها أن يقضى على العباسيين ليسترد سلطانه المهدد بالضياع ، وذلك بما لها من مزايا عديدة من

---

(١) الكندى ص ٨٨ — ٩١ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٠٥
(٢) الكندى ص ٩٢ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٨
(٣) الكندى ص ٩٢ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٠٥

حيث الموقع والثروة . ويقال إن مروان فكر أولا وهو بحران فى الهرب إلى بلاد الروم حيث يجمع أمره ويلم شمل جنوده ليحارب العباسـيين ، واستشار فى ذلك رجلا من أخص الناس عنده وهو اسماعيل بن عبد الله القسرى . فكان ذلك رأى اسماعيل ، غير أنه تذكر معاداة مروان لليمنيين وتحامله عليهم فصرفه عن هـذا الرأى ، وقال له يا أمير المؤمنين : أعيذك بالله أن تحـكم أهل الشرك فى نفسك وحرمك لأن الروم لا وفاء لهم[١] . وحين عاود الخليفـة سؤاله قال : « الرأى أن تقطع الفرات وتستقرى[٢] مدن الشام مدينة مدينة فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء ، وتضمهم جميعا إليك وتسير حتى تنزل ببلاد مصر ، فهى أكثر أهل الأرض مالا وخيلا ورجالا فتجعل الشام أمامك وإفريقية خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن تكن الأخرى اتسع لك المهرب نحو إفريقية فإنها أرض واسعة نائية منفردة[٣] » وقد صادف هذا الرأى قبولا لدى الخليفة ، إلا أن مروان عند ما وصل إلى مصر وجد أن الدعوة العباسية قد قطعت مرحلة كبرى فيها فكان أمامه محاربة العباسيين فى داخل مصر وخارجها ، وكانت النتيجة أن غلب على أمره فى النهاية .

لما وصلت الأخبار إلى مصر بانهزام مروان فى موقعة الزاب أخذ واليها عبد الملك بن مروان يستعد لمقاومة العباسيين فصـادر كل ما وجده من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيره ليستعمل ذلك فى الصناعة وغيرها من الأمور اللازمة للدفاع . وقد اخترعت فى ذلك الوقت مادة من المقاقير

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٤٦ — ٣٤٧
(٢) استقرى البلاد تتبعها وطاف بها
(٣) الدينورى ص ٣٤٧

تدهن بها المراكب كيلا تؤثر فيها النيران ، ويحدثنا أحد الرواة الأقباط بأنه شاهد تلك الظاهرة بنفسه وهى عدم تأثر المراكب بالنيران إذا ما دهنت بتلك المادة ، بل كانت النيران تنطفئ فى الحال[١] . ولا بد أن أهالى مصر الوطنيين ومن بينهم الأقباط قد نالهم بلاء عظيم[٢] من جراء مصادرة أموالهم واستخدامهم فى كثير من الأمور اللازمة لمثل ذلك الدفاع . إلا أن الوالى كان مضطرا إلى ذلك إزاء الأزمة السياسية الخطيرة التى كان سيتوقف عليها مصير الخلافة الأموية نهائياً . ومن غير المحتمل أن ذلك كان بغضا خاصا للنصارى من جانبه ، كما يظن ساويرس بن المقفع[٣].

وممن ثاروا على مروان فى مصر عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان وتبعه فى ذلك الدماحس بن عبد العزيز الكنانى فى جمع من قيس ، فأرسل إليهم الوالى عبد الملك بن مروان جيشا قوامه سبعة آلاف شخص برياسة موسى بن المهند ، وفى بلبيس التقى هذا الجيش مع الثائرين الذين طلبوا الصلح ، فأجابهم موسى بن المهند إلى ماطلبوا ، ثم ظفر بعمرو بن سهيل وحبسه فى الفسطاط[٤] . وحسبنا دليلا على الاضطراب الذى وصلت إليه مصر فى تلك الفترة أن يثور على مروان بن محمد بعض أفراد البيت الأموى كعمرو ابن سهيل وأن يتبع هذا الثائر جزء من قبيلة قيس التى كانت موالية لمروان . ولما عزم مروان على المسير إلى مصر اجتمع بعض الجند فيها على منعه من دخولها وأمروا عليهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن عميرة الحضرمى وهو

---

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ١١٩
(Patr. Orientalis t. V).

(٢) ساويرس ص ١١٨ — ١١٩

(٣) ساويرس ص ١١٨

(٤) الكندى ص ٩٤ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣١٦

— كما نرى من نسبه — ينتمي إلى عرب الجنوب الذين أصبحوا في عداء مستحكم مع الخلفاء الأمويين . وقد أرسل مروان على مقدمة جيشه ابنه عبيد الله بن مروان ، فلما وصل إلى مصر دعا ابن عميرة الجند إلى النهوض معه فتثاقلوا عنه ولم يقوموا بشيء مما عزموا عليه[١] ، ثم قدم مروان مصر لثمان بقين من شوال سنة ١٣٢ هـ فوجد أن أهل الحوف الشرقي قد أصبحوا من أعوان العباسيين ، كما وجد الأسود بن نافع بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري في الاسكندرية قد صار من أنصارهم ، وكذا عبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله ابن مروان الجيشاني بصعيد مصر ويحيى بن مسلم بن الاشج مولى بني زهرة باسوان[٢] . ومن هذا ندرك كيف نظمت الدعوة العباسية في مصر .

ونجح مروان في أن يخضع الاسكندرية والصعيد ولكنه لم يجن ثمار هذا النصر لأن صالح بن علي بن عبد الله العباسي وأبا عون تبعاه إلى مصر على رأس الجيوش العباسية فوصلا إليها بعده بنحو شهر كما يحدثنا بذلك ساويرس[٣] أو بعد مجيئه بشهرين تقريبا أعني في النصف من ذي الحجة كما تخبرنا بذلك المراجع المتأخرة[٤] . وقد زاد الحالة حرجا في ذلك الوقت ثورة أهل البشمور[٥] في وجه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير والي مصر

(١) الكندي ص ٩٤ — ٩٥

(٢) الكندي ص ٩٥

(٣) سير الآباء البطاركة ص ١٥٦ ، ١٧٠

يذكر ساويرس أن مروان قدم إلى مصر في عشرين بؤونة سنة ٤٦٧ للشهداء ، وأن الخراسانيين وصلوا مصر في يوم ١٩ أبيب . وساويرس في الواقع أكثر ثقة من المراجع المتأخرة لأنه استمد معلوماته من الوثائق اليونانية والقبطية المعاصرة لتلك الحوادث والتي كانت محفوظة في الأديرة .

(٤) الكندي ص ٩٦ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣١٧

(٥) إقليم البشمور أو البشرود كما في المراجع العربية : هو المنطقة الرملية الواقعة على ساحل الدلتا بين فرعي دمياط ورشيد والمعروفة في التاريخ القديم =

قبل قدوم الخليفة إليها وقد امتنعوا عن دفع الخراج ، فحاربهم عبد الملك ولكنهم هزموه . ولما وصل مروان بن محمد إلى مصر وعلم بثورتهم ، أرسل يعرض عليهم الأمان ولكنهم لم يقبلوا ذلك منه وظلوا على ثورتهم ، وساعدهم على ذلك أن المنطقة التى ثاروا فيها كانت تحيط بها المستنقعات ، وتعيق حركة الجيوش المهاجمة . وفشلت الجيوش التى أرسلها مروان لمحاربتهم .

ولما اقترب العباسيون من الحدود المصرية وبلغوا غزة صمم مروان على إحراق مدينة الفسطاط وأعلن وجوب إخلائها فى ثلاثة أيام ، فهرب جميع أهلها إلى الجيزة أو إلى جزيرة الروضة ثم أمر مروان بإحراقها . ولما علم بوصول الخراسانيين إلى الفرما أمر بإحراق جميع المراكب فى مصر وإحراق ما يستطاع إحراقه من المدن والكور وتخريب ما يستطاع تخريبه فى الوجه البحرى ، وتم إحراق بعض المدن وتخريبها فى شرق الدلتا . أما مروان نفسه فقد عبر إلى الضفة الغربية للنيل فى مراكب هو وجنده بعد أن أحرق الفسطاط على الضفة الشرقية . ويذكر ساويرس أن مروان قام بحركة التخريب والإحراق لأنه ظن أن الخراسانيين إذا أتوا إلى الضفة الشرقية للنيل ووجدوها خالية من الناس والبهائم والغلات ولم يجدوا مراكب يركبون فيها رجعوا من حيث أتوا[1] والحق أن مروان فعل ما يفعله معظم المتحاربين عندما تصبح حالتهم الحربية فى خطر ويتيقنون أنهم مغلوبون على أمرهم لا محالة فيقومون بتدمير ذخيرتهم وأسلحتهم وكل شىء يصح أن ينتفع به العدو .

= باسم بيكولى Bucolies التى حدثت فيها حرب الزراع فى عهد الإمبراطور ماركس أوريليوس (G.Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. I. V. p. 87)

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ١٦٧ — ١٧٠ (Patro. Orient. V.)

وهنا نجد ظاهرة جديدة لم نعهدها من قبل وهى اشتراك الأهالى الوطنيين ونقصد هنا الأقباط الذين كانوا يكونون أغلبية الشعب المصرى حينذاك ، فى تلك الحركة التى أدت إلى زوال الخلافة الأموية . ذلك أن الأهالى الوطنيين لم يشتركوا فى المنازعات الخليفية قبل ذلك وإنما فى هذه المرة نراهم يرحبون بالعباسيين لأنهم أرادوا التخلص من الحكم الأموى .

ظل أهل البشمور على ثورتهم ، بل ساروا إلى القرما لمقابلة الخراسانيين يشكون إليهم من مروان بن محمد ومن اضطهاده الشعب القبطى على العموم[١] ولم يكن هذا شعور أهل البشمور فقط بل كان شعور القبط على وجه الإجمال ففى ذلك الوقت كان مروان قد قبض على بطرك الأقباط أنبا ميخائيل لأنه لم يقم بدفع المال الذى طلبه منه كما أنه لم يعمل شيئا لردع أهل البشمور[٢]. ويحدثنا أحد القساوسة الذين كانوا فى السجن إذ ذاك مع البطرك عن المعاملة السيئة التى لقيها هذا الرئيس الدينى على يد مروان ثم يقول إن الخراسانيين كانوا فى الضفة الشرقية للنيل ينظرون ما حل بالبطرك ولو وجدوا سبيلا إلى العبور إلى مروان لقتلوه لما رأوا من ظلمه وقسوة قلبه[٣]. وهذا يظهر لنا شعور القبط إذ ذاك نحو الأمويين وأنهم كانوا يأملون فى الخلاص على أيدى العباسيين .

لم يجد العباسيون إذ ذاك مراكب يعبرون فيها إلى الضفة الغربية للنيل حيث كان مروان مقيما بالجيزة . وكان مروان قد أحرق الجسرين اللذين يصلان الفسطاط بجزيرة الروضة وبالجيزة . وكانت هناك مخاضات فى النيل يمكن العبور منها بسهولة إلى الضفة الغربية ولم يكن العباسيون يعرفونها ،

---

(١) ساويرس سير الآباء البطاركة ص ١٧٢ — ١٧٣
(Patr. Orient. t. V.)

(٢) ساويرس ص ١٦٠

(٣) ساويرس ص ١٧٣ — ١٧٤

ولكن دلهم عليها قوم يعرفونها وعبروا معهم إلى الضفة الغربيـة واستولوا بعدها على مراكب مروان التى عبر فيها هو وجنده إلى الجيزة .

ثم دارت رحى الحرب بين مروان وبين العباسيين وكتب النصر لهم ففر مروان حتى وصل إلى بوصير[1] ، وهناك لحق به صالح بن على العباسى حيث قتله لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ[2] وبذلك زالت الخلافة الأموية نهائيا ، وأعقب العباسيون ذلك بقتل كثير من أنصار بنى أمية فى مصر وأسر البعض

---

(١) بوصير أو أبو صيرة اسم لبلدان كثيرة فى مصر . وهذا الاسم من بقايا التاريخ القديم إذ كان المصريون القدماء يسمون بلدانا كثيرة باسم الإله أوزريس . وبوصير هذا مشتق من الاسم المصرى القديم بروسرأى «مكان الإله أوزير» (سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية . ص ١٨٧) . وكان هناك زمن مقتل مروان أربع قرى بمصر باسم بوصير ، فكان هناك بوصير قوريدس من أعمال الأشمونين وبوصير السدر فى كورة الجيزة ، وبوصير دفدنو فى كورة الفيوم ، وبوصير بنا فى كورة سمنود (ياقوت معجم البلدان جـ ١ ص ٧٦٠) وقد اختلف المؤرخون فى المكان الذى قتل فيه مروان . فيذكر الكندى أنه قتل فى بوصير من كورة الأشمونين (ص ٩٦) ويذكر ابن العميد فى كتابه تاريخ المسلمين ص ٩٦ أنه قتل فى بوصير قوريدس . ويذكر المقريزى فى الخطط جـ ١ ص ٣٠٤ أبو المحاسن . جـ ١ ص ٣١٧ أنه قتل ببوصير بالجيزة . ويرى الأستاذ فييت أن مروان قتل فى أبى صير الملق الحالية التى تقع الآن فى مركز الواسطى فى مديرية بنى سويف وذلك لأنه يوجد هناك ضريح صغير باسم مروان يعمل له كل عام احتفال سنوى . كذلك نعلم أن مروان حمل معه ثروته إلى مصر . وقد اكتشف أخيرا فى أبى صير الملق إبريق فخم من الطراز الساسانى يرجح أنه كان ملكا له (انظر : زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية ص ٢٧٠) . والأصح أنها كانت بوصير التى فى أعمال الجيزة . وبوصير الملق الحالية قريبة من الجيزة وربما كانت ضمن كورة الجيزة فى العهد العربى . وساويرس يذكر أن الخراسانيين عبروا فى آخر يوم من ابيب أى بعد وصولهم إلى الفسطاط بعشرة أيام ويذكر أنهم عندما عبروا إلى الجيزة قتلوا مروان (ص ١٨٣ ، ١٨٧) وإذا قارنا ذلك بما ورد فى المصادر العربية بأن مروان قتل بعد وصول الجيش العباسى إلى الفسطاط بنحو تسعة أيام . نرجح أن قتله كان قريبا من الجيزة ونرجح أن أباصير هى أبو صير الملق الحالية لقربها من الجيزة .

(٢) الكندى ص ٩٦ — ٩٧ ، أبو المحاسن جـ ١ ص ٣١٧

الآخر ، ثم دخل صالح بن على العباسى القسطاط فى المحرم سنة ١٣٣هـ وبعث برأس مروان بن محمد إلى العراق[١] . ولم ينس العباسيون أن يكافئوا القبط الذين رحبوا بهم ، نخففوا عنهم الخراج وأخلوا سبيل أنبا ميخائيل الذى حبسه مروان ، ولما طلب البطرك من قائد العباسيين فى مصر أن يحمى أملاك الـكنيسة فى جميع البلاد ولا يتعرض لها ، أجابه إلى ما أراد . كذلك أعفى العباسيون البشامرة من دفع الخراج ومنحوهم مكافآت مالية[٢] .

وهكذا زالت الدولة الأموية نهائيا بعد انتصار العباسيين على مروان ابن محمد فى مصر ، وأصبحت مصر منذ أواخر سنة ١٣٢هـ وأوائل سنة ١٣٣هـ ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق .

الحركات السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية الى قيام الدولة الطولونية (١٣٢ — ٢٥٤ هـ)

ا — موقف الأمويين والعلويين فى مصر من الخلافة العباسية

لم يكن زوال الخلافة الأموية ومقتل مروان معناه انتهاء المقاومة الأموية نهائيا ، فقد ظهر من وقت لآخر بعض أنصار البيت الأموى أو أفراده ؛ قاموا ضد الخلافة العباسية ولم يتهاون العباسيون فى القضاء على المعارضين لهم حتى لو كان هؤلاء ممن ناصروهم من قبل .

ونلاحظ أيضا أن قيام الدولة العباسية لم يكن معناه انتهـاء مطالبة العلويين بالخلافة وتركهم مناوأة الحـكومة القائمة ، فقـد كان العباسيون

(١) الـكندى ص ٩٠٧ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣١٧
(٢) ساويرس ص ١٨٧ — ١٨٨

فى نظر العلويين وشيعتهم مغتصبين للخلافة كما كان الأمويون من قبلهم . لذا نجـد أنه كلما قام خليفة عباسى ، قام علوى يدعو إلى نفسه بالخلافة . وقد استعمل العباسيون كل الوسائل من قتل وغـدر للقضاء على المعارضة العلوية ، ولا يكاد تاريخ أى خليفة يخلو من وقائعه مع العلويين ، وظلت فرق الشيعة من جانبها تكيد للدولة العباسية فى الخفـاء أو تحاربها جهرا إن أمكن الجهر . والذى يهمنا الآن هو موقف الأمويين والعلويين بمصر من الخلافة العباسية وموقف الخلفاء العباسيين منهم .

فى عهد الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ — ١٦٩هـ) وفى ولاية إبراهيم ابن صالح على مصر من قبل ذلك الخليفة (١٦٥ — ١٦٧هـ) نسمع عن خروج أحد الأمويين وأنه دعا إلى نفسه بالخلافة ، ذلك الأموى هو دحية ابن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى خرج بالصعيد ، فلما بلغ ذلك والى مصر تراخى عنه ولم يحفل بأمره ولم يهتم بمحاربته للقضاء عليه وكان نتيجة سياسة هذا الوالى المتراخية أن استفحل أمر دحية وملك أغلب بلاد الصعيد وكاد أمره أن يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين . فلمـا علم الخليفة المهدى بذلك سخط على الوالى وعزله سنة ١٦٧هـ[١] .

ولى مصر بعـد ذلك موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمى (١٦٧ — ١٦٨هـ) فأرسل جيشا مكونا من خمسة آلاف محارب بقيادة عبد الرحمن بن موسى بن علىّ بن رباح اللخمى ، إلى الصعيد لمحاربة دحية . وما لبث هـذا الوالى أن قتل فى ٧ شوال سنة ١٦٨هـ أثناء محاربته قيسا واليمنية الذين ثاروا ضـده فى الحوف[٢] . وولى مصر بعد مقتله عسامة بن عمرو وافتتح أمرته

(١) الكندى ص ١٢٤ ، أبو المحاسن جـ ٢ ص ٤٩

(٢) الكندى ص ١٢٦ ، أبو المحاسن جـ ٢ ص ٥٤ — ٥٥

بحرب دحية الأموى بالصعيد ، وأرسل إليه الجيوش بقيادة أخيه بكار بن عمرو فحارب يوسف بن نصير الذى كان على مقدمة جيش دحية ، وقد عاد الجيشان دون أن يحدث بينهما ما يستحق الذكر[١] . وبعد ذلك بأيام يسيرة ورد الخبر بعزله عن ولاية مصر وتولية الفضل بن صالح بن على العباسى عليها فى آخر المحرم سنة ١٦٩هـ[٢] . وكان أمامه قبل كل شىء أن يقضى على دحية الذى تفاقم خطره وبايعه كثير من الناس حتى كاتبه البعض ودعوه إلى دخول الفسطاط[٣] .

أتى الفضل إلى مصر ومعه جيوش من الشام استخدمها فى قتال دحية فى بويط[٤] ، وقد تقهقر أصحاب دحية أمامه وتوجه بعدها دحية على رأس حامية من جنده إلى الواحات فبعث إلى أهلها — وكانوا من المسالمة[٥] والبربر الذين يدينون بمذهب الخوارج — يدعوهم إلى القيام معه فأبوا أن يقاتلوا معه حتى يتبين إذا كان يدين بمذهبهم فأجابهم بأنه على مذهبهم فخرجوا اليه وقاتلوا معه يوم الدير . وقد أرسل إليه الفضل بن صالح جيشا كبيرا بقيادة عبد الله بن على فخرج إليه دحية فى أهل الواحات فهزم عبد الله بن على وقتل يومئذ عبد العزيز بن مروان بن الأصبغ ، على أن أهل الواحات مالبثوا أن تخلوا عن دحية لإيثاره العرب على الموالى وتقديمهم على البربر ، كما أنه لم يرض بأن يتبرأ من عثمان فتبين لهم أنه على غير مذهب الخوارج فتركوه

(١) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٥٧

(٢) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٦٠

(٣) الكندى ص ١٢٩

(٤) بويط بالضم ثم الفتح قرية فى مصر الوسطى قريبة من ديروط

(٥) المسالمة لفظ كان يطلق على القبط (خطط المقريزى جـ ١ ص ٥٠) أو من يسلم حديثا من القبط أو اليهود (خطط جـ ١ ص ١١٠)

وانصرفوا عنه ، فلما علم عبد الله بن على بانصرافهم عنه أتى ثانيــة لمحاربة دحية فقتل يومئذ مروان بن عبــد الملك بن أبى بكر بن عبــد العزيز بن مروان[١] . وقد انتهى الأمر بأسر دحية وأتى به إلى الفسطاط فضرب الفضل عنقه وصلب جثته وبعث برأسه إلى الهادى وكان قتله فى جمــادى الآخرة سنة ١٦٩هـ[٢] . وكان القضاء على دحية الأموى معناه انتهاء أول المحاولات وآخرها من جانب الأمويين فى مصر لاسترداد الخلافة . على أنهم بعد ذلك كانوا أحيانا ينضمون إلى الثائرين على الخلافة العباسية من العلويين وذلك رغبة فى الــكيد للدولة العباسية .

وقد ظهرت الدعوة العلوية فى مصر منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨هـ) ففى أمارة حميد بن قحطبة (١٤٣ — ١٤٤هـ) قدم إلى مصر على بن محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب داعية لأبيه وعمه[٣] . وقد كان أبوه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على المعروف بالنفس الزكية قد دعا إلى نفسه سرا فى خلافة المنصور وتلقب بأمير المؤمنين ، وفى سنة ١٤٥هـ ظهر بعد أن اختفى زمنا كان أشياعه يقيمون له الدعوة حتى كثر أنصاره فى خراسان واعترف الناس بإمامته فى مكة والمدينة ، ومن ثم أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته . على أن محمدا كان مصيره القتل على يد عيسى بن موسى ، فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه وقام لنصرته كثيرون من فقهاء البصرة وذوى الرأى والجاه . ولــكن إبراهيم لقى حتفه

---

(١) البــكندى ص ١٢٩ — ١٣٠

(٢) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٦٠ — ٦١

(٣) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٨

كأخيه على يد عيسى بن موسى العباسى أيضا فى موقعة باخمرا[١] وذلك فى أول ذى الحجة سنة ١٤٥هـ .

أما ما كان من أمر هذه الدعوة فى مصر فهو أنه لما قدم على بن محمد إليها يدعو لأبيه وعمه توانى حميد بن قحطبة فى الأمر ولم يجد فى القبض عليه ، وبعث إلى أبى جعفر المنصور يقول إنه أرسل فى طلبه فلم يجده . وكان ذلك سببا فى سخط أبى جعفر المنصور على الوالى وعزله فى ذى القعدة سنة ١٤٤هـ . ولى مصر بعد ذلك يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة (١٤٤ — ١٥٢ هـ) وفى بدء ولايته كانت دعوة بنى الحسن بن على قد ظهرت فى هذه البلاد وبايع كثير من الناس لعلى بن محمد ، وكان على هذا أول علوى قدم مصر . وكاد أمر بنى الحسن أن يتم فى مصر حتى قدمت الخطباء إليها برأس ابراهيم بن عبد الله بن الحسن فى ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ فنصبوه فى المسجد الجامع أياما[٢] . فخمدت تلك الحركة كما خمدت فى الحجاز والبصرة بمقتل زعمائها سنة ١٦٠ هـ . وأما على بن محمد النفس الزكية فقد اختلف فى أمره فزعم بعضهم أنه حمل إلى أبى جعفر المنصور وقيل إنه اختفى بمصر عند عسامة ابن عمرو حتى مرض ومات . وقد حمل عسامة إلى العراق وحبس زمانا حتى آلت الخلافة إلى المهدى فأمنه على أن يصدقه عن على بن محمد فاعترف بأنه مات فى بيته[٣] وهكذا انتهت تلك الحركة فى مصر وقد كان يزيد بن حاتم

(١) باخمرا : موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب (ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٤٥٨)

(٢) الكندى ص ١١١ — ١١٤ ، خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٨ ، أبو المحاسن جـ ٢ ص ١ — ٢

(٣) الكندى ص ١١٥

قد منع أهلها من الحج بسبب خروج هؤلاء العلويين فلما قتل ابراهيم ابن عبد الله العلوى أذن لهم فى الحج[١]

ويجدر بنا أن نشير إلى أن بعض أفراد البيت الأموى الذين بقوا فى مصر كانوا ممن بايع لعلى بن محمد ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزيد، أبناء الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان .

وحدث بعد ذلك أن آوت مصر أحد العلويين الذى استطاع بعد خروجه منها أن يقتطع لنفسه جزءا من بلاد الدولة العباسية ويكون لنفسه دولة مستقلة ، ذلك العلوى هو ادريس بن عبد الله أخو محمد الملقب بالنفس الزكية . ففى عهد الخليفة الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) خرج الحسين بن على بن الحسن ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة يدعو إلى نفسه ومنها سار إلى مكة حيث التقى بجيش العباسيين فى فخ[٢] فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ . وكان ممن ناصر الحسين بن على فى حركته هذه يحيى وادريس ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وقد هربا قبل هذه الموقعة . أما يحيى فقد ثار فى بلاد الديلم فى عهد هرون الرشيد وانتصر له أهل اليمن وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد فأنفذ إليه الفضل البرمكى ، فما زال به حتى رضى بالصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بيده ، ولكنه قتله ومداد الأمان لم يجف بعد .

أما إدريس بن عبد الله فقد توجه إلى بلاد المغرب الأقصى وبايعه البربر فى سنة ١٧٢ هـ ، وكون هناك أول دولة للعلويين وهى دولة الأدارسة .

---

(١) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٢

(٢) فخ بفتح أوله وتشديد ثانيه ... وهو واد بمكة (ياقوت معجم البلدان . جـ ٣ ص ٨٥٤)

مر إدريس بن عبد الله على مصر فى طريقه إلى المغرب فى ولاية على ابن سليمان بن على بن عبد الله العباسى (سنة ١٦٩ هـ — ١٧١ هـ) زمن هرون الرشيد . ويقال إنه لما قدم إلى مصر علم واليها بمكانه وقابله سرا ولم يفضح أمره حتى توجه إلى المغرب[١] . ويقول أبو المحاسن[٢] بأن واضح ابن عبد الله المنصورى الذى كان واليا على مصر زمن المهدى سنة ١٦٢ هـ ، كان على بريد مصر عند ما قدم إدريس إليها ، وكان يميل إلى العلويين فحمل إدريس على البريد إلى المغرب . أى أن مصر سهلت الطريق لإدريس بن عبد الله وساعدته فى خروجه على الدولة العباسية . ولو قبض عليه واليها إذ ذاك أو أخبر عامل البريد بوجوده فى مصر لما قامت تلك الدولة العلوية فى المغرب بالرغم من أنف هرون الرشيد .

ويظهر أن تعقب العباسيين للعلويين واضطهادهم إياهم قد ألجأهم إلى الفرار إلى الجهات البعيدة عن مقر الخلافة العباسية ولاسيما ما كان منها مرتعا خصيبا للمعارضة كبلاد البربر[٣] ، والذى يهمنا أن كثيرا من آل البيت قد أتوا إلى مصر ليكونوا بعيدين عن الاضطهادات والمضايقات التى نالتهم على أيدى الخلفاء العباسيين . ولا تزال مصر حافلة بقبور آل البيت منذ ذلك العهد البعيد . وممن أتى إلى مصر فى ذلك العهد السيدة نفيسة رضى الله عنها بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وزوجة اسحاق ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، وقد أتت مع زوجها من المدينة إلى مصر هاربين من

---

(١) الكندى ص ١٣١
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٤٠
(٣) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٦٨

اضطهاد العباسيين ، وقيل إنها كانت فيمن صلى على الإمام الشافعي عند موته سنة ٢٠٤ هـ وتوفيت في شهر رمضان سنة ٢٠٨هـ [١] وقبرها لا يزال من المقابر المشهورة بالقاهرة ، يتبرك المسلمون بزيارتها ونعرف أن في دار الآثار العربية بالقاهرة قطعة خشبية عليها كتابة تاريخية من قبر السيدة نفيسة ونصها : «بسم الله الرحمن الرحيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . هذا مشهد السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن أمير المومنين الحسن بن أمير المؤمنين على بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين . توفيت السيدة نفيسة صلوات الله عليها في شهر رمضان المعظم سنة ثمان ومائتين [٢]» .

ولم نسمع بأن أحداً تعرض للعلويين في مصر بسوء طوال ذلك العهد إلى أن كان زمن الخليفة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ هـ — ٢٤٧ هـ) ، وكان يبغض العلويين ، فأرسل كتابا هو وابنه المنتصر — صاحب اقطاع مصر حينذاك — إلى والى مصر اسحاق بن يحيى (٢٣٥ — ٢٣٦ هـ) يأمره بإخراج آل على بن أبي طالب من مصر فأخرجوا من الفسطاط في رجب سنة ٢٣٦ هـ إلى العراق وهناك أمروا بالخروج إلى المدينة في شوال من سنة ٢٣٦هـ [٣] ويذكر المقريزى [٤] أن الذين بقوا في مصر من العلويين اضطروا إلى الاختفاء .

أصبح العلويون والشيعة في مصر غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد المتوكل . وقد عمل الوالى يزيد بن عبد الله على استئصال

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٤٤٠ — ٤٤١

(Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe. t. 1. p. 128). (٢)

(٣) الكندى ص ١٩٨ ، خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٩ ، أبو المحاسن جـ ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٥

(٤) خطط جـ ٢ ٣٣٩

شأفتهم فعاقبهم وأبادهم وحمل منهم جماعة إلى العراق على أقبح وجه[١] .

ولما قتل المتوكل فى شوال سنة ٢٤٧ هـ وبويع ابنه المنتصر بالخلافة أرسل إلى يزيد بن عبد الله يقره على ولايته بمصر[٢] ثم ورد كتابه إلى يزيد بألا يُقَبَّل[٣] علوى ضيعة ، ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة[٤] .

توفى الخليفة المنتصر فى شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ وبويع المستعين بالله فى شهر ربيع الآخر . وفى خلافته علم يزيد بن عبد الله بأن رجلا يقال له محمد بن على بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بويع له ، فأخذه فاعترف بذلك كما اعترف بمن بايعه ، فأخذ بعضهم فضربوا بالسياط ثم أخرج العلوى فى جمع من آل أبى طالب إلى العراق فى شهر رمضان سنة ٢٤٨ هـ[٥] .

خلع المستعين من الخلافة فى المحرم سنة ٢٥٢ هـ وبويع المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) . فاضطربت الأمور فى مصر لاضطراب أمر الخلافة[٦] بسبب تحكم الأتراك فى شئون الدولة . والأتراك كما نعلم كانوا فى البداية من الرقيق الذين اتخذهم الخلفاء العباسيون جنوداً ، ثم كثر عددهم وقوى نفوذهم منذ

---

(١) الكندى ص ٢٠٣ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٩ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٩

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٣

(٣) قَبَل وقَبِل قَبَالة . ضمن والتزم ، قَبَّل المزارع الأرض . جعله يلتزمها بعقد . وقد تحدثنا عن قبالة الأراضى سابقا

(٤) الكندى ص ٢٠٤ ، المقريزى ج ٢ ص ٣٣٩

(٥) الكندى ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٦) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٤

أيام الخليفة المعتصم الذى أكثر من شرائهم ، إذ رأى فيهم قوماً أشداء يميلون إلى الحرب ، وليس لهم وطن أو مجد قديم يعملون على إحيائه وليست لهم عصبية العرب ، وإذا خصهم أحد بمنحه وعطاياه فلا يعرفون رئيساً إلا هو ، وقد بلغ من قوة نفوذهم فى عهد المعتصم نفسه أن اضطر إلى مغادرة بغداد حاضرة الخلافة العباسية وبناء حاضرة جديدة له ولجنده الأتراك هى سامرا (٢٢١ هـ) ليكون بعيداً عن الجند العربى والفارسى ببغداد ، ثم لتخوفه من أن يصطدم الأهالى بالأتراك[١]. على أن هؤلاء ما لبثوا أن تدخلوا على مر الزمن فى معامع السياسة ، وصاروا يولون ويعزلون من شاؤا من الخلفاء ، وأصبح بيدهم القوة المدنية والحربية فى الدولة .

وكان هذا إيذانا باضطراب الأحوال فى الأقاليم المختلفة فى الدولة الإسلامية كما كان فرصة لذوى الأغراض المختلفة للقيام ضد الخلافة العباسية ومن بينهم العلويون . ففى خلافة المعتز ثار فى الإسكندرية جابر بن الوليد المدلجى فى ربيع الآخر سنة ٢٥٢ هـ ، واشتد أمره وقويت شوكته وبسط سلطانه على بلاد كثيرة من الوجه البحرى وجبى منها الخراج ، ولم يستطع يزيد ابن عبد الله والى مصر إذ ذاك أن يقمع حركته ، فأرسل إليه الخليفة نجدة بقيادة مزاحم بن خاقان الذى قدم من العراق فى عسكر عظيم ، (رجب سنة ٢٥٢ هـ) وقد استطاعت جيوش الخليفة أن تهزم جابراً وتظفر به فى النهاية ، ولما كتبوا إلى الخليفة بذلك ورد عليهم الجواب بصرف يزيد بن عبد الله

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٥٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٦ ١٧ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٣١٩ ، الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٢٤ — ٢٥

عن إمرة مصر وتولية مزاحم بن خاقان بدلا منه (ربيع الأول سنـ
والذى يهمنا فى حركة جابر بن الوليد ما كان من انضمام أحـ
تلك الحركة ، وهو عبد الله بن أحمد بن محمـد بن اسماعيل بن
ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان يقال له ابن
هزمت جيوش جابر بن الوليد بعد قدوم مزاحم بن خاقان ، أخـ
وأخرج إلى العراق فى ربيع الأول سنة ٢٥٣ هـ . وفى ولا
على مصر (ربيع الآخر — رمضان سنة ٢٥٤ هـ) خرج
بالصعيد وهو احمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسما
ابن الحسن بن الحسين بن على وكان يعرف باسم بغا الأ
أصحاب أزجور ففر ثم مات .

كذلك خرج من العلويين بغا الأصغر واسمـه احمد بن
ابن طباطبا فيما بين الإسكندرية وبرقة فى موضع يقال له الـ
فى شهر جمادى الأولى سـنة ٢٥٥ هـ ثم سار فى جمع إلى الـ
على يد احمد بن طولون وقتل فى الحرب وأتى برأسه إلى الفـ
سنة ٢٥٥ هـ[3] . كذلك ثار بصعيد مصر سنة ٢٥٣ هـ أحد ا
ابن الصوفى العلوى ، ودخل إسنا فى سنة ٢٥٥ هـ فنهبها و
إليه احمـد بن طولون جيشاً لقتاله ، وانتهى أمر ذلك العلوى
المدينة المنورة حيث قضى فيها بقية أيامه[4] .

---

(١) الكندى ص ٢٠٥ — ٢١٠ ، خطط المقريزى
أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٤

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٩

(٣) الكندى ص ٢١٢ ، المقريزى ج ٢ ص ٣٣٩

(٤) الكندى ص ٢١٣ — ٢١٤ و m : Les Tulunides.

ومن ذلك نرى كيف تتابعت حركات العلويين فى مصر منذ عهد الخليفة المتوكل العباسى . فكأن اضطهاده لهم وتضييقه عليهم هو ومن أتى بعده من الخلفاء لم يمنعهم من الخروج علانية بعد أن كانوا يكيدون للخلافة العباسية سرا ، علهم ينالون حظا من السلطان ويتخلصون من الخلافة العباسية واضطهادها . كما شجعهم على الخروج فى تلك الفترة أيضاً ضعف الخلافة العباسية نفسها وسوء حالة الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة فى يد الأتراك .

ب — أثر النزاع بين الأمين والمأمون فى مصر

قام النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون بسبب نظام ولاية العهد فقد كان الخليفة هارون الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لابنه الأمين ثم المأمون ، على أن يلى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ويلى المأمون من همذان إلى المشرق على ألا يكون للأمين سلطان عليه[١] .

لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة عدم رغبته فى تنفيذ عهد الرشيد[٢] ، فخلع المأمون من ولاية العهد وبايع لابنه موسى ، وقامت الحروب لهذا بين الأمين والمأمون منذ سنة ١٩٥ هـ وانتهت بحصار جيش المأمون بغداد وقتل الأمين فى سنة ١٩٨[٣] وبذلك انتهت خلافة محمد الأمين وآلت الخلافة لعبد الله المأمون ولم ينتقل المأمون بعد توليه الخلافة إلى بغداد بل ظل فى مبدأ الأمر فى مرو عاصمة خراسان .

كانت خلافة الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) ، أو بعبارة أخرى فترة

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ٥٣ ، ٦٩ — ٧٠ و ٧٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٨١ ، ١٠٥ — ١٠٦ ، ١٠٩ — ١١٠

(٢) الطبرى جـ ١٠ ص ١٢٤

(٣) الطبرى جـ ١٠ ص ١٣٠ ، ١٣٨ — ١٣٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ — ١٧٥ ، ١٩٥

النزاع بين الأمين والمأمون ، عهد فوضى واضطراب فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ولم تنته تلك الفوضى باعتلاء المأمون عرش الخلافة فى سنة ١٩٨ هـ ، بل ظلت آثارها عدة سنين وحدثت ثورات مختلفة فى أنحاء الدولة ، ثورات من جانب العلويين ، وأخرى من جانب الأمويين الذين استغلوا ذلك النزاع حول الخلافة لينالوا هم أيضا حظا من السلطان .

وقد شملت هذه الفوضى مصر أيضا ، فتحزب فريق للأمين وتحزب فريق آخر للمأمون ، كما ظهرت فى تلك الأثناء رغبة بعض الشخصيات فى الاستقلال بمصر عن الخلافة ونجحوا فى ذلك إلى حد ما ، واستطاع بعض الأندلسيين فى تلك الفترة أن يؤسسوا لهم شبه جمهورية مستقلة عن الخلافة بالأسكندرية ، فكانت مصر فى تلك الفترة يكاد لا يربطها شىء بالحكومة المركزية الإسلامية .

لما ولى الأمين الخلافة كان على ولاية مصر الحسن بن التختاخ[1] وقد بدأ اضطراب الجند فى مصر عقب وفاة الرشيد مباشرة ونشب القتال بين الحسن هذا وبين الثائرين عليه ، وقتل من الفريقين جمع غفير قبل أن يسكن الأمر ، ثم أخذ بعد ذلك فى جمع الخراج ، وكتب إليه الفضل بن الربيع بأن يرسل الأموال إلى بغداد ، ولما مر الرسل الذين كانوا يحملونها بفلسطين وثب أهل الرملة عليهم وأخذوها منهم[2] . وحسبنا مثل هذا الحادث دليلاً على الفوضى التى حلت إذ ذاك بالبلاد . وما لبث الخليفة الأمين أن عزل ابن التختاخ عن إمرة مصر (ربيع الأول سنة ١٩٤ هـ) وولى عليها حاتم ابن هرثمة بن أعين ، الذى قدم من بغداد على رأس جيش قوامه ألف من

---

(١) فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٢ ص ١٤١ أن اسمه الحسن بن البحباح

(٢) الكندى ص ١٤٦ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٤١

الجنود الفرس ؛ ونزل ببلبيس . وهناك اتفق معه أهل الحوف على أن يدفعوا ما عليهم من الخراج ؛ ولـكنهم ما لبثوا أن نقضوا ذلك الصلح واجتمعوا لقتال الوالى ، فبعث حاتم لمحاربتهم جيشا أفلح فى هزيمتهم[١] . ثم عزل الأمين حاتم بن هرثمة فى جمادى الآخرة سنة ١٩٥ هـ . ولعل سبب ذلك أن والده هرثمة بن أعين انضم للمأمون ضد الأمين . وولى الأمين على مصر جابر ابن الأشعث الطائى . وكان جابر هذا لينا محببا إلى الناس من العامة والخاصة .

وقد ظهر الاضطراب فى مصر عندما علم أهلها بخلع الأمين أخاه المأمون من ولاية العهد . ففـكر فريق من الجند فى خلع الأمين غضبا للمأمون وتزعم هذه الحركة السرى بن الحـكم بن يوسف فبعث إليهم والى مصر لينهاهم عما قاموا من أجله ويخوفهم عواقب الفتن . ولـكن السرى بن الحـكم ظل يدعو الناس إلى خلع الأمين[٢] . وقد أتى السرى إلى مصر زمن الرشـيد إذ كان من جند الليث بن الفضل والى مصر حينئذ (١٨٢ — ١٨٧ هـ) . ويقال إنه كان خامل الذكر ولم يرتفع شأنه إلا بقيامه فى خلع الأمـين[٣] ، وقد شجع السرى بن الحـكم على القيام بحركته هـذه ما بلغه من انتصار طاهر بن الحسين على جيوش الأمين[٤] .

ولم يهمل الخليفة المأمون من جانبه أمر مصر فـكتب إلى وجوه القوم فيهـا يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه كلهـم سرا ، ثم ورد كتاب قائده هرثمة بن أعين إلى عباد بن محمد بن حيان وكان وكيلا على

---

(١) الـكندى ص ١٤٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٤٤ .
(٢) الـكندى ص ١٤٧ — ١٤٨ .
(٣) الـكندى ص ١٤٨ .
(٤) أبو المحاسن ج ٢ ص ١٥٠ .

ضياع هرثمة بمصر — يدعوه إلى الدعوة للمأمون ، فجمع الجند فى المسجد وقرأ عليهم كتاب هرثمة ودعاهم إلى خلع الأمين فأجابه نفر عظيم منهم فأعطاهم عباد رزقاً يسيراً وبايعوا للمأمون . وكان خلع الأمين بمصر فى جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ . وثار الجند على الوالى جابر بن الأشعث فأخرجوه من مصر فى رجب من هذه السنة ثم ولى هذه البلاد عباد بن محمد من قبل المأمون[١] .

ولما علم الأمين بخلعه فى مصر وإخراج واليه جابر بن الأشعث كتب إلى ربيعة بن قيس — وكان زعيم قبيلة قيس بالحوف — يبلغه اختياره إياه والياً على مصر وكتب إلى بعض وجوه القوم فى مصر يطلب إليهم أن يشدوا أزر ربيعة بن قيس ، فقام هؤلاء يدعون إلى خلع المأمون وساروا إلى الفسطاط لمحاربة عباد ، إلا أن عباد سرعان ماحفر خندقا حول الفسطاط للدفاع منها فسار ربيعة بن قيس إلى الخندق فى آخر ربيع الآخر سنة ١٩٧هـ ووقعت الحرب بين الطرفين عند الخندق عدة أشهر دون أن ينتصر أحدهما ، فرأى عباد أن يحاربهم فى الحوف فأرسل إليهم جيشاً بقيادة عبد العزيز ابن الوزير الجروى فى ذى القعدة سنة ١٩٧ هـ فانهزم الجروى ومضى فى قومه من لخم وجذام إلى فاقوس[٢] . وهناك حرضه قومه على أن يدعو لنفسه وقالوا له : « لم لا تدعو لنفسك فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض ؟ » . فصادف ذلك هوى فى نفس الجروى وذهب إلى بلبيس ومن هناك بعث عماله لجباية الخراج من مصر السفلى . وهكذا نرى أن النزاع فى مصر لأجل الأمين أو المأمون بدأ يتطور إلى نزاع للاستئثار بالسلطة دون الخلافة .

---

(١) الكندى ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) الكندى ص ١٤٩ — ١٥١ .

وكانت آخر مرة سار فيها أهل الحوف إلى الفسطاط لمحاربة عباد فى المحرم سنة ١٩٨ هـ ، فعقد عباد للسرى بن الحكم لمحاربتهم فاقتتل الفريقان ، وفى تلك الأثناء وصل إلى مصر خبر مقتل الأمين فى المحرم وبيعة المأمون فتفرق أهل الحوف ، ثم عزل المأمون عبادا فى صفر سنة ١٩٨ وولى المطلب ابن عبد الله الخزاعى[١] .

ساد الاضطراب فى مصر كما رأينا زمن الخليفة الأمين ولم ينته ذلك الاضطراب بمقتله وتولية أخيه المأمون الخلافة ، بل تطور الأمر فى هذه البلاد إلى نزاع بين بعض القواد للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة ، فكان على المأمون أن يبذل جهداً خاصاً لإعادة مصر إلى سلطانه والقضاء على الفتن فيها .

ومما يدل على اضطراب الحالة فى مصر حينئذ أن أعمال الشرطة فيها وليها خمسة رجال على التوالى فى بضعة أسابيع[٢] . وقد عزل المأمون المطلب ابن عبدالله عن ولاية مصر فى شوال سنة ١٩٨ هـ بعد أن وليها سبعة أشهر ونصف ، وولى مكانه العباس بن موسى ، وقد أرسل العباس ابنه عبد الله إلى مصر خليفة له ريثما يحضر هو ، فقدم عبد الله إلى مصر فى شوال من هذه السنة ، وكان أول ما فعله هو القبض على المطلب بن عبد الله وزجه فى السجن . وقد اشتد عبد الله فثار الجند عليه وقاتلوه غير مرة ، حتى هزموه فى النهاية وأخرجوه من مصر ، ثم قصدوا المطلب بن عبد الله حيث أخرجوه من حبسه وولوه عليهم فى المحرم سنة ١٩٩ هـ[٣] .

---

(١) الكندى ص ١٥١ — ١٥٢ .
(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ١٥٧ .
(٣) الكندى ص ١٥٣ — ١٥٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ١٦١ — ١٦٢

حدث كل ذلك ووالى مصر نفسه العباس بن موسى لم يحضر إليها فلما علم بما حــدث لابنه عبد الله قدم من مكة إلى الحوف فنزل بلبيس ولم يلبث إلا قليلا حتى توفى وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٩٩ . ومن هذا نرى أن الوالى الذى عينه الخليفة ، لم يستطع دخول الحاضرة كما لم يستطع الوقوف وجها لوجه أمام الوالى الذى انتخبه الجند ، ومن هــذا ندرك أيضا كيف تلاشت سلطة الخليفة على ولاية مصر تقريباً .

بعد موت العباس ، كاتب المطلب أهل الحوف فبايعوه ، فولى على الوجه البحرى يزيد بن خطاب الكلبى ، وبعد ذلك بعث المطلب إلى الجروى بولايته على تنيس وأمره بالشخوص إلى الفسطاط[1] ويظهر أن المطلب أراد بذلك أن يخدع الجروى ويوقع به لأنه عرف رغبته فى الاستقلال وطمعه فى ولاية مصر ، فالمسألة لم تعد تتصل بالحـكومة المركزية فى بغداد ، وإنما أصبحت مصر وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب ، فالوالى الذى عينه الجند يرى أن طاعته واجبة على أهل مصر ، والجروى لا يرى نفسه أقل من الوالى كفاية . وبعد قليل نرى السرى أيضاً ينضم إلى زمرة الطامعين فى مصر ويحاول أن يؤسس له ملـكا وراثياً فيها ، كل هــذا يحدث والخليفة المأمون مشغول بالقضاء على الثورات المختلفة التى قامت فى أنحاء الدولة الإسلامية .

لم يذهب الجروى إلى الفسطاط كما أمره المطلب ، وإزاء هــذا بعث المطلب بوالٍ على تنيس ولـكن الجروى أخرجه منهــا ، فبعث إليه السرى ابن الحـكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم إليــه ، إلا أنه أراد الغدر بهم ففطنوا إلى ذلك وحاربوه ، ثم عاد فدعاهم إلى الصلح واستطاع أن يقبض على السرى خدعة ويأسره ثم مضى به إلى تنيس حيث سـجنه بها

(١) الـكندى ص ١٥٦ .

(جمادى الأولى سنة ١٩٩ هـ) ويظهر أن بلاداً عدة فى شرق الدلتا دخلت فى حوزة الجروى إذ ذاك وزادت قوته نتيجة لذلك بدليل تحديه قوة الوالى . فبعد أن سجن السرى بن الحكم ، ذهب لمقاتلة يزيد بن الخطاب ، عامل المطلب على الوجه البحرى ، واستطاع الجروى أن يهزمه فأرسل إليه المطلب جيشا لمحاربته بقيادة ابن عبد النفار الجمحى ولكن الجروى هزم ذلك الجيش وأسر ابن عبد النفار وذلك فى أول رجب سنة ١٩٩ هـ[١] .

عزم المطلب إزاء هذا على أن يوجه كل قوته للقضاء على الجروى فلما علم الجروى بذلك أخرج السرى من سجنه وعاهده على أن يطلق سراحه ويذكر للمصريين أن كتاباً ورد من الخلافة بولايته على مصر ، على شرط أن يقوم السرى بمحاربة المطلب ، فعاهده السرى على ذلك . وعند ذلك أطلقه الجروى وأعلن ولايته إلى الجند ، فبايعه الجند من أهل خراسان وامتنع الجند العرب وقد وقعت حروب بين السرى وبين المطلب انتهت بأن طلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ويخرج من مصر . فأمنه السرى وخرج المطلب إلى مكة فى رمضان سنة ٢٠٠ وعقب ذلك ولى السرى بن الحكم مصر بإجماع الجند فى مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠ هـ[٢] . وقد أدرك المعاصرون من المصريين والوطنيين أن الذين ولوا مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة ، فيذكر ساويرس[٣] نقلا عن الوثائق المعاصرة أن الثوار استطالوا على مصر لاضطراب الأمور فى بغداد وقام الخارجون بجباية الضرائب لأنفسهم . ومن بين هؤلاء الخارجين عبد العزيز الجروى الذى استولى على شرق الدلتا من شطنوف إلى الفرما ،

(١) الكندى ص ١٥٧ .
(٢) الكندى ص ١٥٩ — ١٦١ .
(٣) سير الآباء البطاركة ص ٤٢٨ (L.X) .

والسرى بن الحكم الذى استولى على الوجه القبلى من مصر إلى أسوان .
أما غربيه الدلتا بما فى ذلك الاسكندرية وأعمالها وصربوط والبحيرة جميعها
فقد ملكها قبيلتا لخم وجذام .

هكذا قسمت مصر بين الخارجين على الخلافة كما يذكر ساويرس ،
فالجروى كما رأينا سابقا كان صاحب السلطة الفعلية فى شرق الدلتا ، كما كان
صاحب الفضل فى تولية السرى بن الحكم على مصر ليتخلص بذلك من
المطلب بن عبدالله ، إلا أنه لكى يتخلص من المطلب ، أوجد له منافساً آخر
فى شخص السرى ، الذى سرعان ما طمع فى أن يكون صاحب السلطة
الفعلية فى مصر كلها ، فبعد أن كان الجروى والسرى يحاربان لأجل الخليفة
المأمون ، أصبح كل منهما يحارب الآخر ، وهذا أدى إلى النزاع بين
الجروى والسرى نزاعا متواصلا فى السنين التالية ، بل إن هذا النزاع استمر
بين أولادهما بعد وفاة الاثنين .

أما منطقة غربى الدلتا ، ونعنى منطقة الاسكندرية بوجه خاص ، فقد
خرجت عن سلطة والى مصر منذ ولاية عباد بن محمد بن حيان (١٩٦ —
١٩٨ هـ) إذ تغلب بهلول اللخمى على الاسكندرية فى ولايته . فلما ولى
المطلب بن عبد الله مصر من قبل المأمون سنة ١٩٨ هـ ولى على الاسكندرية ،
حديج بن عبدالواحد بن محمد بن عبدالرحمن بن معاوية بن حديج ، فثار ضده
بنو مدلج بالاسكندرية ، فبعث إليهم المطلب بأخيه هرون فانهزم
هرون أمامهم[1] .

ولما ولى المطلب بن عبد الله ولايته الثانية على مصر بإجماع الجند
(سنة ١٩٩ هـ — ٢٠٠ هـ) ولى على الاسكندرية محمد بن هبيرة

(١) الكندى ص ١٥٣ .

ابن هاشم بن حديج ، فاستخلف محمد هذا عمر بن عبد الملك بن محمد ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذى يعرف باسم عمر بن هلال[١] فوليها عمر بن هلال ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب وولى عليها أخاه الفضل ابن عبد الله[٢]

فى تلك الأثناء كانت مراكب الأندلسيين قد رست عند الاسكندرية . وكثيراً ما كان الأندلسيون يأتون إلى الاسكندرية فيتبادلون التجارة مع الناس ، ولكن ولاة مصر كانوا لا يسمحون لهم بالدخول فيها[٣] . أما فى هذه المرة فإن أهل الأندلس لم يأتوا للتجارة وإنما خرجوا من وطنهم مطرودين وذلك فى عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة الربض بقرطبة فى رمضان سنة ١٩٨ هـ[٤] . فرسا فريق منهم بالقرب من الاسكندرية وكان عددهم حوالى ١٥٫٠٠٠ شخص إذ استثنينا النساء والأطفال[٥] .

لما عزل عمر بن هلال ، كتب إليه عبد العزيز الجروى يأمره بالدعاء له فيها وبإخراج واليها من قبل المطلب فلم يجد عمر بن هلال بدأً من استدعاء هؤلاء القرطبيين ليساعدوه فى ذلك وسرعان ما لبوا طلبه واستطاع أن يخرج واليها — الفضل بن عبد الله — ويدعو للجروى بالاسكندرية . إلا أن أهل الاسكندرية ثاروا ضد الأندلسيين وأخرجوهم من الاسكندرية إلى

---

(١) يذكر الكندى أنه عرف باسم عمر بن هلال ويذكر المقريزى فى الخطط ١ ص ١٧٢ أنه عرف باسم عمر بن ملاك .

(٢) الكندى ص ١٥٧ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ١٧٢ .

(٣) الكندى ص ١٥٨ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٠٩ — ٢١٠ وأبو المحاسن جـ ٢ ص ١٥٨ . Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne. t. I. pp. 296-300

(٥) Dozy : op. cit. p. 300.

مراكبهم بعد أن قتلوا منهم نفراً ، وأقلعوا عليهم الفضل ثانياً[١] .

ثم عزل المطلب أخاه الفضل عن الاسكندرية وولى عليها إسحاق بن أبرهه ابن الصباح فسار إليه عمر بن هلال فى شهر رمضان سنة ١٩٩ هـ ، فعزله المطلب وولاها أبا بكر[٢] بن جنادة بن عيسى المعافرى[٣] . ولما انتصر السرى ابن الحكم على المطلب وولى مصر فى رمضان سنة ٢٠٠ هـ بإجماع الجند ، سار عمر بن هلال إلى أبى بكر بن جنادة وأخرجه من الاسكندرية ودعا للجروى بها ، وكان الجروى والسرى إذ ذاك متسالمين . فلما علم الأندلسيون بولاية ابن هلال على الاسكندرية قدموا إليه ، إلا أنه لم يعاملهم فى تلك المرة كما عاملهم أولا إذ بلغه عنهم بعض الفساد فأمر بإخراجهم من الاسكندرية إلى مراكبهم[٤] .

حقد الأندلسيون على ابن هلال ، وظهر فى الاسكندرية فى ذلك الوقت طائفة تعرف بالصوفية[٥] « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » فيما زعموا ، ويعارضون السلطان فى أمره واتخذوا رئيسا لهم رجلا منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى ، وقد اتحد الأندلسيون مع هولاء الصوفية كما تقووا بقبيلة لخم وكانت أقوى من فى ناحية الاسكندرية ، ثم ساروا إلى عمر بن هلال ليثأروا لأنفسهم منه فحاصروه وانتهى الأمر بقتله فى ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ[٦] .

وعقب مقتل ابن هلال انقلبت صداقة الأندلسيين واللخميين إلى عداوة

---

(١) الكندى ص ١٥٨ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ١٧٢ .

(٢) فى خطط المقريزى (جـ ١ ص ١٧٣) يقول إن اسمه أبو ذكر بن جنادة

(٣) الكندى ص ١٥٨ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ١٧٣ .

(٤) الكندى ص ١٦١ — ١٦٢ ، المقريزى جـ ١ ص ١٧٣ .

(٥) يذكر آدم متز فى كتابه الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ١٤ أن أول ظهور الطوائف الصوفية حوالى عام ٢٠٠ هـ وذلك فى مصر مهد الرهبنة المسيحية .

(٦) الكندى ص ١٦٢ ، المقريزى ص ١٧٣ .

ووقعت الحرب بينهم . ولما رأى أهل الاسكندرية ما حدث بين الفريقين جردوا سيوفهم وقتلوا من الأندلسيين نحو ثمانين نفسا ، فلما علم الأندلسيون بذلك بعد انتصارهم على اللخميين خرجوا لقتال كل من لا قوه من أهل الاسكندرية ، مسلمين كانوا أو نصارى أو يهود وأحرقوا كل موضع عثروا فيه على أحد من أصحابهم المقتولين[١] .

أصبح الاندلسيون أصحاب السلطة الفعلية فى الاسكندرية منذ انتصارهم على عمر بن هلال وتأكد سلطانهم عندما هزموا اللخميين وملكوا الإسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة ٢٠٠ هـ[٢] ، فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفى ، إلا أن الأحوال فى الاسكندرية اضطربت فى عهده وعم القتل والنهب فيها فعزله الاندلسيون عنها وولوا عليها رجلا منهم يعرف بالكنانى[٣] .

وهكذا نرى أن الاسكندرية أصبحت شبه جمهورية مستقلة للأندلسيين ، وأصبحت مصر بمثابة قطائع مقسمة بين أفراد أو جماعات مختلفة ، كل منها مستقلة عن الأخرى وهى كلها مستقلة عن الخلافة .

بلغ الجروى مقتل ابن هلال وما فعله الاندلسيون بالاسكندرية فسار إليها فى خمسين ألفا وحاصرها وكاد يفتحها فى المحرم سنة ٢٠١ هـ ولكن السرى خشى ازدياد نفوذ الجروى فبعث عمرو بن وهب الخزاعى على رأس جيش إلى مقره فى تنيس ، فترك الجروى حصار الاسكندرية ورجع إلى تنيس حيث أخرج جيش السرى منها . ومن ثم تطورت المنافسة الخفية بين الجروى والسرى إلى نزاع علنى بينهما .

(١) ساويرس : سير الآباء البطاركة — ص ٤٣٠ — ٤٣١
Patr. Orient. t. X)

(٢) الكندى ص ١٦٣ .

(٣) الكندى ص ١٦٣ — ١٦٤ ، خطط المقريزى ج ١ ص ١٧٣ .

وربمـا خشى الاندلسيون على مصيرهم فرأوا أن يتقووا بانضمامهم إلى الوالى ، لذلك نراهم يدعون فى الاسكندرية للسرى بن الحكم سنة ٢٠١هـ[١] على أن السرى مالبث أن اختلف مع آل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى ، وكانوا وجوه أهل خراسان بمصر ، فبايعهم الجند على القيام ضـد السرى وأظهروا كتابا من طاهر بن الحسين (قائد المأمون) بولاية سليمان بن غالب ابن جبريل البجلى على مصر ، فلم يكن من السرى إلا الرضوخ لهم وذلك فى ربيع الأول سنة ٢٠١هـ فكانت ولاية السرى فى هذه المده ستة أشهر[٢]

أمر سليمان بن غالب السرى بن الحكم بترك العاصمة والذهاب إلى اخميم . على أن السرى مالبث أن تقوى ثانية بانضمام بنى مدلج وكثير من الناس إليه . فسار بهم يريد الفسطاط ، ولما علم سليمان بن غالب بذلك أرسل إليه جيشا لمحاربته قبل أن يصل إليها فدارت الدائرة على السرى وأسر هو وابنه ميمون ، فأمر سليمان بردهما ثانية إلى اخميم وسجنهما . وذلك فى جمادى الأولى سنة ٢٠١هـ[٣] ، ولا نعرف لماذا لم يقتل سليمان بن غالب السرى بعد أن ظفر به ، وربما دعاه إلى هـذا التصرف خوفه من أتباع السرى ومن ثورتهم ضده ، وما لبث أهل خراسان بمصر أن قاموا ضد سليمان بن غالب وذلك لتقديمه أتباعه وبطـانته عليهم ، وانتهى الأمر بأن خلعه الجند من ولاية مصر فى شعبان من سنة ٢٠١هـ ثم لحق سليمان بالجروى[٤] . بعـد عزل سليمان ، ولى السرى بن الحكم مصر للمرة الثانية على أنه فى هذه المرة

---

(١) الـكندى ص ١٦٥ .
(٢) الـكندى ص ١٦٥
(٣) الـكندى ص ١٦٦ .
(٤) الـكندى ص ١٦٦ — ١٦٧ .

لم يتولاها كالمرة الأولى بمبايعة الجند له وإنما وليها بأمر من الخليفة المأمون[١] ويظهر أن اضطراب الحال فى الدولة الإسلامية دعا المأمون إلى التسليم بالأمر الواقع فى مصر ريثما تهدأ الأمور فولى السرى الذى كان له أتباع كثيرون إذ ذاك .

وحدث فى سنة ٢٠١ هـ أن بايع المأمون لولاية عهده عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة شعار العلويين ، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق .

وقد ظن أهل بغداد أن هذا من عمل الفضل بن سهل الذى كان يدبر أمور المأمون فى مرو . والفرس كما نعلم كانوا يميلون إلى العلويين . ولذا نجد أهل بغداد يبايعون بالخلافة إبراهيم بن المهدى عم المأمون فى سنة ٢٠١هـ ويخلعون المأمون . اضطربت الأحوال فى الدولة الإسلامية ، ولم يعلم المأمون بذلك إذ كتم الفضل بن سهل هذه الأخبار عنه ويقال إن الذى أعلمه بهذه الأمور عليا الرضا بل إنه أشار عليه بالرجوع إلى بغداد لتهدأ الحالة وليضبط الأمور بنفسه ، فسار المأمون إليها وفى طريقه إلى هناك مات الفضل بن سهل سنة ٢٠٢ هـ ثم مات على الرضا فى طوس سنة ٢٠٣هـ . وأخيراً دخل المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤هـ واختفى إبراهيم بن المهدى ، واستطاع المأمون بعد دخوله بغداد أن يقبض على ناصية الحال فى الدولة الإسلامية ويقضى على الاضطرابات التى سادت فيها بعد أن تخلص من النفوذ الفارسى ومن النفوذ العلوى ، وقد استعطفه إبراهيم بن المهدى فصفح عنه .

---

(١) الكندى ص ١٦٧ .

أما في مصر فإن أمورها في تلك الفترة كانت تسير دائما متأثرة بما يجرى في الخلافة فينعكس عليها ما يحدث هناك واضحا جليا . لذا نرى الخليفة المأمون يكتب إلى السرى بن الحكم يأمره بالبيعة فيها لولى عهده على الرضا في المحرم سنة ٢٠٢ هـ فبويع له بها ، على أن المصريين انقسموا على أنفسهم كما حدث في بغداد وسائر الدولة الإسلامية ، إذ كتب إبراهيم بن المهدى إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولى عهده ، والثورة ضد السرى ، وكان من السهل أن يلقى إبراهيم بن المهدى أنصارا له بمصر ، لا حبا في خلافته وإنما طمعا من بعض الزعماء في السلطان أو لتذمرهم من ولاية السرى أو غير ذلك من الأغراض المختلفة التي كانوا يسترونها وراء قيامهم بالدعوة لأحد الخلفاء أو لأحد الخارجين على الخلافة . فقام بالدعوة لإبراهيم في مصر الحارث بن زرعة بن قحزم بالفسطاط ، وعبد العزيز ابن الوزير الجروى بالدلتا وسلامة ابن عبد الملك الأزدى الطحاوى بالصعيد ، وسليمان بن غالب بن جبريل الذى كان منضما إلى الجروى . وعقدوا الولاية لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدى ، على أن السرى حاربه حتى ظفر به ، وقتله في صفر سنة ٢٠٢ هـ[١] وانضم بعد ذلك كل من كره بيعة على الرضا إلى الجروى لعظم سلطانه إذ ذاك ، فسار الجروى إلى الإسكندرية للمرة الثانية لمحاربة الاندلسيين بها فحاصرها وانتهى الأمر بأن اصطلح الاندلسيون على فتح حصن الإسكندرية والدعوة للجروى بها . ثم دعى للجروى بالصعيد أيضا .

وعندما علم الجند بموت على الرضا وانخذال إبراهيم بن المهدى أظهروا بيعة المأمون والدعوة إليه ، وقد ورد كتاب المأمون إلى السرى بذلك وبغسل المنابر التي دعى عليها لعلى الرضا فغسلت[٢] . وانتهز الاندلسيون أيضا هذه

(١) الكندى ص ١٦٨ .
(٢) الكندى ص ١٧٠ .

الفرصة فأخرجوا عامل الجروى بالإسكندرية منها وأغلقوا الحصن دونه وخلعوا الجروى ودعوا إلى السرى بن الحكم ، فسار إليهم الجروى في رمضان سنة ٢٠٣ هـ . على أن القبط بسخا ثاروا ضده وانضم إليهم بنومدلج فهزمهم الجروى وهرب بنو مدلج ثم بعث الجروى بجيوش إلى الإسكندرية لمحاصرتها[١] . وربما دعا القبط إلى الثورة ضد الجروى ما أتاه من أفعال ؛ إذ يذكر ساويرس[٢] أن الجروى كان يدأب على قتل الناس وأخذ أموالهم وكان يدفن في الأرض ما يأخذه من أموال ، وإذا دفن المال يقتل الذين ساعدوه على دفنه كى لا يبيحوا بسره . وكذلك جمع الجروى قمح أرض مصر جميعها ووضعه في الأهراء تحت تصرفه ، حتى ندر القمح وعز وجوده ، فحدثت مجاعة كبيرة بسبب ذلك ولا سيما بالإسكندرية ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى أن تسلم إليه البلاد جميعها .

لكن السرى بن الحكم أفسد على الجروى خططه فأرسل جيشاً في ذى القعدة سنة ٢٠٣ إلى بلاد الصعيد لاستخلاصها منه ، فنهم سلامة ابن عبد الملك الطحاوى حليف الجروى بالصعيد ، وأسر هو وابنه إبراهيم وأرسلا إلى الفسطاط حيث قتلا هناك في المحرم سنة ٢٠٤ هـ[٣] .

وفى تلك الأثناء سار عبد العزيز الجروى لحصار الاسكندرية للمرة الرابعة فأغلق الأندلسيون حصنها ولكن الجروى حاصرهم حصاراً شديداً وأخذ يضرب الحصن بالمجانيق وظل على ذلك سبعة أشهر من بداية شعبان سنة ٢٠٤ هـ إلى آخر صفر سنة ٢٠٥ هـ . وانتهى الأمر بأن قتل الجروى

---

(١) الكندى ص ١٧٠ .

(٢) سير الآباء البطاركة . ص ٤٠٥ — ٤٠٦ Patr. Orient. t. X). .

(٣) الكندى ص ١٧١ .

أثناء الحصار . ومات السرى بن الحكم بعده بثلاثة أشهر فى الفسطاط فى آخر جمادى الأولى سنة ٢٠٥ هـ بعد أن ولى مصر ثلاث سنين وتسعة أشهر .

بويع بولاية مصر بعد السرى بن الحكم ابنه أبو نصر بن السرى ، ولم يكن معنى ذلك القضاء على المنازعات التى قامت حول ولاية مصر ، إذ ورث أبناء السرى والجروى نزاع والديهما . فكان بيد أبى نصر من أرض مصر الفسطاط والصعيد وغربى الدلتا وكان بيد على بن عبد العزيز الجروى، بقية الوجه البحرى بما فى ذلك الحوف الشرقى ، وقد وقعت الحروب بينهما، ثم اصطلحا على أن يكف أحدهما عن الآخر . وأخيراً توفى أبو نصر فى ٨ شعبان سنة ٢٠٦ هـ بعد أن ولى مصر أربعة عشر شهراً[1] .

بايع الجند عبيد الله بن السرى بولاية مصر بعد وفاة أخيه فى شعبان سنة ٢٠٦ هـ ولم يتعرض كل من عبيد الله وعلى بن الجروى للآخر حتى انتهت سنة ٢٠٦ هـ ، حين عقد المأمون ولاية مصر لخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وبعثه إليها فى جيش من ربيعة فلما دخل الحدود المصرية أرسل إلى عبيد الله يعلمه بذلك فامتنع عبيد الله عن التسليم له واحتج بأن كتاب المأمون قد ورد إليه بولايته هو ، واستعد عبيد الله لحرب خالد فحفر خندقاً حول الفسطاط وجند الجنود ، فسار خالد إلى خندق عبيد الله وهناك وقع القتال بينهما وانتهى بأسر خالد بن يزيد فأكرمه عبيد الله بن السرى وخيره بين المقام فى مصر أو الرحيل حيث شاء فاختار الذهاب إلى مكة عن طريق القلزم[2] . ويظهر أن الأمور فى مختلف أنحاء الدولة الإسلامية شغلت المأمون حتى ذلك

(١) الكندى ص ١٧٢ — ١٧٣ .
(٢) الكندى ص ١٧٣ — ١٧٦ .

الوقت عن التفرغ للقضاء على الفوضى فى مصر وإرجاعها ثانية إلى حظيرته، فأرسل رسولا من قبله يقر عبيد الله على ما بيده من أرض مصر ويقر عليا ابن الجروى على ما بيده[١] .

حدث بعد ذلك نزاع بين عبيد الله بن السرى وبين على بن الجروى وسببه أن قوما من أهل الحوف منعوا ابن الجروى من جباية الخراج وكتبوا إلى عبيد الله بن السرى يطلبون منه المساعدة ضد على الجروى ، فأمدهم بما طلبوا وبعث إليهم أخاه أحمد بن السرى فى سنة ٢٠٧ هـ فوقعت حروب بينهما كان نتيجتها أن دخل عبيد الله تنيس ، مقر ولاية الجروى ، وهرب ابن الجروى إلى الفرما ثم العريش فى ربيع الأول سنة ٢٠٩ هـ[٢] ، أى أن مصر كلها خضعت لعبيد الله بن السرى إذا استثنينا الاسكندرية التى كانت تحت سلطة الأندلسيين . على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى ابن الجروى عن ولايته فى مصر السفلى . فحدثت مناوشات وحروب بينه وبين ابن السرى[٣] ، وبينا هما كذلك قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين من الشام موفداً من قبل الخليفة المأمون ليقضى على تلك الفوضى التى سادت فى مصر منذ نحو إحدى عشرة سنة ، كادت مصر فى أثنائها تكون مستقلة عن الخلافة ، لا ترسل إليها الخراج والأموال ولا ترضخ فيها لأوامر الخليفة ولا تقبل العمال الذين يوليهم وقد تغلب على كل ناحية فيها قائد أو زعيم .

سار عبد الله بن طاهر إلى مصر فاستقبله على بن الجروى بالأموال والأنزال وانضم إليه ، ثم أرسل ابن طاهر إلى عبد الله بن السرى يدعوه إلى

---

(١) الكندى ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢) الكندى ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٣) الكندى ص ١٧٨ — ١٧٩ ، خطط المقريزى ج ١ ص ١٧٩ .

الطاعة ولكن عبيداً أخذ يستعد لحربه فحفر خندقه وأعد سفنه وأحكم أموره وكانت النتيجة أن اشتبك الفريقان ووقعت الحرب بينهما فانهزم عبيد وقتل معظم أصحابه حتى أشرف على الهلاك فطلب الأمان . فكتب ابن طاهر إلى الخليفة المأمون كتاباً يسأل فيه أمان عبيد فأجابه الخليفة إلى ذلك . ثم كتب عبد الله بن طاهر لعبيد كتاب أمان أشهد فيه شهوداً من الجند والفقهاء وأشراف أهل مصر فى صفر سنة ٢١١ هـ وخلع عليه ابن طاهر وأجازه بعشرة آلاف دينار وأمره بالخروج إلى المأمون[١] وبذلك خلصت معظم مصر للخلافة على يد عبد الله بن طاهر وكان أمامه أن يقضى على الجمهورية التى أقامها الأندلسيون بالاسكندرية منذ عشر سنوات .

سار عبد الله بن طاهر فى قواده إلى الاسكندرية فى بداية صفر سنة ٢١٢ هـ وحاصرها فى شهر ربيع الأول فطلب أهلها الأمان ، وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا فخرجوا إلى جزيرة أقريطش (كريت) وملكوها وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى ، ثم ولى ابن طاهر على الإسكندرية الياس بن سامان ، ورجع ثانية إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة سنة ٢١٢ هـ[٢] .

وهكذا عادت مصر بفضل مجهودات عبد الله بن طاهر ولاية خاضعة للخلافة بعد أن سادت فيها الفوضى وكادت تخرج من حكم الخليفة وتستقل بأمورها ، منتهزة فرصة النزاع بين الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذى قام فى أوائل حكم المأمون . ويجدر بنا أن نلاحظ أن السرى بن الحكم ، الخراسانى الأصل ، استطاع أن يكوّن لنفسه ولأسرته من بعده ملكا شبه

(١) الكندى ص ١٨٠ — ١٨٢ .
(٢) الكندى ص ١٨٣ — ١٨٤ ، خطط المقريزى ج ١ ص ١٧٣ .

مستقل دام نحو عشر سنوات ولم تسيطر هذه الأسرة على مصر طوال هذه المدة وإنما سيطرت على العاصمة دائما وعلى الوجه القبلي فى الغالب . ونلاحظ أيضاً أن أسرة السرى كانت كغيرها من الأسرات التى استقلت بمصر فيما بعد ، مثل الطولونيين والأخشيديين ، أى أنه لم يكن لها أساس قوى فى البلاد التى اتخذتها مسرحاً لنشاطها . فهذه الأسرات التى قامت فى مصر الإسلامية لم تكن نتيجة لحركات قومية وإنما كانت حركات فردية قام بها ذوو الشخصيات الطموحة القوية . ولذا لم يكن من المنتظر أن تعمر طويلا بعد وفاة مؤسسيها ، وخاصة إن كان خلفاء هؤلاء المؤسسين لا تتوفر لديهم القوة والشخصية التى كانت لأسلافهم . ويصح أن تعتبر أسرة السرى أول أسرة شبه مستقلة فى مصر الإسلامية . وكانت هذه الأسرة مقدمة لأسرة ابن طولون التى استقلت بمصر استقلالا فعلياً فى الواقع وذاتياً فى الظاهر .

جـ — مصر والمحنة بخلق القرآن

مسألة خلق القرآن هى إحدى المسائل التى أثارتها المعتزلة حين ظهرت بتعاليمها كما ظهر غيرها من الفرق والمذاهب .

ولا يعنينا هنا أن نبحث فى آراء المعتزلة الدينية ومعتقداتهم وإنما يهمنا أن الدولة العباسية فى وقت ما اتخذت الاعتزال مذهبا رسميا لها ، وحملت جميع رعايا دولتها على اعتناق ذلك المذهب مستعملة فى ذلك جميع وسائل القوة والعنف ، وكانت مصر ممن حمل على اتخاذ ذلك المذهب . كانت مسألة خلق القرآن هى المسألة التى تركز فيها الاعتزال فى تلك الفترة (٢١٨ — ٢٣٤هـ) لكثرة القول والجدل فيها ، ولأنها مبنية على أكبر أصل من أصولهم وهو

التوحيد وعدم تعدد صفات الله[١] .

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن فى سـنة ٢١٢هـ[٢] ، إلا أنه لم يحمل الناس على اتباعه إلا فى سـنة ٢١٨ هـ قبيل وفاته وهو خارج بغداد لغزو الروم ، إذ كتب إلى والى بغداد إسـحق بن إبراهيم يطلب منه أن يمتحن القضاة والفقهاء والمحدثين فى خلق القرآن ويعاقب من لايقر بخلقه . على أن المأمون توفى بعد ذلك بنحو أربعة أشهر (رجب سـنة ٢١٨ هـ) فحمل هذا الأمر من بعده أخوه المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) ثم الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) وقد عذب كثير ممن امتنعوا عن القول بخلق القرآن نذكر منهم الإمام أحمد بن حنبل ، وقتل البعض الآخر ، وبقدر ما كان الخلفاء يشـتدون فى تلك المسألة كان العلماء والشعب يعارضـون فيها[٣] ، وقد أصبحت كلمة المحنة تعنى اختبار العلماء فى القول بخلق القرآن وما لاقوه فى ذلك من عذاب[٤] ، وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية كلها موضوع محاكمة . ويهمنا ما كان من أمر مصر فى هذه المسألة .

فى ولاية كيدر نصر بن عبد الله على مصر (٢١٧ — ٢١٩ هـ) ورد عليه كتاب المعتصم (صاحب إقطاع مصر حينذاك) فى جمادى الآخرة سنة ٢١٨ هـ يأمره بأخذ الناس بالمحنة بخلق القرآن وأن يمتحن قاضى مصر إذ ذاك هرون بن عبد الله الزهرى وأن يمتحن المحدثين والفقها والشهود ، وأن يعزل القاضى إن لم يقر بخلق القرآن ، وكذلك طلب منه

---

(١) أحمد أمين بك : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ١٦٥ .
(٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٧٩ .
(٣) أحمد أمين بك : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ١٥٦ — ١٨٢ .
(٤) المرجع نفسه ص ١٦٦ .

ألا يأذن لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن[١] .
ويظهر أنه لم تقم فى مصر فى أول الأمر معارضة شديدة للقول بخلق القرآن ، كما قامت فى العراق مقر الخلافة ، ولم تتعرض مصر لما تعرضت له العراق من قتل وتعذيب واضطهاد لهذا السبب ، وربما أقر المصريون القول بخلق القرآن تقية فكفاهم هذا شراً كثيراً . فيذكر الكندى أنه حين ورد كتاب المعتصم على كيدر يأمره بأخذ الناس بالمحنة أحضر هرون بن عبد الله القاضى ودعاه إلى هذا فأجاب إليه ووافقه على ذلك عامة الشهود ومن عرف بالعدالة كما أجاب أكثر الفقهاء إلا من هرب منهم وكذلك كان هرون ابن عبد الله يوقف شهادة من لا يقول بخلق القرآن ويقبل شهادة من يقر بخلقه[٢] .

ظل هرون بن عبد الله يلى قضاء مصر إلى أن ورد عليه كتاب الخليفة المعتصم فى سنة ٢٢٦هـ يأمره بالتوقف عن الحكم . وولى القضاء بعده محمد ابن أبى الليث الخوارزمى . ولعل المصريين لم يقوموا بمعارضة شديدة ضد المحنة طالما لم يؤخذوا فيها بالشدة ، فيذكر الكندى[٣] أن أمر المحنة كان سهلا فى خلافة المعتصم ، « فلم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أو أبوا حتى مات المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين فأمر أن يؤخذ الناس بها وورد كتابه على محمد بن أبى الليث بذلك وكأنها نار أضرمت » . فالخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢هـ) كان يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما قال به المأمون ، لذا نجده يرسل إلى قاضى مصر محمد بن أبى الليث يأمره بامتحان

---

(١) الكندى ص ١٩٣ ، ٤٤٥ — ٤٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ .
(٢) الكندى ص ٤٤٧
(٣) الكندى ص ٤٥١ .

الناس جميعا حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ بالمحنة ، وعندئذ عارض كثير من المصريين المحنة وثاروا ضدها . فملئت السجون منهم كما هرب الكثيرون .

وقد أمر ابن أبي الليث أن يكتب على المساجد لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق ، كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد وأمرهم أن لا يقربوه وقد اختص أصحاب مالك والشافعى بالمنع لأنه لم يكن للمذاهب الأخرى أتباع فى مصر حينذاك .

وكان ممن هرب بسبب المحنة أحد علماء مصر المشهورين فى ذلك الوقت وهو ذو النون بن إبراهيم الأخميمى لكنه وقع فى يد القاضى ابن أبى الليث فأقر بخلق القرآن[١] ، وممن امتنع عن القول بخلق القرآن أبو يعقوب يوسف بن يحيي البويطى المصرى صاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه[٢] ، فقد حمل إلى بغداد وظل ممتنعا عن القول بخلق القرآن ولم يزل محبوسا هناك إلى أن توفى سنة ٢٣١ هـ .

وعلى وجه الإجمال نلاحظ أن أمر المحنة فى مصر كان سهلا خفيف الوطأة على المصريين فلم يقاسوا بسببها إلا بضع سنوات فى عهد الخليفة الواثق فملئت السجون منهم ، كما تحمل البعض الآخر مشقة الرحيل عن وطنهم . ولكننا لا نسمع عن كثير من حوادث قتل أو تعذيب كما كانت الحال فى العراق . فلما ولى الخليفة المتوكل العباسى وجد أن المسألة طال أمدها فأبطل هذه المحنة من مصر ومن جميع أنحاء الدولة الإسلامية . ففى شهر جمادى الآخر سنة ٢٣٤ هـ ورد كتاب المتوكل على هرثمة بن النضر الجبلى

(١) الكندى ص ٤٥٣ .

(٢) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

نائب مصر إذ ذاك من قبل صاحب إقطاعها إيتاخ (٢٣٣ — ٢٣٤ هـ) يأمره بترك الجدل فى القرآن وبإبطال المحنة[١] ، ففرح الناس بهـذا فرحا عظيما وعظموا المتوكل ومدحه الشعراء ، وبلغ من الثناء عليه وتعظيمه أن قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة . أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم الردة ، وعمر ابن عبد العزيز فى رد مظالم بنى أمية ، والمتوكل فى إحياء السنة[٢] .

وربما دعاهم إلى هذا ما لاقوه من اضطهاد وتعذيب وضيق زمن المحنة حتى أولوا الخليفة المتوكل احتراما كبيرا لإبطال تلك المحنة التى كانت سببا فى تفريق كلمة المسلمين .

---

(١) الكندى ص ١٩٧ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٢ ، أبو المحاسن جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٢٧٥ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٣٠ .

الباب الثالث

انتشار الاسلام وتعريب مصر

العرب والقبط

كان للفتوحات العربية أثر ملحوظ فى سرعة انتشار الدين الإسلامى فى كافة الأقاليم التى فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية . فدخل الدين الإسلامى فى هذه البلاد بدخول العرب فيها وما لبث أن تغلب على الأديان التى وجدت قبله وأصبح المسلمون أغلبية فيهـا . ومع ذلك كله فالثابت أن الدولة العربية التى قامت على أساس الدعوة الدينية والتى كان شعارها حماية ذلك الدين والقيام لنصرته لم تضطهد أحداً من أهل الذمة أو ترغمه على ترك دينه . ذلك أن القرآن لا يرضى الإكراه للدخول فى الدين الإسلامى . وفى هذا يقول تعالى : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[1]) . ويقول سبحانه مخاطباً الرسول : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين[2]) . وإلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التى تفيد هذا المعنى . وقد رأينا العرب فى مصر وفى غيرها من البلاد التى فتحوها يخيرون أهالى البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور : الإسلام أو الجزية أو الحرب . ولم يشتط العرب فى تقدير الجزية ، بل راعوا فى تقديرها ثروة الفرد ، فالغنى لا يجبى منه مثل الفقير أو متوسط

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦
(٢) سورة يونس آية ٩٩

الحال . ويقول الكونت دى كاستري[١] « إن الإسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة إليه وتعليم مبادئه كما فى الديانة المسيحية ولو أنه كان للإسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب فى انتشاره السريع فإنا شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام فى حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد باشر فتح المدائن والأقاليم بجيوشه التى كان يصلى بها الأمم حربا تجعل الولدان شيباً ولكنا لا نعلم للإسلام مجمعاً دينياً ولا رسلا وأحباراً وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان » .

تلك كانت سياسة العرب الدينية العامة فى مصر وفى غيرها من الدول التى فتحوها ، لكن الذى نعنى به هنا هو ما كان من أمرهم فى مصر . فقد دخل الإسلام فيها لأول مرة بدخول العرب فاتحين . ويلاحظ حنا النقيوسى[٢] أنه منذ دخول العرب مصر وقبل أن يتم فتحها نهائيا أسلم كثير من المصريين وحاربوا المسيحيين بعد إسلامهم ومن هؤلاء يوحنا أحد رهبان دير سينا .

وقد أخذ الدين الإسلامى ينتشر تدريجيا فى مصر كلما تقدم العهد بالعرب فيها . على أنه وجدت فترات معينة كان التحول فيها إلى الدين الإسلامى بكثرة وما ذلك إلا تحت تأثير ظروف وعوامل مختلفة ناشئة عن سياسة الخلفاء وولاتهم الذين يمثلون تلك السياسة .

وقبل أن نبدأ فى تفصيل ذلك الموضوع يجدر بنا أن نبين أولا كيف كان موقف القبط من الفتح العربى .

---

(١) الإسلام خواطر وسوانح ص ٣٩ — ٤٠

(٢) تاريخ ص ٥٨٤

كان معظم المصريين فى ذلك الوقت من الأقباط الذين تسميهم بعض المراجع « اليعاقبة » والذين غلب عليهم بعد ذلك اسم الأقباط الأورتودكس وفيما عدا ذلك كانت مصر تحوى طوائف وأفرادا ينتسبون إلى عدة شعوب وأقوام كان أهمها قبيل الفتح العربى طائفة الروم الملكانيين أى الذين يدينون بالمذهب الملكانى — وكانوا فى عداء مع الأقباط — وطائفة اليهود . وكان هناك أيضا أفراد من الأقباط يدينون بالمذهب الملكانى أو الخلقدونى [١] . ولكن هذه كانت أحوالا شاذة . ونحن إذا تحدثنا عن المصريين فى ذلك العصر إنما نتحدث عن الأقباط الأرتودكس .

كان العرب فى فتحهم لمصر يحاربون البيزنطيين لا المصريين . وكان المصريون إذ ذاك قد أنهكتهم الأعباء المالية والاضطهادات الدينية حتى أن المؤرخين المصريين المسيحيين فى العصور الوسطى يشعروننا بأن انتصار المسلمين هو غضب من الله على الروم . كذلك يتجلى لنا من ثنايا كتاباتهم مدى العداوة بينهم وبين الروم . فيقول حنا النقيوسى [٢] أن جميع الناس يذكرون أن سبب انتصار المسلمين على الروم هو استبداد هرقل والاضطهادات التى أنزلها بالأرتودكس والتى كان قيرس الآلة المحركة لها .

كذلك يذكر ساويرس [٣] أن الله كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة .

لهذا لا نعجب إذ رحب المصريون بالعرب واعتبروهم منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجائر . على أننا لا نجد فى المراجع القديمة ما يشير إليه بعض

(١) ساويرس ص ٢٢٦ — ٢٢٧ (t. 1.)

(٢) تاريخ ص ٨٤ ه .

(٣) ص ٢٢٨ — ٢٢٩ (t. 1.)

المحدثين — مثل مسز بتشر Butcher من أن الأقباط استنجدوا بعمر بن الخطاب لينقذهم من ظلم الروم[١] أما فيما يختص بترحيب المصريين بالعرب ففي المصادر القديمة إشارات كثيرة تفيد هذا المعنى . بل لقد كتب حنا النقيوسى[٢] أن المصريين الذين تركوا الدين المسيحى وأسلموا صحبوا جيوش العرب أثناء الفتح .

ونحن لا نعرف إذا كان هؤلاء قد انضموا إلى العرب بسبب كراهتهم للبيزنطيين أو بدافع الحماسة لنصرة الدين الجديد أو للسببين معا .

ويذكر ابن عبد الحكم[٣] ومن نقل عنه من المؤرخين مثل المقريزى[٤] وأبو المحاسن[٥] والسيوطى[٦] أنه كان « بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين[٧] فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانا لعمرو .

ثم يعود ابن عبد الحكم[٨] مرة ثانية فيذكر أنه عند ما فرغ عمرو ابن العاص من فتح حصن بابليون وعقد الصلح مع المقوقس خرج إلى الإسكندرية مع المسلمين حين أمكنهم الخروج ، « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق

(١) انظر تاريخ الأمة القبطية وكنيستها للسيدة بوتشر ج ٢ ص ١٠٤
(٢) تاريخ ص ٦٥٠
(٣) فتوح مصر — طبعة المعهد الفرنسى ص ٥٣ — ٥٤
(٤) خطط ج ١ ص ٢٨٩
(٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧
(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٦
(٧) يقصد بالأسقف أبوميامين هنا البطرك بنيامين الذى كان معاصرا للفتح
(٨) فتوح مصر — طبعة المعهد العلمى الفرنسى ص ٦٦

وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم »

فهذه الروايات تدل على أن القبط ساعدوا العرب منذ دخولهم الأراضي المصرية حتى أتموا فتح مصر . وإذ كنا لا نستطيع أن نأخذ بكل ما فيها إذ أن بطرك القبط بنيامين كان فى ذلك الوقت مختفيا فى الصعيد وليس فى الإسكندرية . وجدير بالذكر أن وجود مصريين كثيرين فى جيش البيزنطيين المدافع عن مصر كان من أسباب فشله فى حمايتها من العرب لأنهم لم يخلصوا فى الدفاع عنها

على أننا لا نستبعد أن يكون هناك فريق من المصريين قد وقف موقف الحياد لأنهم يعرفون أن ترحيبهم بالعرب معناه انتقالهم من تبعية إلى تبعية أخرى فإنهم لم يكونوا فى موقف يستطيعون معه طرد البيزنطيين والعرب فى وقت واحد . وقد حارب فريق من الشعب المصرى ممن كان صنيعة للبيزنطيين فى صفهم أو ربما حارب معهم منتظراً أن يكون النصر للبيزنطيين لا للعرب .

فيذكر المقريزى [١] « أنه كان على تنيس رجل يقال له أبو ثور من العرب المتنصرة فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون فبرز إليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبى ثور فى أيدى المسلمين وانهزام أصحابه » ولكن الروح السائدة من جانب المصريين بوجه عام كانت روح الترحيب بالعرب كما تبين من النصوص السابقة

ذلك هو موقف الأقباط بالنسبة للفتح العربى ولنبحث الآن كيف كانت معاملة العرب لهم .

لم يكتف العرب بانتصارهم على البيزنطيين فى مصر وإخراجهم منها

(١) خطط ج ١ ص ١٧٧

فنراهم يتحببون إلى الأقباط وهم أهل البلاد كى يضمنوا ولاءهم وإخلاصهم إذ لم يكن العرب غزاة أتوا للسلب والنهب وإنمـا كانوا فاتحين يستعمرون البلاد استعمارا منظما ويعرفون كيف يوطدون مراكزهم فى البلاد التى فتحوها فلم يترك العرب أثرا للعسف فى فتوحاتهم إلا ما كان لا بد منه فى كل حرب وقتال[١] .

ويذكر الرواة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بقبط مصر فى عدة أحاديث نذكر منها قوله « إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم منكم صهرا وذمة » إذ كانت هاجر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل منهم كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أيضا[٢] . ولسنا نعرض هنا لصحة هذا الحديث ، فانه يشهد ، على كل حال ، بموقف المسلمين من القبط فى فجر الإسلام وحين جمعت الأحاديث .

فبعد أن تم استيلاء عمرو بن العاص على الإسكندرية ودخول الجيش العربى فيها نقل سانوتيوس[٣] إلى عمرو بن العاص قصة بطرك القبط بنيامين الذى اختفى هربا من اضطهاد الروم ولما كان الموضع الذى اختفى فيه الأب بنيامين غير معروف بالضبط فقد كتب عمرو إلى جميع أقاليم مصر كتابا يقول فيه « الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان

---

(١) دى كاسترى : الإسلام ص ٣٥

(٢) المقريزى ج ١ ص ٢٤ — ٢٥ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٣٣

(٣) يقول ساويرس عن سانوتيوس « سانوتيوس التكس المؤمن » والتكس يعنى بها الدوق duke . وسانوتيوس هـذا كان عميد الأقباط يوم دخول العرب فتولى إدارة شئون الـكنيسة مدة اختفاء البطرك بنيامين . وأحسن إدارتها وجمع كلمة الأمة بعد أن كانت الحوادث قد جعلتها أشتاتا

والسلامة من الله فليحضر آمناً مطمئناً ويدبر حالة بيعته وسياسة طائفته[١]»

وعند ما علم الأب بنيامين بذلك عاد إلى الإسكندرية مسروراً بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاما أمضى منها عشر سنين أثناء حكم هرقل وثلاث سنوات أثناء الفتح العربي إلى أن فتح المسلمون الأسكندرية .

وقد طرب أهل مصر جميعاً لعودة راعيهم . ولما أبلغ سانوتيوس عمرو ابن العاص مقدم بنيامين أمر عمرو بإحضاره إليه معززا مكرما فلما مثل بين يدى عمرو أكرمه وبالغ فى حفاوته وأعطاه الحرية ليشرف على الكنائس ويرعى أحوال الأقباط[٢] .

وكان من نتائج عودة بنيامين إلى كرسى البطركية أن رجع كثير إلى المذهب الأرتودكسى بعد أن كانوا نبذوه نتيجة لاضطهاد هرقل . كما عاد الذين كانوا قد اختفوا خوفا من هذه الاضطهادات[٣] وبعد أن تم لبنيامين جمع قومه من القبط ولم شعثهم اتجه إلى بناء ما كان هرقل قد هدمه من الكنائس والأديرة .

ولا عجب إذ عم السرور والفرح أهل مصر جميعاً . ولا يستبعد أن يكون القبط قد وقفوا من وراء راعيهم يشدون أزر العرب ضد الروم حينما أغاروا على الإسكندرية سنة ٢٥ هـ . وقد ذكرنا سابقا أن أهل مصر ألحوا على عثمان بن عفان فى سنة ٢٥ هـ أن يرسل عمرو بن العاص إليهم لطرد الروم لأنه أعلم الناس بحربهم ومدافعتهم .

وكتب المقريزى[٤] أنه كان بوادى هبيب (الذى يقع بين مريوط .

---

(١) ساويرس ص ٢٣١ — ٢٣٢ (E. T.) .

(٢) ساويرس ص ٢٣٢

(٣) ساويرس ص ٢٣٣

(٤) الخطط جـ ١ ص ١٨٦

والفيوم ويعرف أيضاً باسم وادى النطرون وهو الاسم الحالى له) مائة دير للنصارى وأنه خرج منه سبعون ألف راهب[١] فلقوا عمرو بن العاص بالطرانة بالقرب من الإسكندرية وسألوه الأمان لأنفسهم وأديارهم فكتب لهم بذلك أمانا بقى عندهم .

لم يجد الأقباط إذاً فى العرب عدوا لدينهم ولا لمذهبهم الدينى كما كان البيزنطيون ، بل كفل لهم العرب الحرية التامة فى إقامة شعائر دينهم واتباع مذهبهم الأرثوذكسى . وكما أن روح الإسلام الحقة هى التى حفزت العرب إلى اتباع سياسة التسامح الدينى نحو المصريين فقد كان أيضاً للعوامل السياسية أكبر الأثر فى حملهم على ترك مقاليد الأمور فى يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين . أى أن الأقباط أصبحوا يتمتعون بحرية تامة فى الدين كما أصبح لهم نصيب كبير فى إدارة بلادهم ربما لم يصلوا إليه قبل الفتح العربى . ولا شك أن القبط حلوا محل الروم الذين غادروا مصر والذين كانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها . وقد رأينا فى الباب الأول كيف كانت نظم الحكم التى اتبعها العرب فى مصر وإلى أى حد كان الأقباط يتمتعون بإدارة بلادهم .

ونضيف إلى ما ذكرنا سابقاً أنه كان فى الحكومة المركزية بالفسطاط

---

(١) طبيعى أن هذا العدد مبالغ فيه فإن معناه أن كل دير كان يسع حوالى ٧٠٠ راهب وهذا العدد الكبير يصعب تموينه فى الصحراء . والآن فى العصر الحديث التى زادت فيه سرعة وسائل المواصلات وتعددت لا يزيد عدد رهبان الدير على ٣٠ أو ٤٠ راهبا كما يجد الرهبان مشقة فى تموين أنفسهم . ولاشك أن الرهبان قديما كانوا أكثر من الرهبان الحاليين وربما كانت كثرة عدد رهبان الأديرة حينذاك ترجع إلى فرارهم من الاضطهادات البيزنطية كما أن المسيحية فى ذلك الوقت كانت هى السائدة فى مصر . والرهبنة كما نعلم من أصول المسيحية الأولى

أو حلوان كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى وقد أشار ساويرس[١] أسقف الأشمونين إلى الكاتبين الأرتودكسيين أثناسيوس واسحق فى عهد عبد العزيز بن مروان .

وكان هؤلاء الكتاب أو الرؤساء المسيحيون خاضعين للوالى بطبيعة الحال والظاهر أن رؤساء المالية كانوا قبطا طوال العصر الأموى وقد أشار ساويرس[٢] إلى ظهور رئيسين من المسلمين فى بداية العصر العباسى .

ونلاحظ أيضاً أنه فى نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطياً اسمه بطرس على أنه اعتنق الإسلام بعد ذلك[٣] . وكان حاكم مريوط قبطياً اسمه تاوفانس[٤] . كذلك ولى المأمون حين قدم مصر على مدينة بورة وما حولها قبطياً من أهلها فبنى ذلك القبطى كنائس كثيرة بها[٥] .

ونلاحظ أن الفتح العربى ساعد أولا على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانيــة التى كانت اللغة الرسمية منــذ عهد البطالسة . فالدروس الدينية التى كانت تقرأ باليونانية وتشرح باللغة القبطية ، صارت لا تقرأ إلا باللغة القبطية . كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التى كانت تغلب عليها الأسماء اليونانية ، أصبحت تعرف بأسمائها القبطية التى ترجع إلى الأسماء المصرية القديمة . فمثــلا نجد اسم أخميم بدلا من بانوبوليس Panopolis

(١) سير الآباء البطاركة ص ١٢ Patr. Orient. t.v.
(٢) سير الآباء البطاركة ص ١٨٨
(٣) ساويرس ص ٥٢
(٤) ساويرس ص ٥٢
(٥) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصــديق ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩ ، أدم متز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٨٧

وأهناسيا بدلا من هيراكليوبوليس Héracléopolis والأشمونين بدلا من هرموبوليس . على أن هذا كله كان بعثا لقديم لم يندثر تماما فإن اللغة القبطية أو الأسماء المصرية كانت قد غلبت على أمرها حينا من الدهر ثم استمادت مكانتها بعد الفتح العربى . والمعروف أن الأسماء العربية لكثير من بلدان القطر المصرى الآن مأخوذة من الأسماء المصرية القديمة[١] كما أننا نستعمل فى الوقت الحالى كثيراً من الألفاظ العامية التى ترجع إلى اللغة المصرية القديمة وإلى اللغة القبطية التى اشتقت منها[٢] .

وقد كان لوالى مصر حق الإشراف على انتخاب البطاركة بوصفه رئيس الحكومة وممثل الخليفة فى مصر . ويظهر من النصوص أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى قبل انتخاب البطرك كما أن البطرك والأساقفة كانوا يذهبون من الإسكندرية مقر البطاركة إلى العاصمة لمقابلة والى مصر بعد الانتخاب للبطركية[٣] ويظهر أن هذه كانت مجرد مسائل شكلية إذ لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا فى انتخاب أحد البطاركة ما دام الأساقفة يتبعون القوانين الكنسية . ونعرف أن عبد العزيز بن مروان أبطل انتخاب أحد البطاركة بعد ما علم أن البطرك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذى انتخب وتم للوالى ما أراد فعين إسحق بطركا بدلا من جرجة الذى كان قد انتخب[٤] .

وقد بنيت عدة كنائس فى ظل الحكم العربى وجددت كنائس أخرى

---

(١) سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ص ١٥٤ — ٢١٩

(٢) Dr. George Sobhy : The Survival .... pp. 65-69

(٣) ساويرس ص ٢٢ — ٢٣ (t. V.) ، ص ٤٨١ — ٤٨٢ T. X.

(٤) ساويرس ص ٢٣ — ٢٤ (t. V.)

ففى أيام البطرك أغاتون (٦٦١ — ٦٧٧ م = ٤١ — ٥٨ هـ) عمرت كنيسة أبى مقار[١]. ويذكر ابن العميد[٢] والمقريزى[٣] أن البطرك أغاتون بنى كنيسة القديس مرقص بالاسكندرية فى ولاية عمرو بن العاص الثانية وقد ظلت هذه الكنيسة قائمة إلى أن هدمها السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبى فى القرن السابع الهجرى .

كذلك بنيت أول كنيسة فى فسطاط مصر أثناء ولاية مسلمة بن مخلد عليها[٤]. ويذكر سعيد بن بطريق[٥] أنه فى ولاية عبد العزيز بن مروان بنيت كنيسة مار جرجس وكنيسة « أبو قير » فى داخل قصر الشمع . وقد جدد البطرك إسحق كنيسة القديس مرقص وبنى كنيسة بحلوان[٦] كذلك بنيت كنائس أخرى فى حلوان وذلك فى ولاية عبد العزيز بن مروان وقد عهد الوالى بعمارتها إلى أغريغوريس أسقف القيس[٧] .

ويذكر الكندى[٨] أن الوليد بن رفاعه (١٠٩ — ١١٧ هـ) أذن للنصارى ببناء كنيسة بالحمراء تعرف بأبى مينا .

ويخبرنا أبو صالح الأرمنى[٩] عن بناء كنائس عدة فى مصر فى خلافة

---

(١) ساويرس ص ٦ .T. V

(٢) تاريخ المسلمين ص ٥٠

(٣) خطط جـ ٢ ص ٤٩٢

(٤) ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٣٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥

(٦) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ ٢ ص ٤١

(٧) ساويرس ص ٢٤ .t. V

(٨) ساويرس ص ٤٢ .t. V وفى معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ٢١٥ : القيس كانت بمصر وقد خربت الآن وكانت فى غربى النيل بعد الجيزة

(٩) الولاة والقضاة ص ٧٧

هشام بن عبد الملك بوجه خاص وفى الخلافة الأموية بوجه عام كما يذكر لنا كنيسة جددت فى عهد الخليفة المأمون ، قام بتجديد عمارتها خدم الخليفة نفسه وهى المعروفة بكنيسة الروم بالقرب من قبة الهواء[١]

وقد أذن موسى بن عيسى فى ولايته الأولى على مصر (١٧١ — ١٧٢هـ) للنصارى ببناء الكنائس التى هدمها الوالى الذى سبقه . وفى ذلك يقول الكندى[٢] « فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالا : هو من عمارة البلاد ، واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبن إلا فى الإسلام فى زمن الصحابة والتابعين » وهذا لا يكشف سياسة الوالى إزاء المسيحيين فقط بل يبين لنا أن هذين الحجتين فى الفقه الإسلامى كانا يقولان ببناء الكنائس وتعميرها ويعدان هذا من مظاهر التعمير فى البلاد .

وجدد أنبا ميخائيل البطرك (٧٤٤ — ٨٦٨ م = ١٢٧ — ١٥١هـ) كنيسة الإسكندرية وأصلحها وبنى غيرها فى شرق البلد وغربيها[٣] .

هذه أمثلة ترينا مدى الحرية الدينية التى تمتع بها الأقباط فى ظل الحكم العربى . ويجدر بنا أن نشير أيضاً إلى أن الأقباط ظلوا يحتفلون بأعيادهم الدينية التى يعددها لنا المقريزى[٤] فى خططه . ولم نعرف أن العرب فعلوا شيئاً يحد من حرية الأقباط فى احتفالاتهم الدينية بتلك الأعياد ، وإن كان ولاة مصر فى ذلك العهد لم يشتركوا فى الاحتفالات الرسمية بهذه الأعياد كما كان يحدث

---

(١) قبة الهواء هذه هى التى بناها والى مصر حاتم بن هرثمة (١٩٤ — ١٩٥هـ) فوق سفح المقطم ليقيم فيها وموضعها الآن القلعة الحالية تقريبا. أبو المحاسن جـ٢ ص ١٤٤ و Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV, p. 65

(٢) الولاة والقضاة ص ١٣٢

(٣) ساويرس ص ١٤٩

(٤) الخطط جـ ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٩

مثلا فى عهد الأخشيديين والخلفاء الفاطميين[١] ولعل السبب فى ذلك هو أن مصر كانت جزءاً من الخلافة فلم يحرص الولاة على أن يتقربوا للشعب بعكس الأخشيديين الذين كانوا يتقربون إلى الشعب ليعاونهم فى استقلالهم عن بغداد كذلك كان الفاطميون يتوددون إلى الشعب كى يتقووا به ضد خلافة بغداد . أما المصريون المسلمون فلم يجدوا غضاضة فى ذلك لأن الكثير منهم كان من أصل قبطى . وربما اكتفى ولاة مصر فى ذلك العهد بمشاركة الأقباط فى الاحتفال بوفاء النيل كل عام ، ذلك الاحتفال الذى ظل منذ عهد الفراعنة إلى الآن لأن النيل مصدر ثروة مصر ورخائها . وطبعا كانت هذه الاحتفالات تختلف من حيث البهجة والعظمة باختلاف الأزمنة ومن أقدم ما نعرفه عن هـذه الاحتفالات فى العهد الإسلامى ما كتبه ابن رسته فى كتابه الذى ألفه سنة ٢٩٠ هـ[٢] .

ويذكر ابن عبد الحكم[٣] ومن نقل عنه من المؤرخين[٤] أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه فى شهر بؤونه فقالوا له . « أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها فقال لهم : وما ذلك . قالوا : إنه إذا كان لاثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو إن هذا لا يكون فى الإسلام وأن الإسلام يهدم ماقبله .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ طبعة مصر ص ٢١٢ — ٢١٣ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٩ Wiet: Précis t. 11 p. 148

(٢) الاعلاق النفيسة ص ١١٦

(٣) فتوح مصر طبعة تورى ص ١٥٠ — ١٥١

(٤) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٦٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٥ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٥٨ وأبو المحاسن جـ ١ ص ٣٥ — ٣٦

فأقاموا بؤونه وأبيب ومسرى لا يجرى قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : قد أصبت . إن الإسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب[١] بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فى ليلة وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر » .

هذه الرواية انفرد بذكرها ابن عبد الحكم ثم نقل عنه المؤرخون . على أنه لا يعقل أن تبقى المسيحية على مثل هذه العادة إن كانت قد وجدت فى عهد الفراعنة وقد ثبت أيضا أن الفراعنة لم يتبعوا هذه العادة وهى إلقاء فتاة مزينة على قيد الحياة فى النيل . ومسألة «عروس النيل» معروفة منذ القدم ؛ ولكن المؤرخين الإسلاميين اعتبروها حقيقة لا مجازا . والحق أن المصريين فى العصر القديم كانوا يزوجون تماثيل النيل بتماثيل عروسه[٢] فالمسألة كانت مسألة رمزية لا حقيقية . إذ كان الشعب المصرى فى كل العصور يرى من الواجب عليه أن يقدم هدية ثمينة إلى نهر النيل الذى يجلب لبلاده الخيرات الواسعة .

---

(١) عيد الصليب كان يحتفل به الأقباط فى يوم ١٧ توت (خطط المقريزى ج ١ ص ٢٦٦) ويذكر الأستاذ فييت أن المسيحيين جعلوا للاحتفال بالنيل معنى دينياً فكانت الكنيسة تحتفل فى يوم ١٧ توت الذى كان يوافق ١٤ سبتمبر قبل الإصلاح الجريجورى فى التقويم بذكرى إعلاء الصليب المقدس Hist. de la Nation Egypt. t. IV. pp. 177-178

(٢) Wiet: Précis t. 11. p. 144

ونعرف أن الأقباط فى مصر كانوا يحتفلون بعيد الشهيد فى اليوم الثامن من بشنس ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى ، ولكن هذا العيد أبطل فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٢ — ٧٣٨ هـ) ثم ألغى نهائيا فى سنة ٧٥٥ هـ[١] :

وفى عهد الولاة الذى نتحدث عنه كان المسلمون يشتركون مع الأقباط فى الصلاة من أجل النيل إذا ما أتى النيل ناقصا فى موعد فيضانه بحيث تصبح مصر فى خطر من قلة المياه ، فكان المسلمون يصلون صلاة الاستسقاء . كذلك كان الأقباط يصلون من أجله ففى ولاية حفص بن الوليد الثانية لى مصر من قبل هشام بن عبد الملك حدث قحط بمصر فاستسقى حفص بالناس ودعا الله سبحانه وتعالى وصلى[٢] . ويذكر ساويرس[٣] أن المسلمين والأقباط صلوا من أجل النيل عندما نقصت مياهه فى ولاية أبى عون على مصر (١٣٢ — ١٣٦هـ) .

وقد انتصر المسلمون لليعاقبة القبط على الكنيسة الملكانية فاسترد اليعاقبة أو أخذوا عددا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد أعدائهم الملكانيين . كما انتهزوا فرصة حسن علاقتهم بالمسلمين لكى يجذبوا إلى مذهبهم كثيراً من الملكانيين[٤] بل حدث فى عهد قرة بن شريك أن فرض على الملكانيين جزية مضاعفة[٥] .

(١) خطط المقريزى جـ ١ ص ٦٨ — ٧٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٩١

(٣) سير الآباء البطاركة ص ١٩٤ — ١٩٦ (٤٠٧.)

(٤) انظر سعيد بن بطريق : التاريخ جـ ٢ ص ٤٥ — ٤٦ وابن السيد : تاريخ للسلمين ص ٨٣ — ٨٤ .

(٥) Becker: Historisceh Studien pp. 864-865, Wiet: Art. Kibt p.399

أى أنه أصبح مضيقا على الملكانيين كما ضيقوا هم على الأقباط قبل الفتح . ولم يتمتع الملكانيون ببعض الحرية إلا فى فترات معينة . ففى خلافة يزيد ابن معاوية استطاع تاوضوروس أحد أتباع المذهب الملكانى فى مصر — بعد أن قدم أموالا طائلة للخليفة — أن يتسلط على الإسكندرية ومريوط وكل ما يليها كما سيطر على البطرك أغاثون وألزمه بدفع جزية سنوية مقدارها ستة وثلاثون دينارا سنويا كما ألزم البطركية اليعقوبية بالإنفاق على الأسطول[1] كذلك نجد الخليفة هشام بن عبد الملك — على أثر الاتفاق الذى حدث بينه وبين الأمبراطورية البيزنطية[2] — يرسل إلى عبيد الله بن الحبحاب يأمره بأن يسلم للملكانيين كنائسهم التى كانت فى يد اليعاقبة كما نصب بطركا لهم بعد أن كانوا قد أقاموا بغير بطرك منذ الفتح[3] كذلك عندما نجح بليطيان — البطرك الملكانى فى مصر — فى تطبيب جارية للرشيد وهب له الخليفة مالا كثيرا وكتب له منشورا ليسترد كنائس الملكانيين التى تغلب عليها اليعاقبة فاسترد بليطيان من اليعاقبة كنائس كثيرة[4] .

ولم ينكر أحد زمن الفتوحات الإسلامية التسامح الدينى الذى جرى عليه العرب فى معاملتهم لأهل الذمة . وليس أدل على ذلك مما كتبه أحد الأساقفة النسطوريين بعد بدء الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عاما إذ قال : « إن العرب الذين وهبهم الله السيادة فى أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحى قط بل يحافظون على ديننا ويحترمون

---

(١) ساويرس ص ٥ — ٦ (T.V.)

(٢) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV p. 58

(٣) سعيد بن بطريق : التاريخ ص ٤٥ — ٤٦ ، ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٨٣ — ٨٤

(٤) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ١ ص ٨٣

الأساقفة والقديسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا[1]

وهكذا نرى أن العرب تركوا القبط أحرارا فى دينهم وفى ثقافتهم وجعلوا لهم نصيبا وافرا فى إدارة بلادهم . على أن الأقباط كانوا عرضة أحيانا لبعض المضايقات التى حملت بعضهم على ترك دينهم كى يتخلصوا منها ويصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين . فالعرب كانوا يشعرون بعد هذه الفتوحات العظيمة بتفوق شعبهم على الشعوب الأخرى كما كانوا يعتزون بغلبة دينهم على الأديان الأخرى . ولم تكن هذه النزعة قوية فى السنوات الأولى للفتوحات العربية حينما كانت تغلب عليهم روح البساطة والتواضع ، ولكنها سرعان ما وضحت بعد غلبتهم على الشعوب الأخرى ، كما حدث للرومان من قبلهم . وليس أدل على هذه الروح الجديدة مما ذكره المقريزى[2] عن معاوية بن أبى سفيان فقد أثرعنه أنه قال : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف فثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالموالى والثلث الذين لا ناس المسالمة يعنى القبط » .

وقبل أن نسرد بعض ما كان يحدث للأقباط من مضايقات وشدة يجب أن نقول إن هذه المضايقات التى كانت تقع على أقباط مصر لم تكن دائمة وإنما حدثت فى فترات متقطعة كما أنها لم تكن ذات بال إذا قورنت باضطهاد المسيحيين فى مصر أيام الأمبراطور الوثنى دقلديانوس[3]

(١) Wiet Précis t.11 p. 131 (٢) خطط جـ ١ ص ٥٠

(٣) تقول مسز بتشر فى كتابها تاريخ الأمة القبطية وكنيستها جـ ٢ ص ١٠٤ « أن الأقباط منذ الفتح العربى ظلوا يذوقون من العرب مر العذاب ويسامون أنواع الظلم والعسف ويضطهدون اضطهاداً لا ينكر بجانبه اضطهاد دقلديانوس ونيرون » ولكنها بالرغم من قولها هذا لم تذكر حادثة واحدة قام بها العرب ضد الأقباط تقارن باضطهادات دقلديانوس للمسيحيين . وقد عرض الأستاذ ڤييت هذه المسألة فى مقاله عن القبط ، فى دائرة المعارف الإسلامية ، عرضا يمتاز بالانصاف والدقة العلمية .

(٢٨٤ — ٣٠٥ م) أو باضطهادهم أيام الأمبراطور هرقل المسيحى . كذلك لم تكن تلك المضايقات أيام العرب لتقارن مثلا باضطهاد كاثوليك أسبانيا للبروتستنت والمسلمين واليهود ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش فى اسبانيا باقية ما بقى التاريخ . ولنستعرض الآن بعض هذه المضايقات فى العهد العربى

ففى ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر نراه يهتم اهتماما بالغا بتعرف العلاقات التى كانت بين بطركية مصر وبين الحبشة والنوبة على أثر ما كتبه البطرك إلى ملكى الحبشة والنوبة ليزيل سوء التفاهم الذى كان بينهما . ذلك أن قوما من أهل السمايات وشوا بالبطرك لدى عبد العزيز حتى ساء ظنه به ولشدة غضبه أمر بكسر جميع الصلبان التى فى مصر وكتب عدة رقاع أمر بوضعها على أبواب الكنائس وفيها « محمد رسول الله[1] » .

وكان الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان يلى كثيراً من أمور مصر فى ولاية أبيه ولكنه كما يقول ساويرس[2] كان مبغضاً للنصارى سفاكا للدماء وكان يصحب شماسا اسمه بنيامين كثيراً ما كان يطلعه على أسرار النصارى حتى أنه ترجم له الإنجيل باللغة العربية ، وعدة كتب دينية أخرى وذلك ليعرف المسلمون إذا كان فى هذه الكتب ما يمس الدين الإسلامى بسوء .

أى أن العرب بدأوا ينظرون نظرة شك إلى الأقباط وقد دعاهم إلى هذا عدم معرفتهم للغة القبطية . ويحتمل أن التفكير فى جعل اللغة العربية ، اللغة الرسمية فى مصر يرجع إلى هذا العهد كى يضطر القبط إلى ترك لغتهم التى لم يفهمها العرب[3] وقد حدث فعلا أن جعلت اللغة العربية لغة الدواوين

---

(١) ساويرس ص ٢٤ — ٢٥ ،t.v.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٠ — ٥١

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV. p.43.

الرسمية فى مصر وذلك فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٦م) فى ولاية عبد الله بن عبد الملك وفى خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ) إذ أمر عبد الله بتدوين الدواوين فى مصر باللغة العربية بعد أن كانت تكتب باللغة القبطية[١] فجاء هذا العمل فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك تتمة لما بدأ الخليفة عبد الملك ابن مروان فى أنحاء الدولة الإسلامية .

ولعل كثيراً من أهل الذمة اضطروا إلى التخلى عن مناصبهم للعرب أو إلى المصريين الذين تعلموا اللغة العربية . وربما دعاهم ذلك إلى تعلم اللغة العربية كى يعودوا ثانية إلى المناصب التى فقدوها . وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) إحلال المسلمين محل المسيحيين حتى فى الوظائف الصغيرة[٢] ويحدثنا ساويرس[٣] عن عمر بن عبد العزيز بأنه كان يفعل خيراً عظيما أمام الناس ويفعل السوء أمام الله ، إذ أمر بإعفاء الأساقفة والكنائس من الخراج وعمر المدن التى خربت وأبطل الجبايات[٤] فعاش الأقباط فى أمن وهدوء ، ولكنه ما لبث أن أرسل كتابا يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن أعمالهم فى الدولة ما داموا على دينهم أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد . ولهذا سلم الأقباط ما بيدهم من الوظائف والأعمال إلى المسلمين . ويقول الكندى[٥] أنه فى خلافة عمر بن عبد العزيز « نزعت

(١) الكندى . ص ٥٨ — ٥٩ والمقريزى . خطط جـ ١ ص ٩٨ وأبو المحاسن جـ ١ ص ٢١٠

(٢) Becker: Historische Studien p. 365

(٣) سير الآباء البطاركة ص ٧١ — ٧٢ t.V.

(٤) الجبايات معناها الضرائب المستحدثة

(٥) الولاة والقضاة ص ٦٩

موازيت[1] القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليهم » .

وربما أدى قرار عمر بن عبد العزيز إلى إسلام كثيرين إذ ذاك كى لا يتركوا مناصبهم . مع أن القرار ذاته لا يمكن أن يكون قد استمر كثيراً بعد وفاته ؛ لأن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من مناصب الدولة . وظل بعض الموازيت يختارون من القبط . وحسبنا أن إحدى الأوراق البردية المعروفة فى هيدلبرج وتاريخها سنة ١٧١ هـ فيها اسم مازوت قبطى[2] .

وقد أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) فى سنة ١٠٤هـ بكسر الصلبان فى كل مكان وبمحو الصور والتماثيل التى فى الكنائس[3] . ولذا نرى ساويرس[4] يصفه بأنه سلك طريق الشيطان وحاد عن طرق الله.

وقد شمل هذا القرار اللا إيقونى (أو حركة كسر الصور) جميع بلاد الدولة الإسلامية وكان من نتائج هذه الحركة فى مصر أن كسرت التماثيل والصلبان ومحيت الصور ولم تنج فى هذه الحركة بعض الآثار الفرعونية من الهدم والتخريب[5] .

ويظهر أن تلك الحركة ساءت المصريين كثيراً لأنها لا تتفق ومذهبهم الدينى وقد حدث بعد ذلك بنحو مائة عام أن احتج بطرك اليماقبة فى مصر

---

(١) موازيت أى رؤساء القرى هى القراءة الصحيحة لهذه الكلمة وليست موازيث كما جاء خطأ فى طبعة كتاب الكندى

(٢) Papyri Schott Reinhardt Inv. 481

(٣) الكندى ص ٧١ . ساويرس ص ٧٣ T.V. ، خطط المقريزى جـ ٢ ص ٤٩٣

(٤) سير الآباء البطاركة ، ص ٧٢

(٥) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ص ٨٢ ، وأحمد تيمور باشا وزكى محمد حسن : التصوير عند العرب ص ١٣٠ — ١٣١
Wiet : Hist. de la Nation, Egypt. t. IV. pp. 55, 56.

ضد الامبراطور تيوفيل بن ميخائيل (٨٢٩—٨٤٢م = ٢١٤—٢٢٨ هـ) فى مشروعه اللايقونى وناظره فيه[١] .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الأمبراطور البيزنطى ليو الأيسورى أصدر قراراً بحظر الصور والتماثيل الدينية مشابها لقرار يزيد بن عبد الملك وبعد قراره بنحو أربع سنوات أعنى فى سنة ٧٢٦ م (١٠٨ هـ) . ويحتمل أن الدولة البيزنطية كانت متأثرة فى ذلك بجارتها الدولة الإسلامية[٢] .

وقد أصاب أقباط مصر كثير من الأذى أثناء الفتن التى قامت من أجل النزاع حول الخلافة . فعند ما أتى الخليفة مروان بن محمد هاربا إلى مصر ، عاث جنده فى البلاد فساداً فقتلوا جماعة من رجال الدين ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم كما أحرقوا ديارات عدة وهدموا كثيراً من الكنائس واعتدوا على كثير من الراهبات[٣] وفى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون اعتدى على الأقباط فى الإسكندرية وأحرقت مواضع عديدة لهم كما أحرقت ديارات وادى النطرون ونهبت فلم يبق بها من رهبانها إلا نفر قليل[٤] .

وعند ما بنى الخليفة المتوكل مقياساً للنيل فى جزيرة الروضة (سنة ٢٤٧ هـ) أمر بعزل النصارى عن قياسه ، فعيّن يزيد بن عبد الله التركى (والى مصر من قبله) للإشراف على المقياس أبا الرّدّاد المُعَلّم وكان من أهل البصرة ثم قدم مصر وحدّث بها . وكان يتقاضى سبعة دنانير كل شهر نظير قيامه

---

(١) خطط المقريزى : ج ٢ ص ٤٩٤

(٢) Michel le Syrien, t. 2 p 491 وأحمد تيمور باشا والدكتور زكى محمد حسن : التصوير عند العرب ص ١٣٠

(٣) ساويرس ص ١٦٣ — ١٦٤ ، أبو صالح الأرمنى ص ٩٧ ، ١٠٧ — ١٠٨ ، ابن العميد ص ٩٩ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٩٣

(٤) خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٩٣

بقياس النيل . ولم يزل المقياس فى يده حتى توفى سنة ٢٢٦ هـ ثم صار فى يد أولاده من بعده حتى عصر المماليك[١] .

على أن هنالك أموراً كان يجب على أهل الذمة إتباعها من حيث بناء الكنائس ومن حيث لباسهم وزيهم والدواب التى يركبونها وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين من الناحية الإجتماعية والأدبية . ولنستعرض الآن بعض آراء الفقهاء فيما يختص بذلك ثم نرى ما حدث فعلا فى مصر . فيذكر أبو يوسف[٢] أنه ينبغى أن تختم رقابهم فى وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل بهم عثمان بن حنيف إن سألوا كسرها وأن يتقدم فى أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسهم ولا فى مركبه ولا فى هيئته وأن يجعل فى أوساطهم الزنارات[٣] مثل الخيط الغليظ يعقده فى وسطه كل واحد منهم ، وبأن تكون قلانسهم مضربة[٤] وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس[٥] مثل الرمانة من خشب ، وبأن يجعلوا شراك[٦] نعالهم مثنية ولا يحذوا على حذو المسلمين ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل[٧] ويمنعوا من أن يحدثوا بناء بيعة أو كنيسة فى المدينة إلا

---

(١) الكندى ص ٢٠٣ والقلقشندى ج ٣ ص ٢٩٩ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٥٨ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١١

(٢) كتاب الخراج ص ٧٢ — ٧٣

(٣) الزنار والزنارة والجمع زنانير ما يشد على الوسط ، أو الحزام الخاص بأهل الذمة Dozy: Dictionnaire des noms des Vêtements p. 28

(٤) مضربة مخيطة بالقطن أى منجدة

(٥) القَرَبوس حِنْو السرج ، أى قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره . وهما قربوسان والجمع قرابيس

(٦) الشراك سير النعل على ظهر القدم

(٧) الرحالة السرج من جلود لا خشب فيه والجمع رحائل

ما كانوا صولحوا عليه وصاروا ذمة وهى بيعة لهم أو كنيسة فما كان كذلك تركت لهم ولم تهدم ، وكذلك بيوت النيران ، ويتركوا يسكنون فى أمصار المسلمين وأسواقهم ، يبيعون ويشترون ولا يبيعون خمراً ولا خنزيراً ولا يظهرون الصلبان فى الأمصار ، ولتكن قلانسهم طوالا مضربة » .

ويذكر الماوردى[1] أنه يشترط على أهل الذمة فى عقد الجزية شرطان مستحق ومستحب . أما المستحق فستة شروط أحدها أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له . والثانى أن لا يذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء . والثالث أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا قدح فيه والرابع أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح والخامس أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه . والسادس أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم . فهذه الستة حقوق ملتزمة فتلزمهم بغير شرط وإنما تشترط إشعاراً لهم وتأكيداً لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم .

وأما المستحب فستة أشياء أحدها تغيير هيآتهم بلبس الغيار[2] وشد الزنار والثانى أن لا يعلوا على المسلمين فى الأبنية ويكونون إن لم ينقصوا مساوين لهم والثالث أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم فى عزير والمسيح . والرابع أن لا يجاهروهم بشرب خمورهم ولا باظهار صلبانهم وخنازيرهم . والخامس أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة . والسادس أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا

(١) الأحكام السلطانية ص ١٣٨ — ١٣٩

(٢) الغيار علامة أهل الذمة كالزنار للمجوس ونحوه

وهجانا[١] ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير . وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملتزمة ولا يكون ارتكابهم بعد الشرط نقضاً للعهد لكن يؤخذون بها إجباراً ويؤدبون عليها زجراً ولا يؤدبون إن لم يشترط ذلك عليهم » .

هذا هو رأى اثنين من فقهاء المسلمين فيما يجب أن يكون عليه أهل الذمة من حيث زيهم وملابسهم وما يفعلونه ليتميزوا عن المسلمين وما يجب عليهم اتباعه إزاء المسلمين وإزاء بناء الكنائس وغير ذلك مما ذكرناه . وأبو يوسف عاش فى زمن الخليفة هرون الرشيد أى عند ما كانت الخلافة العباسية فى أوج عزها وقوتها . أما الماوردى فقد عاش فى عصر انحلال الدولة العباسية . وعادة تنشأ الأشياء أولا ثم يأخذ الفقهاء والعلماء فى بحثها بحثا نظريا بحتاً أو بحثاً نظريا عملياً . فأبو يوسف عند ما يتحدث عن أهل الذمة إنما يريد أن يتبع الخليفة هرون الرشيد قوله الناتج من دراسات لنظم قد اندثرت ولم تعد الخلافة تعمل بها . فنراه يخاطب الخليفة بقوله : « فمر عمالك أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى ، هكذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى وقال حتى يعرف زيهم من زى المسلمين[٢] » .

فهل اتبع مع أهل الذمة فى مصر هذه الشروط التى ذكرها أبو يوسف والماوردى ؟ عرفنا مما سبق أن عمرو بن العاص فى صلح بابليون الأول أمن الأقباط ومن يريد أن يدخل فى عهدهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وأراضيهم على أن يدفعوا الجزية حتى يصيروا أهل ذمة ولكنه لم يذكر شيئاً

---

(١) العتاق الخيل الأصيلة والهجان الخيل الغير منسبة

(٢) أبو يوسف ص ٧٣

فيما يختص بلباسهم وزيهم وما يستحدث من الكنائس وغير ذلك مما ذكره أبو يوسف والماوردى . فلم يذكر الطبرى أو مؤرخو مصر الإسلامية شيئاً من هذه الشروط الواجبة على أهل الذمة ضمن العهد الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر ولكننا نجد المؤرخين[١] يذكرون فى موضع آخر أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص « أن يختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص وأن يظهروا مناطقهم[٢] ويجزوا نواصيهم[٣] ويركبوا على الأكف[٤] عرضاً ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليهم المواسى ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم » .

وهاك نص كتاب من نصارى أهل الشام ومصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب يذكرون فيه ما عاهدوا المسلمين به من التزام الحدود ويعقبه زيادات من الخليفة عمر فقد ذكر النويرى[٥] أنه وقف على كتاب « الدر الثمين فى مناقب المسلمين ومثالب المشركين » تصنيف محمد بن عبد الرحمن بن محمد الكاتب ونقل منه نص كتاب أرسل إلى عمر بن الخطاب عن أهل الذمة . فقال : قال عبد الرحمن بن عثمان كتبنا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى نصارى أهل الشام ومصر . « لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا على أنفسنا

---

(١) ابن عبد الحكم طبع تورى ص ١٥١ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣

(٢) تنطق وانتطق وتمنطق شد وسطه بمنطقة ، المرأة شدت نطاقها على وسطها

(٣) يجزوا نواصيهم يحلقوا نواصيهم والناصية مقدم الشعر أو الرأس

(٤) أكاف الحمار بردعته . جمعها أكفة وأكف

(٥) نهاية الأرب ج ٩ ص ١٣٣٠ — ١٣٣١ (من المخطوط بدار الكتب)

أن لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان فى خطط المسلمين وأن نوسع أبوابها للمارة ولبنى السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نأوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم عينا للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى دين الإسلام إن أرادوا ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم فى مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ، ولا نتسمى بأسمائهم ، ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية ، وأن نجز مقادم رؤوسنا ، ونلزم زينا حيث كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ، ولا نفتح كتبنا فى طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب بنواقيسنا فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانيننا ولا طاغوتنا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نوقد النيران فى طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ، ولا نطلع فى منازلهم ، ولا تعلو منازلنا منازلهم » . فلما أتيت أمير المؤمنين عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحداً من المسلمين ، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم علينا وضمناه عن أنفسنا وأهل ملتنا ، فلا ذمة لنا عليكم ، وقد حل بنا ما حل بغيرنا من أهل المعاندة والشقاق » .

قال عبد الرحمن بن عثمان: «وأجمع العلماء بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أنه متى نقض الذمى عهده بمخالفة شرط من هذه الشروط المأخوذة عليهم ، فالأمام مخير فيه بين القتل والأسر ويلزمهم مع ذلك أن يتميزوا عن المسلمين فى اللباس والزى ولا يتشبهون بهم فى أمر من الأمور ويشدون الزنانير فى أوساطهم ، ويكون فى رقابهم خواتم رصاص أو نحاس أو جرس يدخل معهم الحمام ، وليس لهم أن يلبسوا العمائم والطيلسان[1] . وأما المرأة فتشد الزنار من تحت الازار وقيل من فوق الازار وهو الأولى ، ويكون فى عنقها خاتم رصاص يدخل معها الحمام ، ويكون أحد خفيها أسود ليبقى مشتهراً ظاهراً والآخر أبيض ويركبون الحمير ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون فى المجالس ولا يبدؤن بالسلام ويلجون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يعلوا بناءهم على أبنية المسلمين وتجوز المساواة ، وقيل لا تجوز ، بل يمنعون ، ويجعل الأمام عليها رجلا يكتب أسماءهم ويستوفى عليهم ما يأخذون به من هذه الشرائط .

وقال أبو هريرة . « أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة ، ولم يبق إلا ما كان قبل الإسلام وسير عروة بن محمد فهدم الكنائس بصنعاء وصانع القبط على كنائسهم بمصر وهدم بعضها ولم يبق من الكنائس إلا ما كان قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم » .

---

(١) ولكن من المتعذر أن نثبت تماماً أن هذا التميز بين المسلمين وأهل الذمة فى الزى يرجع إلى عصر عمر . فإن المراجع التى تشير إلى هذا متأخرة بعض الشىء . ولعلها تسجل ما كان متبعاً فى العصر العباسى . ومن ثم فقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه التفرقة تقررت فى عصر هارون الرشيد . انظر مادة « غيار » فى دائرة المعارف ومادة « قبط » للأستاذ فييت فى المرجع نفسه

وهكذا يظهر أنه منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه اشترط على أهل الذمة شروط خاصة أهمها ما يتعلق بزيهم ولباسهم كى يتميزوا عن المسلمين . كذلك منعوا من بناء كنائس أو أديرة أو صوامع مستحدثة ومن تجديد ما خرب منها .

لكن مؤرخى مصر الإسلامية وإن كانوا قد ذكروا ذلك إلا أنهم لم يذكروا إلى أى حد اتبعت تلك الشروط ونفذت مع أهل الذمة والأرجح أن الخلفاء فى فجر الإسلام لم يلزموا أهل الذمة بتنفيذها لأننا رأينا أن هناك كنائس وأديرة بنيت فى مصر فى العهد الإسلامى كما جدد بناء كنائس أخرى . ويذكر ابن عبد الحكم[1] أن أول كنيسة بنيت فى فسطاط مصر كانت أيام مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢هـ) ولكن الجند أنكروا عليه ذلك وكادت تقع فتنة بينه وبينهم .

على أننا نجد الخلفاء أو الولاة يأمرون أحيانا بإقفال حانات الخمور وبهدم الكنائس المستحدثة بعد الإسلام . ففى ولاية أيوب بن شرحبيل على مصر (٩٩ — ١٠١ هـ) عطلت حانات الخمر وكسرت بأمر أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز[2] وفى ولاية على بن سليمان العباسى فى مصر (١٦٩ — ١٧١ هـ) من قبل الخليفة الهادى ثم الرشيد منع الملاهى والخمور وهدم الكنائس المحدثة بمصر .

وكتب الكندى أن نصرانيا بمصر سب النبى صلى الله عليه وسلم فى ولاية على بن سليمان وكان قاضى مصر إذ ذاك المفضل بن فضالة ، فكتب فيه

(١) فتوح مصر طبعة تورى ص ١٣٢
(٢) الكندى ص ٦٨ وأبو المحاسن ج ١ ص ٢٣٨

المفضل بن فضالة إلى مالك بن أنس رحمه الله يسأله عن قتله فكتب مالك يأمر بقتله وتم هذا القتل[١] . ولسنا ندرى هل كان القضاة مكلفين باستشارة أهل الفتوى أم أن القاضى استشار الإمام فى هذه المسألة خوفا من أن ينفرد برأيه فيها لخطورتها .

وقد تهاون معظم الخلفاء فى تنفيذ الشروط التى ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه ألزم أهل الذمة باتباعها . كما أصدر بعض الخلفاء شروطا مثلها بعضها يخص أهل الذمة فى جهة معينة وبعضها يخص أهل الذمة فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ومن بينها مصر . فيذكر أبو يوسف[٢] أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) كتب إلى عامل له . « أما بعد فلا تدعن صليبا ظاهرا إلا كسر ومحق ، ولا يركبن يهودى ولا نصرانى على سرج وليركب على إكاف ، ولا تركبن امرأة من نسائهم على رحالة ، وليكن ركوبها على إكاف ، وتقدم فى ذلك تقدما بليغا وامنع من قبلك فلا يلبس نصرانى قباء[٣] ولا ثوب خز[٤] . ولا عصب[٥] وقد ذكر لى أن كثيرا ممن قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام[٦] والوفر ، وتركوا التقصيص . ولعمرى لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة ، وإنهم حين يراجعون ذلك

---

(١) الكندى ص ٣٨٢

(٢) كتاب الخراج ص ٧٣

(٣) القَبَاء — ثوب يلبس فوق الثياب . الجمع أقبية والقباء كالفرجية فى أيامنا ويلبس تحته الجبة (Dozy : Dictionaire des Vêtements p 852)

(٤) الخز — الحرير . ما نسج من صوف وحرير . الجمع خزوز

(٥) العَصْب — العمامة . والعَصبة والعِصَابة ربما كانت تعنى قديماً نوعاً من العمائم (Dozy : op. cit. p. 300-301)

(٦) الجُمَّة — مجتمع شعر الرأس . الجمع جمم ، والجمة معظم الشىء أو الكثير منه

ليعلمون ما أنت ، فانظر كل شيء نهيت عنه فاحسم عنه من فعله والسلام »
ولا يذكر أبو يوسف العامل الذي وُجّه إليه هذا الكتاب ؛ ولكننا نتبين منه أن عمر بن عبد العزيز شعر في عهده أن الشروط التي كان أهل الذمة قد ألزموا باتباعها نقضت فأراد إلزامهم بها ثانية . ولا نعرف إذا كانت مصر في ذلك الحين قد شملها هذا القرار أم لا . ولكن يظهر أن أوامر عمر بن عبد العزيز شملت أنحاء الدولة الإسلامية وإن لم يذكر لنا مؤرخو مصر الإسلامية ذلك ، فقد رأينا أن هذا الخليفة أمر بتعطيل حانات الخمور في مصر كما أمر بعزل الأقباط عن تولي مناصب الدولة ولا نستبعد أن تكون شروط تمييز أهل الذمة عن المسلمين في زيهم وركوبهم قد روعيت تماما في عهده ولا أدل على مبلغ كراهية نصارى مصر له من تلك الكلمات التي يصفه بها ساويرس[1] إذ يقول إنه كان يصنع خيرا عظيما أمام الناس ويفعل السوء أمام الله .

وقد جاء في الطبري أن الخليفة هرون الرشيد أمر (١٧٠ — ١٩٣ هـ) في سنة ١٩١ هـ بهدم الكنائس بالثغور وكتب إلى السندي بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم[2] .

وكانت أوامر الرشيد كما يظهر من النص قاصرة على كنائس الثغور وعلى أهل الذمة ببغداد أي أن مصر ومعظم الدول الإسلامية لم تدخل ضمن هذا القرار . ولا نعرف إذا كان الرشيد في أوامره هذه أراد أن يجدد ما ينسب إلى عمر بن الخطاب أو أن ذلك كان بمثابة رد على اعتداء الدولة

---

(١) سير الآباء البطاركة ص ٧١ (Patr. Orient. t. V.)

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ١٠ ص ١٠٠

البيزنطية على الثغور الإسلامية ونحن نرجح الرأى الثانى لأن الرشيد عرف بالتسامح ، كما بنيت فى عهده عدة معابد مسيحية فى بيت المقدس على نفقة الامبراطور شارلمان الذى كان محالفا للخليفة الرشيد [١] .

ويظهر أن أقباط مصر أو أهل الذمة على وجه الاجمال من أقباط ويهود وغيرهم ، لم يضيق عليهم فى الزى والركوب وبناء الكنائس وغير ذلك مما ينسب بدءه إلى عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز إلا فى النادر . إلى أن جاء الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) . ففى سنة ٢٣٥ هـ « أمر المتوكل بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالسة العلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبكون السروج كهيئة الأكف ، وعلى رؤوسهم القلانس المختلفة الألوان ، وأن تخيط الرقاع على ظهورهم وصدورهم كل رقعة قدر أربع أصابع ولونها عسلى ، وأزر نسائهم عسلى ، وملبس مماليكهم مثلهم ويمنعوا من لبس المناطق وهدم بيعهم المحدثة ، وأخذ العشر من منازلهم فان كان الموضع واسعا صير مسجدا وأن كان لا يصلح أن يكون مسجدا صير فضاء وأمر أن تجعل على باب دورهم أساطين [٢] وقيل شياطين من خشب مسمورة تفريقا بين منازلهم ومنازل المسلمين ، ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين وأن يعلمهم مسلم ، ونهى أن يظهروا فى أعيادهم وشعانينهم صليبا وأمر أن تسوى قبورهم بالأرض لئلا تشبه قبور المسلمين وكتب الكتب إلى عماله فى الآفاق بذلك . [٣]

---

(١) G. Wiet: Hist. de la Nation Egypt. t.IV. p. 25

(٢) الأسطوانة : العمود والجمع أساطين

(٣) بيبرس الدوادار — زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة جـ ٤ ص ١٧٣ ب — ١٧٤ ا وخطط المقريزى جـ ٢ ص ٤٩٤

« ثم أمر أهل الذمة فى سنة ٢٣٩ هـ بلبس دراعتين[1] عسليتين على الدراريع والأقبية ، وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين »[2]

ولم تكن أوامر المتوكل جديدة ، وإنما كانت تجديداً لما سبق كما رأينا . فالذميون ألزموا قبله بأمور تميزهم عن المسلمين فى الزى والركوب وبشروط خاصة ببناء الكنائس وغير ذلك مما ذكرنا . ولكن الخلفاء وولاتهم فى مصر كانوا يتساهلون فى تنفيذها فى معظم الأحيان . وقد حدث فى عهد هرون الرشيد أن ولى القضاء محمد بن مسروق الكندى ، وتحامل على أهل مصر فأمعنوا فى الطعن فيه ، ودعوا عليه فى المساجد . فوقف على باب المقصورة وصاح قائلا : « أين أصحاب الأكسية العسلية ، أين ... ... ؟ لم لا يتكلم متكلم بما شاء حتى يرى ويسمع ؟ فما تكلم أحد بكلمة[3] » . وربما قصد القاضى بقوله « أصحاب الأكسية العسلية » التحقير من شأن أهل الذمة الذين انحدر منهم المصريون المسلمون .

ولكنا نلاحظ على وجه الإجمال أن هذه الأوامر كانت تنفذ فى حين صدورها بدقة ، ولكن التمسك بها كان يقل تدريجياً ، وكثيراً ما كان يتسامح مع أهل الذمة فى بناء الكنائس وفى الاحتفال بأعيادهم . بل نجد الخلفاء فى عصر متأخر يشاركون أهل الذمة فى الاحتفال بأعيادهم الدينية . ومما يشهد بهذا التسامح أننا نقرأ فى كتاب أحد بطاركة بيت المقدس بعد المراسيم التى أصدرها المتوكل بنحو عشرين سنة ، أى فى سنة ٨٦٩ م

---

(١) الدراعة والجمع دراريع جبة مشقوقة المقدم

(٢) البرذون — التركى من الخيل

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص . ٣٩

(٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) — ما نصه « إن المسلمين يظهرون كثيراً من العطف نحونا بالسماح لنا ببناء كنائسنا » .

"Multam Benevolentiam ostendunt (Saraceni) in nos, licentiam nobis praebentes aedificandi ecclesias nostras.[1]"

والواقع أن العصبية الدينية تغلبت على العرب بعد الفتح وتغلب عليهم الشعور بعزتهم وتفوقهم على غيرهم من الشعوب بعد أن أنشأوا امبراطوريتهم الإسلامية بحد السيف فرأوا أن يتميزوا عن غيرهم فى اللباس والزى والركوب وغير ذلك مما يشعر فى الوسط الاجتماعى بأنهم هم السادة وغيرهم دونهم . كما أنهم ، وقد أصبحت البلاد التى فتحوها ملكا للمسلمين ، رأوا أن ليس عليهم أن يبنوا كنائس فيها ، ويكفيهم أن يبقوا على ماوجدوه منها ، وألا يتدخلوا فى شئون أهل الذمة الدينية .

وربما كانت هذه الامتيازات الاجتماعية والأدبية للمسلمين على أهل الذمة سبباً كما قلنا فى أن كثيراً من المسيحيين أقدم على اعتناق الدين الإسلامى ، ولا يمكننا القول بأن إسلام هؤلاء الذين يريدون التخلص من تلك المضايقات كان صحيحا ؛ ولكن ذريتهم كانت تنشأ فى الوسط الإسلامى فيعتزون بدينهم الإسلامى ويندمجون فى الجماعة الإسلامية تماماً .

وقد كتب المستشرق آدم متز [٢] أن مسألة ختم رقاب أهل الذمة عادة قديمة ترجع إلى عصر الأشوريين الذين كانوا يعلقون فى رقاب العبيد قطعة من الفخار اسطوانية مكتوباً عليها اسم العبد واسم سيده . وكان اليهود فى عهد التلمود يعلمون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب . وفى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد كان حاكم مدينة الرّها يعلق إلى رقبة الفقراء الذين يأخذون

(١) Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV. p. 25

(٢) الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٧٧

رطل خبز كل يوم قطعة من الرصاص مختومة

ويظهر ان عادة ختم الرقاب أو الذراع لم تكن مستهجنة ولم تكن موجبة للعار فى العصور الوسطى إذا ما اتبعت مع أصحاب الطبقات الوضيعة ويذكر ابن بطوطه [١] فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) عند وصفه لمدينة دمياط أنه « إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالى ، فمن كان من الناس معتبراً طبع له فى قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » .

وهكذا نرى أن أهل الذمة عوملوا معاملة الطبقات الدنيا مهما كانت ثروتهم أو مراكزهم فى الدولة مما حمل الكثير على الرغبة فى التخلص من تلك المضايقات .

الأقباط والنظام المالى

كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترمى إلى استغلال مصر استغلالا منظما ، وإن اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال ، إذ بينما نرى بعض الخلفاء أو ولاتهم يشتط فى جمع الضرائب نرى البعض الآخر يرى أن من مصلحة الراعى أن يقص صوف غنمه وليس من مصلحته أن يسلخها . وحسبنا أن نشير فى هذه المناسبة إلى ما ذكره الماوردى [٢] من أن « الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب إليه : لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما » فإن هذا

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦٠
(٢) الأحكام السلطانية ص ١٤٣

مثل يرينا كيف كانت سياسة هذا الخليفة ترمى إلى عدم تحميل البلاد فوق ما تحتمل كيلا يجف معينها ويؤثر ذلك على مالية الدولة ولكن بعض الخلفاء لم يراع هذا المبدأ وراحوا يبتزون كل ما تملك البلاد ، فنرى الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦هـ — ٥٩٩م) يكتب إلى أسامه بن زيد التنوخى متولى خراج مصر « أحلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينصرم[1] » وقد ظهر اهتمام الخلفاء بثروة مصر عقب الفتح مباشرة ، فيذكر ابن عبد الحكم[2] عن هشام بن أبى رقية اللخمى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال للقبط : إن من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته . وسمع عمرو بأن أحد أهالى الصعيد يقال له بطرس عنده كنز فلما سأله أنكر ذلك ، وعندما تبين لعمرو ابن العاص صحة ما سمعه عنه أمر بقتله . فلما سمع بذلك الأقباط أخرجوا كنوزهم خوفا من القتل . ولا نستطيع أن نتبين من هذا النص هل كان هذا نوعا من الاغتصاب ، وهذا ما نستبعده وخاصة زمن الفتح ، أو كان الغرض من معرفة الكنوز حسبان ذلك فى تقدير الجزية ، أم كان القبط ملزمين بتقديم جزء من كنوزهم للمساهمة فى أمور الدولة ولتقدير ما يفرض عليهم من الضرائب الأخرى غير الجزية . كل هذا لا نستطيع استخلاصه من المصادر التى بأيدينا .

ويظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية . ولذا كانت الجزية سببا فى إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها وهذا طبعا معناه نقص فى دخل الدولة . وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفة مقدار الجزية على من بقى من الأقباط على دينه حتى لقد قيل إن

(١) أبو المحاسن ج ١ ص ٣٣١

(٢) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ٨٣

الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى حيان بن سريج عامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم[١] . وإذا كان هذا النص صحيحاً وإذا كان الأقباط الأحياء يكلفون بجزية من مات منهم فلا نستبعد أن يحملهم الخلفاء يتحملون جزية من أسلم منهم . ولا نستطيع أن نعرف بالتقريب ما هى نسبة نقص الجزية بسبب اعتناق الأقباط الدين الإسلامى لأن المؤرخين كثيرا ما يجمعون بين الجزية والخراج فيقال إن عمرو بن العاص جبى من مصر ١٢ مليون دينار وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان ٢٤ مليون دينار وقد سر عثمان بن عفان من ذلك وعاتب عمرو بن العاص فى هذه الكلمات :

« يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول فقال عمرو : « أضررتم بولدها » ويذكر آخرون أنه قال : « ذلك أن لم يعت الفصيل[٢] » ويذكر المقريزى[٣] أن الذى جباه عمرو ثم عبد الله إنما هو من الجماجم[٤] خاصة دون الخراج .

وعندما زاد التحول إلى الدين الإسلامى بلغ خراج الأرض مع جزية الرءوس فى أيام معاوية بن أبى سفيان خمسة ملايين دينار وبلغ فى أيام هرون الرشيد أربعة ملايين دينار وبعد ذلك أصبح ما يجبيه الخلفاء حوالى ٣ ملايين

---

(١) ابن عبد الحكم . طبعة تورى . ص ١٥٤ وخطط المقريزى ج ١ ص ٧٧ يقول الماوردى فى كلامه عن أهل الذمة والجزية « ومن مات منهم فيها أخذ من تركته بقدر ما مضى منها ومن أسلم منهم كان ما لزم من جزيته ديناً فى ذمته يؤخذ بها . وأسقطها أبو حنيفة بإسلامه وموته » الأحكام السلطانية ص ١٣٩

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة تورى ص ١٦١ وخطط المقريزى ج ١ ص ٩٨

(٣) الخطط ج ١ ص ٦٨

(٤) يقصد بالجماجم هنا جزية الرءوس

دينار[1] إذا استثنينا فترات معمنة .

ونشهد المكاتبات التى دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص عقب الفتح مباشرة على مدى الاهتمام بجباية أموال مصر ؛ فعندما بلغ عمر بن الخطاب أن المقوقس جباها قبل عمرو بستة وعشرين مليون دينار وأن عمروا جباها اثنى عشر مليون دينار كتب الخليفة إلى عمرو يستبطئه فى الخراج . وهذا ما دار بينهما من المكاتبات :

كتب الخليفة إلى عمرو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص . سلام عليك فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فأنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنهـا لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب ، ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ، ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى . ولست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدرى مع ذلك ما الذى أنفرك من كتابى وقبضك ؟ فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا إن البراءة لنافعة ولئن كنت مضيعا نطفا إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العـام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلىّ ذلك ، قد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليه وتلفف اتخذوك كهفا وعندى بأذن الله

(١) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣٩

دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فأن النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنه تلجلج فأنه قد برح الخفاء والسلام[1] ».

فكتب إليه عمرو بن العاص . « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص . سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام ، ولعمري للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلباً قطع ذلك درها وأكثرت في كتابك وأنبت وعرضت وثربت وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فجئت لعمري بالمفظعات المقذعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به سيئاً فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قيلنا ، معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم. فأقبض عملك فإن الله قد نزهني من تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخا . والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد لنفسي غضباً ولها إنزاها وإكراما وما عملت من عمل أرى عليّ فيه متعلقاً ولكني حفظت مالم تحفظ

---

(١) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٥٨ — ١٥٩ وخطط المقريزي جـ ١ ص ٧٨ والسيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٤

ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل والسلام[١] .

ولم تقف المكاتبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فيما يختص بالخراج عند هذا الحد . فقد عاود عمر بن الخطاب الكتابة فكتب إلى عمرو « سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبي إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلىّ ببنيات الطرق وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ، ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابى فأحمل الخراج فإنما هو فىء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام[١] » .

فكتب إليه عمرو بن العاص . « بسم الله الرحمن الرحيم . لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص . سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم أنى أعيذ عن الحق وأنكب عن الطريق وأنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم فنظرت المسلمين فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام[١] » .

هذه الرسائل ترينا إلى أى حد كان الخليفة يهتم بخراج مصر وأنه كان يريد أن يجبي مثلما كان يجبيه الروم من قبل . ولذا نجد أن المصريين سرعان

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩ — ١٦١ طبعة تورى وخطط المقريزى ج ١ ص ٧٨ و ٧٩ و السيوطى : حسن المحاضرة ص ٦٤ — ٦٥

ما عادوا إلى ما كانوا فيه تحت حكم الروم فوقعوا تحت الأعباء المالية الكثيرة التى تطلبتها الخلافة وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت المال وللمنتفعين من الولاة والموظفين أيضاً . ونلاحظ أن انتفاع مصر بدخلها فى العصر الأموى كان أكثر منه فى العصر العباسى لأن الولاة كانوا أكثر استقرارا من ولاة العصر العباسى . أما فى العصر العباسى فقد اضطربت الأحوال المالية وذلك لكثرة تغيير الولاة وبسبب إقطاع مصر لبعض قواد الترك أو أولياء العهد فكان همّ الوالى جمع ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولا وللخلافة أو لصاحب الإقطاع ثانيا .

ولنستعرض الآن الفترات التى أشتد التحول فيها إلى الدين الإسلامى بسبب المشاكل المالية ولنبدأ بولاية عبد العزيز بن مروان الذى كان يمثل الخليفة عبد الملك بن مروان فى مصر (٦٥ — ٨٦ ﻫ) .

كان عهد عبد العزيز بن مروان عهد رخاء ويسر فى مصر . فقد اهم بترقية شئون البلد وأدخل فيها اسلاحات كثيرة . كما عرف بالجود والكرم وكان يقول . « واعجبا من مؤمن يوقن أن الله يرزقه ويوقن أن الله يخلف عليه كيف يدخر مالا عن عظيم أجر أو حسن سماع[١] ! » ويقال إنه كان لعبد العزيز بن مروان ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة تحمل على العجل ويطاف بها على قبائل مصر . وفى ذلك يقول الشاعر:

كل يوم كأنه يوم أضحى عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات كل يوم تمدها ألف قدر[٢]

ولا ريب أن مثل هذا الشعر وغيره يشهد بما كان له من جود وافر على

(١) أبو المحاسن ج ١ ص ١٧٥
(٢) الكندى ص ٥١ — ٥٢

ما فيه من مبالغة صريحة ليست غريبة عند المؤرخين فى العصور الوسطى .

وقد بنيت كنائس عدة فى عهد عبد العزيز كما عرفنا سابقاً ، كذلك جدد عبد العزيز بناء المسجد الجامع وزاد فيه [١] ، كما أنفق مالا كثيراً فى بناء مدينة حلوان ، يقال إنه بلغ مليون دينار [٢] وقد زيدت أعطيات الجند فى عهده [٣] كما اشتركت مصر فى القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وقد تطلب هذا كله كثرة الإنفاق والأموال الكثيرة حتى قيل إن عبد العزيز بن مروان كان يجبى خراج مصر أسبوعياً خوفاً من فتنة تنزل به يحتاج فيها إلى المال . ولم يزل على ذلك حتى قتل عبد الله بن الزبير وتم الأمر لعبد الملك بن مروان [٤]

وكانت نتيجة حاجة هذا الوالى إلى المال أن اتجه إلى شيء لم يتجه إليه أحد من قبل ، فأمر بإحصاء [٥] جميع الرهبان فى كل الكور وفى وادى النطرون وسائر الأماكن وفرض ديناراً جزية على كل راهب وأمر ألا يترهب أحد بعد من أحصاه ، وكانت هذه أول جزية أخذت من الرهبان [٦] . ويقال إنه ألزم أساقفة الكور أن يؤدوا ألفى دينار سنوياً

---

(١) الكندى ص ٥١

(٢) سعيد بن بطريق : التاريخ ج ٢ ص ٤٠

(٣) الكندى ص ٤٩

(٤) سعيد بن بطريق ج ٢ ص ٤١ Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne p. 47.

(٥) ونذكر هنا أن بعض المخطوطات كان فيها تصحيف فى كلمة « أحصى » أو أن خطأ أدى إلى قراءتها « أخصى » فشاء بعض المستشرقين أن يستنبط منها توحش المسلمين فى هذه المناسبة . ولكن فطن إلى هذا الخطأ مستشرقون آخرون كالأستاذ فييت فى مقاله Kibt فى دائرة المعارف الإسلامية . أنظر ساويرس Patr. Orient. t.V. p.51

(٦) ساويرس ص ٥١ (t.V.) وخطط المقريزى ج ٢ ص ٤٩٢

Wiet : art. Kibt (Encyclopaedia of Islam) p. 993.

بالإضافة إلى خراج أملاكهم [١] ؛ ويُذكر أن بنيامين الشماس الراهب الذى كان مصاحباً للأصبغ بن عبد العزيز هو الذى كان يحرضه على كل بلاء ضد الأقباط .

ونحن نعلم أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك ، وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن الرومان ، ففضل الكثيرون أن يعيشوا فى عزلة عن العالم منفردين أو جماعات فى أديرة . ولما كان الراهب لايملك شيئاً ويعيش فى عزلة عن العالم ، لذا لم تفرض عليه أى ضريبة . على أن الأديرة التى كانت تزداد كثرة على مر الأيام مالبث أن وقف عليها أملاك كثيرة وزادت ثروتها ، ولكن الحكومة فى عهد الرومان والبيزنطيين لم تكتف باعفائها من الضرائب ، بل كانت تدفع لها قدراً معيناً من الإيرادات المالية [٢] .

فلما فتح العرب مصر حافظوا على ما كان موجوداً قبلهم من التقليد الذى يحرم فرض أية ضريبة أو جزية على الرهبان . وبذلك وجدت تحت حكم العرب من أول الفتح طبقة ممتازة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية . وقد لجأ كثير من الأقباط إلى هذه الأديرة كى يتخلصوا من الضرائب [٣] . ففطنت الحكومة إلى ذلك وبادرت بإحصاء الرهبان ، وفرضت عليهم جزية الدينار التى أشرنا إليها .

ولما احتاج عبد العزيز بن مروان إلى المال لجأ إلى الأديرة التى أصبحت تملك ثروات ضخمة ، ففرض على رهبانها جزية سنوية كى يسد بذلك عجز

---

(١) ساويرس ص ٢ ه (١٠٧٠)

(٢) Munier : L Egypte Byzantine. p. 77

(٣) Wiet : Precis de L'hist. d'Egypte. t. 11. p. 132

ميزانية الدولة[١] ، وكان من أثر هذا أن اعتنق الكثيرون الدين الإسلامى .

وبعد وفاة عبد العزيز ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ ولم تمض بضعة أشهر حتى توفى الخليفة عبد الملك بن مروان ، وبويع بعده بالخلافة ابنه الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦) فأقر الوليد أخاه عبد الله على ولاية مصر حتى سنة ٩٠ هـ . وقد تشدد عبد الله بن عبد الملك على الأقباط فى الأمور المالية . فألزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار أو يعتقله فلقى البطرك مشقة عظيمة فى جمع هذا المال من الأساقفة والرهبان والأقباط على العموم ، كذلك زاد عبد الله الخراج على المصريين ، فمن كان يدفع ديناراً خراجاً ألزمه بدفع دينار وثلثين ، حتى أن كنائس كثيرة سرى إليها الخراب لهذا السبب[٢] ، وقد زاد وطأة ذلك الوالى على المصريين ما حدث فى أيامه من الغلاء ، وذلك على أثر انخفاض النيل[٣] فى سنة ٨٧ هـ .

والظاهر أن هذا الوالى عمد إلى ابتزاز الأموال ، ولا سيما من القبط وربما أسلم نفر منهم ليتخلص من هذه الأعباء ، وقامت فى عهده حركة مقاومة سلبية ضد هذه السياسة المالية من جانب الذين ضايقتهم الأعباء المالية والذين لم يريدوا تغيير دينهم بسببها . فأخذ بعض الأفراد يهربون إلى مناطق أخرى غير تلك التى كانوا مقيدين فيها بعد أن وجدوا ألا فائدة

---

(١) ذكر أبو يوسف فى كتاب الخراج (ص ٧٠) أن المترهبين إذا كان لهم يسار أخذت منهم الجزية ، وإن كانوا مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار منهم لم تؤخذ منهم

(٢) ساويرس ص ٥٤ — ٥٥ (T.V.)

(٣) الكندى ص ٥٩ والمقريزى : إغاثة الأمة ص ١١ . وأبو المحاسن ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١

من الاعتصام فى الأديرة . غير أن هذا الوالى ومن جاء بعده تشددوا فى مراقبة هذه الحركة التى كانت تثير الفوضى فى البلاد ، فضلا عن تأثيرها فى مالية الدولة . فأمر عبد الله بن عبد الملك بوسم الغرباء الذين وجدوا فى الأقاليم المختلفة على أيديهم وجباههم وأرسلهم إلى مواضع مختلفة (١) .

وولى مصر بعد عزل عبد الله بن عبد الملك فى سنة ٩٠ هـ قرة ابن شريك ، وظل على ولايتها إلى أن مات بها فى سنة ٩٦ هـ . ويذكر ساويرس أن قرة أنزل بلايا عظيمة بالمسلمين والنصارى على السواء ، وبالكنائس والرهبان (٢) . وكتب المقريزى عن قرة أنه « أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها » (٣) . وتكثر النصوص والروايات من التحدث عن ظلم قرة بن شريك وعسفه ، فيذكر أبو المحاسن أن قرة كان سيء التدبير ، خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً متهتكا » (٤) . وقيل إن عمر ابن عبدالعزيز رضى الله عنه ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد بن عبد الملك ، فقال : « الحجاج بالعراق ؟ والوليد بالشام ؟ وقرة بن شريك بمصر ! وعثمان بالمدينة ! وخالد بمكة ! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فأرح الناس » (٥) . ولكن أوراق بردى كوم اشقاو ، التى عثر عليها فى سنة ١٩٠١ تشهد بأن هذه الروايات غير صحيحة فى مجملها فإن قرة لم يكن بالرجل الظالم أو الفاسق . وقد رأينا فى كلامنا عن النظام الإدارى فى مصر كيف كان قرة يهتم بعدالة حكام الأقاليم المختلفة وعدم

---

(١) ساويرس ص ٦٥ (T.V.)
(٢) ساويرس ص ٥٧
(٣) الخطط جـ ٢ ص ٤٩٢
(٤) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢١٧ . فى طبعة دار الكتب « منهمكا »
(٥) المرجع نفسه ص ٢١٨

الإجحاف بأهل الذمة . فيأمر عماله فى الأقاليم ألا يقدروا على أهل الذمة ضرائب فوق طاقتهم أو أقل مما يستطيعون أداءه[١] ، كما يهدد عماله بعقابهم أشد العقاب إذا ظلموا الأهالى فى تقدير الضرائب المفروضة عليهم[٢] ، كذلك يحذر عماله من قبول الرشوة من الأهالى[٣] ، وفضلا عن ذلك فقد كان قرة بن شريك يتدخل فى كل كبيرة وصغيرة ، ويراقب الأمور فى البلاد مراقبة شديدة ، ويجتهد فى المحافظة على نشر الأمن فى البلاد والعدل بين الرعية . كما كان يهتم بمراقبة التموين فى البلاد ، فنراه يجتهد فى منع غلاء الطعام بالفسطاط[٤] ، ونجده يتجاوز أحياناً عن بعض ما كان يدفع كل عام من الجزية ، فيقبل من أهل الذمة أقل مما اعتادوا دفعه كل عام رفقاً بهم[٥] . ومع ذلك نراه يشدد فى طلب المتأخر من الجزية التى لم تدفع منذ عهد الوالى الذى سبقه[٦] ، ويأمر عماله على الأقاليم بأن يقدموا له سجلات بأسماء القرى والأقاليم المختلفة ، وإحصاء الرجال والجزية الواجبة عليهم وما يملكه كل رجل من الأراضى والخدمات التى يؤديها[٧] . ولكنا نراه أحياناً يفرض ضرائب غير عادية[٨] .

وكان جباة الضرائب من أهل الذمة[٩] كما كان حكام الكورات

(١) Bell : Translation of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam, Band 11.) p. 282.

(٢) Bell : op. cit. p. 282

(٣) Bell : op. cit. p. 270

(٤) Becker : (Der Islam. Band 11.) p. 256, Grohmann : Arabic Papyri vol. 111. p. 8

(٥) Becker : op. cit. pp. 253-254, Grohmann : op. cit. p. 16-17

(٦) Becker : op. cit. d.267, Grohmann : op. cit. p. 48

(٧) Bell : op. cit. p. 272

(٨) Bell; op. cit. p.272

(٩) Bell : op. cit. (Der Islam, Band 1V) p. 92

المختامة منهم . وقد رأينا أن العرب تركوا معظم وظائف الدولة فى أيدى الذميين على أن هـذا النظام لم يكن من مميزات حكومة قرة أو العهد الأموى ، وإنما كان من مميزات النظام المالى نفسه ، الذى تركه البيزنطيون لخلفائهم العرب[١] .

ويذكر ساويرس[٢] أن قرة فرض على البلاد مائة ألف دينار سوى خراجها المعروف وقد استمرت فى عهد قرة حركة الهرب التى بدأت فى ولاية عبد الله بن عبد الملك بل إنها اتخذت فى عهده شكلا واسعاً فكانت أسرات بأسرها رجالا ونساء وأطفالا تهرب من مكان إلى مكان ، لا تستقر فى مكان معين وذلك فراراً من دفع الضرائب . واضطر قرة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه[٣] .

وتلقى أوراق بردى كوم اشقاو شعاعا من النور على هـذه الحركة التى كان محورها الزراع أو الجالية[٤] وكان الوالى يأمر باعادتهم إلى قراهم الأصلية[٥] . فنراه يكتب إلى صاحب أشقوه أنه علم بوجود جالية بأرضه ويطلب منه أن يرد الجالية — أى الهاربين — إلى أرضهم الأصلية[٦] ونراه

(١) Lammens : Un Gouverneur Omaiyade. p. 115.

(٢) سير الآباء البطاركة ص ٦٤ (T.V.)

(٣) المرجع نفسه ص ٦٤

(٤) قيل لأهل الذمة الجالية لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجلاهم عن جزيرة العرب ولزمهم هذا الاسم أينما حلوا ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد وإن لم يجلوا عن أوطانهم . ويقال استعمل فلان على الجاليــة أى على جزية أهل الذمة (لسان العرب)

(٥) لم يكن هذا جديداً فى التاريخ المصرى فكثيراً ما كان الفلاحون يهجرون قراهم فى العصر البيزنطى فراراً من دفع الضرائب . أنظر **Lammens: Un Gouverneur Omaiyade... p. 107**

(٦) Grohmann : Arabic Papyri. vol. 111 p. 24

يرسل مندوبين للنظر فى حركة الهرب ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم وأن يرسل معهم رجالا ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا فى حضرتهم بكتابة أسماء الهاربين وألقابهم وليبينوا أيضاً من أين هرب كل شخص والى أى جهة ذهب . وذلك لحصر الذين عادوا إلى قراهم والذين سمح لهم بالاستقرار على أن يؤدوا الضرائب ، وليقوموا على وجه الإجمال بالاستفسار عن كل ما يجب أن يعرف . ثم يعود قرة فيطلب من صاحب الكورة أن يأمر هؤلاء الرجال بالعمل فى هذه المسألة بجد ونشاط وألا يقبل أحد منهم هدية أو رشوة من أى شخص وإلا فسيحل العقاب بصاحب الكورة كما سيحل بالرجل المذنب[١] وفى كتاب آخر لقرة نراه يطلب من صاحب أشقوه أن يرسل إليه الهاربين مع عائلاتهم وكل ما معهم من أشياء وأن يعد سجلا يكتب فيه أسماء الأشخاص الذين أرسلوا ، وفى أى موضع من كورته هربوا ، وأملاك كل شخص ، والوقت الذى أمضاه كل شخص فى كورته ، وكل شىء يعرفه عن الهاربين دون كذب أو محاباة ، وأن يرسل كل الأشخاص وهذه المعلومات مع المندوب الذى أرسله قرة لهذا الغرض ، ويهدده بأشد العقاب الجثمانى والمالى إن هو توانى عن النظر فى هذه المسألة وتغافل عن أحد الهاربين كما يهدد الأشخاص الذين يوجد بينهم أحد الهاربين بغرامة مالية كبيرة فوق مقدورهم[٢] .

وظل قرة يتابع تلك الحركة بنشاط كى يقضى عليها إلى أن مات سنة ٩٦ هـ . وفى عهد خلافة سليمان بن عبد الملك كان المتولى على خراج مصر

---

(١) Bell : Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam, Band 11.) p. 270

(٢) Bell : op. cit. pp. 274-275

أسامة بن زيد التنوخى فكتب إليه سليمان بن عبد الملك « احلب الدر حتى ينقطع ، واحلب الدم حتى ينصرم[١] » أى أن سياسة هذا الخليفة كانت سياسة استغلال لموارد مصر إلى أقصى حد ممكن وقد وجد من أسامه خير منفذ لأوامره . وقيل إن سليمان بن عبد الملك قال يوما وقد أعجبه فعل أسامة ابن زيد : « هذا أسامة لا يرتشى ديناراً ولا درهما » . فقال له ابن عمه عمر ابن عبد العزيز بن مروان : « أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشى ديناراً ولا درهما » . قال سليمان : « ومن هو » ؟ قال عمر : « عدو الله إبليس » فغضب سليمان وقام من مجلسه[٢] .

نفذ أسامه بن زيد تعليمات الخليفة بكل دقة واشتد فى طلب الخراج والجزية وأمر عماله الا يتوانوا فى جمع الضرائب فأسلم الكثيرون فى عهده كى يتخلصوا من الأعباء المالية ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية ولم يرغبوا فى اعتناق الدين الإسلامى .

وقد أمر أسامه الا يأوى أحد غريبا فى الكنائس أو الفنادق أو السواحل . ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان عندهم من الغرباء أو الهاربين[٣] . ولكى لا يتمكن أحد من الهرب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بجوازات السفر اليوم passport فالزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى جهة فى أنحاء القطر المصرى أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله وقد أمر الوالى بالقبض على أى شخص يرى ماشيا فى موضع ما أو عابرا من موضع إلى موضع وليس

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٣١

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣٢ .

(٣) ساويرس : سير الآباء البطاركة ص ٦٨ (T.V.)

معه سجله . وإذا وجد شخص راكبا مركبا أو نازلا منها وليس معه سجله تنهب المركب وتحرق بالنار . أما من فقد سجله أو أتلفه فقد ألزمه الوالى بالحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير[١] .

وقد عمل أسامة بن زيد إحصاء ثانيا للرهبان بعد الاحصاء الاول الذى تم فى عهد عبد العزيز بن مروان وأمر الرهبان ألا يقبلوا فى الرهبنة من يأتى إليهم وأمر بوسم كل راهب بحلقة حديد فى يده اليسرى ليكون معروفا ، ووسم كل واحد منهم باسم بيعته وديره والتاريخ الهجرى وفرض على كل واحد منهم ديناراجزية . أما من وجد هاربا أوغير موسوم فقد كان يلقى عقابا قاسيا[٢] ويقال إن أسامة بن زيد من جبى مصر فى خلافة سليمان ابن عبد الملك اثنى عشر مليون دينار[٣] وقد يكون فى هذا القول مبالغة ولكنه يدل على أن أسامة اشتد فى جباية خراج مصر إلى حد كبير .

ولما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) أظهر رغبته الشديدة فى نشر الإسلام . ويظهر أن نفرا كثيرا كان قد اعتنق الدين الإسلامى حينذاك بدليل أن حيان بن سريج متولى خراج مصر كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول . « أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث ابن ثابتة عشرين ألف دينار وتممت عطاء أهل الديوان فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » وكان هذا الوالى يرى أن تبقى الجزية على من يسلم. وقال عمر فى رده : « ... فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى

(١) المرجع نفسه ص ٧٠

(٢) المرجع نفسه ص ٦٨ و ٧٠ وخطط المقريزى جـ ٢ ص ٤٩٢ — ٤٩٣

(٣) خطط المقريزى جـ ١ ص ٩٩

لعمر أحقر من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه[١] » وبهذه المناسبة نذكر أن أول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف ، ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان والى مصر من قبله أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلمه ابن حجيرة فى ذلك وقال « أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر . فوالله أن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضعها على من أسلم منهم ؟ » فتركهم عند ذلك[٢] .

وكتب عمر بن عبد العزيز أيضا إلى حيان بن سريج أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم[٣] كما ذكرنا من قبل وربما كان هذا الأمر هو الذى بعث ساويرس على أن يقول إن عمر بن عبد العزيز أمر بأن تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يسلمون حتى فى الحالات التى لم تجر عادتهم بالقيام بها .

ويظهر أن سياسة إعفاء الذين يعتنقون الإسلام من الجزية لم تستمر بصفة دائمة بعد عهد عمر بن عبد العزيز ، بدليل أنه بعد ذلك العهد نرى أن قرار أى خليفة برفع الجزية عمن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الإسلامى . وفضلا عن هذا فإننا لا نعرف تماما متى بدأ أخذ الجزية ممن أسلم . والظاهر أن هذا بدأ قبل عهد عمر بن عبد العزيز[٥]

ويعلق السير توماس ارنولد[٦] Thomas Arnold على قرار عمر بن

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٠٦ طبعة تورى — خطط المقريزى ج ١ ص ٧٨

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٠٦ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٧ — ٧٨

(٣) ابن عبد الحكم ص ١٠٤ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٧٧

(٤) سير الآباء البطاركة ص ٧٢ (T.V.)

(٥) ابن عبد الحكم ص ١٠٦ و المقريزى ص ٧٧

(٦) The Preaching of Islam p. 103

عبد العزيز هذا بقوله . « ولكن الولاة المتأخرين اعتبروا أن مثل هذه السياسة تضر بمالية الدولة واستمروا فى فرض الجزية على الذين أسلموا . وبالجملة لم يكن هناك استمرار فى مثل هذه السياسة بل كان الولاة يتبعون فى ذلك سياسات مختلفة على حسب أهوائهم دون السير على وتيرة واحدة » وعلى كل حال فإن سياسة عمر بن عبد العزيز التى تنطوى على تشجيع من يعتنق الدين الإسلامى جذبت إلى الإسلام كثيرين من الأقباط .

ثم حدث أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥هـ) أخذ المسيحيين بالشدة من الوجهة المالية فأعاد الخراج الذى كان عمر بن عبد العزيز قد رفعه عن الكنائس والأساقفة . ويدلنا على مبلغ كراهية المسيحيين له تلك الكلمات التى يصفه بها مؤرخ البطاركة إذ يقول « إنه سلك فى طريق الشيطان وحاد عن طرق الله[١] »

ولما بويع هشام بن عبد الله الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) بالخلافة تفاءل المسيحيون خيرا . ويصفه مؤرخ البطاركة بأنه رجل يخاف الله مخلص للأرتودكسيين ومحب لسائر الناس[٢] : وقد أمر هشام بأن يعطى كل من يدفع خراجا ايصالا باسمه كيلا يظلم أحد فى مملكته[٣] .

على أن سياسة هشام بن عبد الملك المالية كانت كسياسة غيره من الخلفاء . وليس أدل على ذلك من أن عامله على خراج مصر وهو عبيدالله بن الحبحاب ظل فى هذا المنصب منذ أن ولى هشام الخلافة إلى سنة ١١٦هـ[٤]

---

(١) ساويرس : سير الآباء البطاركة . ص ٧٢ (T. V.)
(٢) ساويرس ص ٧٣
(٣) ساويرس ص ٧٤
(٤) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٠٨

أو إلى سنة ١١٤ هـ [١] فى قول آخر ، بينما تعاقب على حكم البلاد فى زمنه خمسة ولاة ، وكان يتمتع أثناء ذلك بنفوذ كبير لا يحد ؛ يولى من شاء من الموظفين ويعزل من يشاء . بل إنه نجح فى عزل اثنين من الولاة ، وهما الحسن بن يوسف ، وحفص بن الوليد . وجعل إليه الخليفة أمر اختيار من أحب من الولاة ، فاختار عبد الملك بن رفاعة [٢] . وكان له الأمر أيضاً فى تولية القضاة ، فقد قام بأمر توبة بن نمر الحضرمى حتى ولى القضاء فى سنة ٢١٦ هـ [٣] . وطبيعى أن من الأسباب التى حصل بها ابن الحبحاب على هذه السلطة الواسعة أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل . أما قوام هذه السياسة فنتبينه من بعض أخبار هذا العامل على الخراج : فإننا نعرف مثلا أنه لما ولى خراج مصر أمر بأن تحصى الناس والبهائم ، وأن تقاس الأراضى الزراعية والأراضى البوز وبنى أميالا أى علامات للمسافات فى حقول مصر على الحدود والطرقات ، وضاعف الخراج وأمر بأن تختم رقاب الناس بالرصاص من سن العشرين إلى ما فوق ذلك كما وسم أيدى النصارى بسمة الأسد [٤] ، وذلك لتسهل معرفة هؤلاء الذين تجب عليهم الجزية والضرائب . ويذكر القريزى [٥] أن الخليفة هشام ابن عبد الملك أوصى عبيد الله بن الحبحاب بالعمارة ، فيقال إنه لم يظهر فى خراج مصر بعد تناقصه كثرة إلا فى وقتين ، أحدهما فى خلافة هشام ابن عبد الملك عند ما ولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب ، والوقت الثانى

---

(١) أبو المحاسن جـ ١ ص ٢٧٣
(٢) الكندى ص ٧٤ — ٧٥
(٣) الكندى ص ٣٤١ — ٣٤٢
(٤) ساويرس : سير الآباء البطاركة ص ٧٥
(٥) الخطط جـ ١ ص ٩٨ — ٩٩

فى إمارة أحمد بن طولون لمـا تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر ، فبعد أن كان خراج مصر دون الثـلاثة ملايين دينـار خرج ابن الحبحاب بنفسه ومسح العامر من أرض مصر والغامر [١] فرا كها كلها وأصلحها ، واستطاع أن يجبى من مصر أربعة ملايين دينار .

ويذكر الـكندى[٢] والمقـريزى[٣] أنه فى أمرة الحـر بن يوسف (١٠٥ — ١٠٨ هـ) كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطاً[٤] .

وإزاء هذه الأعباء المـالية الثقيلة بدأ الأقبـاط للمرة الأولى يتركون سبيل المقاومة السلبية ويقاومون حكومة العرب مقاومة إيجابية . فثـار الأقباط فى سنة ١٠٧ هـ فى الوجه البحرى فبعث إليهم الحر جيشاً لمحاربتهم فقتل منهم نفر كثير [٥]

وعنـد ما ولى مصر الوليد بن رفاعة من قبل هشام بن عبـد الملك (١٠٩ — ١١٧ هـ) خرج ليحصى أهلها ، وينظر فى تعديل خراجهم ، واصطحب معه جماعة من الـكتاب والأعوان ليساعدوه فى مهمته هذه ، فأقام بالصعيد ستة أشهر حتى بلغ أسـوان ، وأقام بالوجـه البحرى ثلاثة أشهر ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية ، ولم يحص فى

---

(١) الغامر الأرض الخراب أو البور

(٢) الولاة والقضاة ص ٧٣

(٣) الخطط جـ ١ ص ٧٩

(٤) القيراط نوع من العملة المستعملة حينذاك فكان الدينار ينقسم إلى ٢٤ قيراطاً (ابن عبد الحـكم — طبعة توري ص ١٥٣)

(٥) الـكندى ص ٧٣ — ٧٤ وساويرس ص ٧٦ (T.V.) وخطط المقريزى جـ ١ ص ٧٩

أصغر قرية منها أقل من خمسمائة رجل ممن تفرض عليهم الجزية [١] .

وقد تتابعت ثورات القبط ، فثار أقباط الصعيد وحاربوا عمال الحكومة فى سنة ١٢١ هـ ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان والى مصر (١١٩ — ١٢٤ هـ) جيشاً لمحاربتهم ، فانتصر عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً [٢] وفى ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر (١٢٧—١٢٧ هـ) أعلن إعفاء كل من يسلم من الجزية ، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط الدين الإسلامى [٣]

ومع ذلك فقد تتابعت ثورات القبط فخرج ثائر منهم بسمنود ، يدعى يحنس ، فبعث إليه عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير ، والى مصر إذ ذاك جيشاً لمحاربته ، وكان ذلك فى سنة ١٣٢ هـ ، فقتل يحنس مع كثير من أصحابه [٤] .

ثم ثار القبط برشيد فى سنة ١٣٢ هـ ، فأرسل إليهم مروان بن محمد جيشاً لمحاربتهم ، وذلك حينما دخل مصر فاراً من بنى العباس فهزمهم هذا الجيش [٥] ، كذلك ثار ضده أهل البشرود ولكنه لم يستطع القضاء على

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٥٦ وخطط المقريزى ج ١ ص ٧٤ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ — ٦٤ فى مجموعة الارشيدوق رينر بالمكتبة الأهلية فى فينا وثيقة بردية تشير إلى احصاء سكان مصر فى ولاية الوليد بن رفاعه . وتفصل هذه الوثيقة البيانات التى كان على الموظفين جمعها عن كل شخص . راجع Papyrus Erzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung (Wien1894), No 599 p 152.

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٧٩

(٣) ساويرس : سير الآباء البطاركة ص ١١٦ — ١١٧

(٤) الكندى ص ٩٤ وخطط المقريزى ج ١ ص ٧٩

(٥) الكندى ص ٩٦ وخطط المقريزى ج ١ ص ٧٩

ثورتهم ، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه[١] .

ولما قامت الدولة العباسية فى مصر تفاءل الأقباط خيراً وخمدت ثورة البشموريين من أجل ذلك[٢] ، إلا أن المشكلة المالية لم تنته وعادت إلى ما كانت عليه زمن الأمويين ، بل فاقت العهد السابق فلم تمض ثلاث سنوات على قيام الدولة العباسية بمصر حتى ضوعف الخراج على الأقباط ولم يتم ما وعدوا به من التخفيف عنهم[٣] .

ولكن حدث من ناحية أخرى أن قرّر الخليفة السفاح أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامى ويقيم شعائره ، فتخلى كثير من المسيحيين ، أغنياء كانوا أو فقراء ، عن دينهم واعتنقوا الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم[٤] . وسرعان ما عاد القبط الذين بقوا على دينهم إلى الثورة فثار الأقباط بسمنود فى سنة ١٣٥ هـ فى ولاية أبى عون الأولى على مصر (١٣٣ — ١٣٦ هـ) فبعث إليهم أبو عون جيشاً لمحاربتهم فهزموا وقتل أبو مينا زعيم تلك الثورة[٥] .

ثم ثار القبط فى سخا سنة ١٥٠ هـ فى ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة على مصر (١٤٤ — ١٥٢ هـ) وانضم إليهم أهل البشرود وبعض جهات الوجه البحرى ، ولكن العرب انهزموا أمام القبط فى هذه المرة[٦] . ثم خرج القبط فى سنة ١٥٦ هـ فى ولاية موسى بن عُلَىّ بن رباح اللخمى

---

(١) ساويرس ص ١٥٦ — ١٥٧ و١٦٢ و١٨٨
(٢) ساويرس ص ١٨٨ (t. V.)
(٣) ساويرس ص ١٨٨ — ١٨٩
(٤) ساويرس ص ١٨٩ — ١٩٠
(٥) الكندى ص ١٠٢ وأبو المحاسن جـ ١ ص ٣٢٥ — ٣٢٦
(٦) الكندى ص ١١٦ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٧٩

(١٥٥ — ١٦١ هـ) فأرسل إليهم الوالى جيشاً هزمهم[١] .

وكثيراً ما ثار العرب ضد الحكومة بسبب الخراج بعد أن زاد عددهم وأصبحوا يملكون الأراضى فى البلاد ، وكثيراً ما اشتركوا مع الأقباط فى ثوراتهم . وكانت آخر ثورة للأقباط تلك التى حدثت فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ زمن الخليفة المأمون أثناء ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل المعتصم (٢١٦ — ٢١٧ هـ) إذ ثار أهل الوجه البحرى كلهم سواء فى ذلك العرب والقبط — فطردوا عمال الحكومة ، وقدم الأفشين قائد المأمون من برقة لمحاربتهم ، فسار إلى الحوف وهزمهم وأرسل القواد وعيسى بن منصور إلى مختلف جهات الوجه البحرى لمحاربة الثائرين . ثم أقبل الأفشين فى جنوده إلى الإسكندرية فهزم كل من اعترضه فى طريقه إلى أن دخلها فى ذى الحجة سنة ٢١٦ هـ ، ثم سار بعد فتحها إلى أهل البشرود ، فامتنعوا عليه حتى قدم المأمون إلى مصر[٢] .

وقد عرف أهل البشرود أو البشمور بغلظة طباعهم وحبهم للعصيان والثورة منذ التاريخ القديم ، وقد شجعتهم طبيعة المنطقة التى يعيشون فيها على ذلك فإن هذه المنطقة الرملية على ساحل الدلتا بين فرعى رشيد ودمياط[٣] كانت تحيط بها المستنقعات والأوحال التى تعيق حركة الجند[٤] وقد ثاروا زمن المأمون لكثرة الخراج الواقع على كاهلهم والقسوة التى كانت تستعمل فى جبايته[٥] وقبل مجىء المأمون إلى مصر كتب البطرك أنبا يوساب إليهم

---

(١) الكندى ص ١١٩ وخطط المقريزى ج ١ ص ٧٩

(٢) الكندى ص ١٩٠ — ١٩١

(٣) Wiet : Hist. de la Nation. Egypt. t. IV. p. 73

(٤) ساويرس : سير الآباء البطاركة ص ٤٨٧ (t. X.)

(٥) ساويرس ص ٤٨٦ — ٤٨٧

كتبا ينصحهم بأن يرجعوا عن ثورتهم ويحذرهم من قوة السلطان فلم يرجعوا ، ولما رأى الأفشين تمادى البشموريين فى ثورتهم كتب إلى الخليفة المأمون يعلمه بما حدث[١] فرأى المأمون أن يأتى إلى مصر لإخماد تلك الثورة فجاء فى جيشه وصحب معه البطرك ديونوسيوس بطرك أنطاكية[٢] فى المحرم سنة ٢١٧ﻫ وقد سخط الخليفة على الوالى عيسى بن منصور وقال : « لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد[٣] » .

وقد حاول المأمون أولا أن يخمد ثورة البشموريين باللين فأرسل إليهم البطرك أنبايوساب والبطرك ديونوسيوس ووعدهم إلا يعاقبهم إن هم رجعوا عن ثورتهم ولكن البشموريين لم يجيبوا البطركين فسير المأمون إليهم الأفشين بجنده ولكنهم قاوموا جند الأفشين بشدة فلما علم المأمون بذلك سار بنفسه بجيشه وركز جميع قواته ضدهم إلى أن سلم البشموريون فأعمل فيهم السيف وأحرقوا مساكنهم وهدموا كنائسهم[٤] وغادر الخليفة مصر فى صفر سنة ٢١٧ بعد أن مهد أمورها وزار بعض البلدان فيها ، وكانت مدة اقامته بمصر تسعة وأربعين يوما[٥] .

وبعد ثورة البشموريين التى كانت آخر ثورة للأقباط فى عهد الولاة ، أصبح المسلمون أغلبية فى مصر وعلى الأخص فى الوجه البحرى إذ يظهر

---

(١) ساويرس ص ٤٨٨ — ٤٩٠

(٢) ساويرس ص ٤٩٢

(٣) الكندى ص ١٩٢ — خطط المقريزى ج ١ ص ٨١

(٤) ساويرس ص ٤٩٣ — ٤٩٥ (t. X)

(٥) الكندى ص ١٩٢ — خطط المقريزى ج ١ ص ٨١ — أبو المحاسن ج ٢ ص ٢١٦

أن عدداً كبيراً من الأقباط أسلم فى ذلك الوقت[1] .

وقيل فى مناسبة زيارة المأمون لمصر إنه لما سار فى قرى مصر ، كان يقيم فى القرية يوما وليلة فمر بقرية يقال لها طاء النمل ولم يدخلها لصغرها فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز اسمها مارية القبطية وهى تصيح . فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها فطلبت منه السيدة أن يشرفها بالزيارة فى ضيعتها فأجابها المأمون إلى طلبها وكان معه أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ، ويحى بن أكثم والقاضى أحمد بن أبى دواد عدا قواده وعساكره فأكرمتهم كرما كثيرا « ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا فلما أصبح وقد عزم على الرحيل جاءته ومعها عشر وصيفات مع كل وصيفة طبق ، وفى كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته . فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله أعجب ، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقرنا . فقال . إن فى بعض ما صنعت الكفاية ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : ياأمير المؤمنين . هذا ، وأشارت إلى الذهب ، من هذا ، وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين وعندى من هذا شىء كثير . فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدان بغير خراج وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها »[2] .

وهكذا نرى أن المصريين أو الأقباط قبلوا تبعيتهم للعرب وقبلوا

---

(١) خطط المقريزى جـ ١ ص ٧٩ — ٨٠

(٢) خطط المقريزى جـ ١ ص ٨١

النظام المالى الذى فرضه الخلفاء حتى سنة ١٠٧ هـ ثم بدأوا يقاومون حكومة العرب مقاومة علنية دموية ظلت أكثر من قرن لاسيما فى منطقة الدلتا. على أن ثورات القبط كان يقضى عليها سريعاً . وكان يتبع إخمادها فى العادة تحول جزء كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى. ولم تكن هذه الثورات حركات قومية بالمعنى الصحيح وإنما كانت حركات غير منظمة لم يعرف فيها القبط كيف يوحدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة . وكان هدفها خفض الضرائب أو الهرب من دفعها. فبينما نجد أن الاضطهاد الدقلديانوسى ضد المسيحية فى مصر قد زاد من قوتها وولد حركة قومية بين المسيحيين نجد أن القبط يغلبون على أمرهم فى ثوراتهم ضد العرب . ومنذ سنة ٢١٧ هـ تبدأ الفترة الثالثة من ذلك العهد وأصبح الأقباط أقلية فى القطر المصرى .

القبائل العربية فى مصر

امتاز العرب على غيرهم ممن فتحوا مصر فى مختلف العصور بأنهم اندمجوا فى الشعب المصرى وامتزجوا به امتزاجا قويا وكان لهذا الامتزاج أكبر الأثر فى تغلب الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى فى وادى النيل .

وقد شجع الخلفاء وفود القبائل العربية إلى مصر فزاد المسلمون فى مصر لتزايد العرب فيها باستمرار بما كان يرد من القبائل بعد الفتح وبتحول القبط إلى الدين الإسلامى .

ويمكننا أن نقدر جيش الاحتلال الذى استقر فى مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفاً من الرجال ، ولا نعرف تماما عدد سكان مصر حينذاك . وقد كتب ابن عبد الحكم[1] أنه كان هناك أكثر من ستة مليون رجل ممن

---

(١) ابن عبد الحكم ، طبعة المعهد العلمى الفرنسى ص ٥٦

تجب عليهم الجزية — أى باستثناء الشيوخ والنساء والاطفال — وإذا فرضنا أن هؤلاء الذين وجبت عليهم الجزية يكونون ثلث السكان ، رأينا أنه كان بمصر إذ ذاك نحو ١٨ مليون نسمة . ولكننا نرى أن هذا الرقم مبالغ فيه . فإن سكان مصر فى العهد البيزنطى أى قبل الفتح كانوا ٧ مليون نسمة باستثناء الإسكندرية التى كان يبلغ عدد سكانها ٣٠٠،٠٠٠[١] .

وكان الفاتحون كما رأينا أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل البلاد وفضلا عن ذلك فإنهم لم يختلطوا بهم وإنما اختطوا لهم مدينة عربية إسلامية فى وسط المحيط المصرى القبطى . وقد كان تخطيط المدن من أهم الظواهر التى سارت جنبا إلى جنب مع الفتوحات العربية وذلك رغبة فى إنشاء مراكز إدارية وحربية ودينية فى البلاد الجديدة التى فتحها العرب .

وقيل إن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها ، هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها . وكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك . فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال: نعم ياأمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب عمر إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف . فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط .

وقيل كذلك إن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : أن لا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى

---

(١) Munier : L'Egypte Byzantine. p. 84

الكوفة — وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه . فنزل البصرة وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط[١] .

أى أن المؤرخين العرب يرجعون عدم اختيار الاسكندرية عاصمة للعرب إلى خوف عمر بن الخطاب من ركوب البحر ؛ ولكن الواقع أن الاسكندرية متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة للحكم .

ولا ننسى أن الاسكندرية عند فتح العرب لها كانت مدينة يونانية بمعنى الكلمة ، يونانية فى سكانها وعاداتها وميولها فلم يكن من المنتظر أن يتخذها العرب عاصمة لهم .

أما عن كيفية اختيار موقع الفسطاط فيذكر المؤرخون العرب أن عمرو ابن العاص لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد استيلائه على حصن بابليون أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم بنا ، وتركه ولما عاد المسلمون من الاسكندرية وقالوا أين ننزل ؟ قال : الفسطاط ، لفسطاطه الذى كان قد خلفه[٢] .

وقال الجوهرى : الفسطاط بيت من شعر . قال ومنه فسطاط مدينة مصر وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط[٣] . وقال الزمخشرى . الفسطاط اسم لضرب من الأبنية ، والذى

---

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩١ وخطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٦ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩١ وابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٢ — القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٣٠ — خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٦ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧

(٣) ابن دقماق ج ٤ ص ٢ والقلقشندى ج ٣ ص ٣٣٠ وخطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٦

عليه الجمهور أنه يسمى بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص رضى الله عنه يعنى خيمته[١] .

على أن الرواية التى يذكرها المؤرخون عن تسمية الفسطاط واختيار موقعها أقرب إلى الخيال منها للحقيقة . فالمؤرخون ينسجون كثيراً من الخيال حول حوادث فتح العرب لمصر كأن المصادفة والحظ قادا العرب دائما إلى ما هو حسن .

ولكن المواقع الهامة فى أنحاء العالم عرفها الانسان منذ القدم وإن تغيرت أسماء تلك المواقع بتغير الأزمان ، وقد عرف المصريون القدماء ومن أتى بعدهم على مر الزمن مزايا موقع منف والمنطقة المحيطة به ، وإن اتخذ هذا الموقع أسماء مختلفة باختلاف الأزمنة مثل الفسطاط والقاهرة . ويمتاز هذا الموقع بتوسطه بين مصر السفلى ومصر العليا وله عدة مزايا تجارية وسياسية وحربية . ويذكر سترابو أن حصن بابليون الذى يقع قريبا من موقع منف كانت فيه إحدى الحاميات الثلاث فى مصر [٢] وقد عرف العرب كما عرف غيرهم أهمية ذلك الموقع فاختطوا مدينة الفسطاط فى الفضاء الواقع شمالى بابليون . ويذكر المقريزى [٣] أن موضع الفسطاط كان فضاء ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم الذى يقع فى شرق مصر ، ولم يكن فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون أو قصر الشمع ، فلما فتح عمرو ابن العاص مدينة الإسكندرية فتحها الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط

(١) القلقشندى ج ٣ ص ٣٣٠

(٢) Quatremère: Mémoires Géog. et Hist. sur l'Egypte. t.1. p.46

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٨٦

جامعه واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها .

أما اسم فسطاط فالراجح أن أصله غير عربى وأنه مشتق من اللفظ اليونانى φοδδατον « فُسَّاطُن » ذلك اللفظ الذى اشتق من اللفظ اللاتينى fossatum[1] الذى كان يطلقه الرومانيون على معسكراتهم الحربية . وتؤيد أوراق البردى ذلك القول؛ فنى إحدى الأوراق البردية المكتوبة باللغتين العربية واليونانية بتاريخ سنة ٩٠هـ وفى أخرى مشابهة بتاريخ سنة ٩١ هـ نجد اسم باب اليون φοδδατον والفسطاط ، فاسم فسطاط كان موجودا قبل تأسيس الفسطاط . وقد احتفظ العرب بتلك التسمية بعد ما احتلوا المعسكر الحربى[2]

وقد اتخذت كل قبيلة من القبائل العربية التى فتحت مصر خطة فى الفسطاط أى أن كل قبيلة نزلت فى جهة معينة أو قسم من تلك المدينة التى اختطوها . ويذكر المقريزى[3] أن الخطط التى كانت بمدينة فسطاط مصر هى بمنزلة حارات القاهرة فى زمنه أى فى القرن التاسع الهجرى . وقد عرفت كل خطة باسم الجماعة التى نزلت فيها فقيل مثلا خطة تجيب وخطة مهرة الخ .

ولما اختط العرب مدينة الفسطاط فى سنة ٢١ هـ تنافست القبائل فى المواضع فانتدب عمرو بن العاص من خطط الخطط فمن تلك الخطط خطة أهل الراية وهم جماعة من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة وينسبون لراية عمرو بن العاص ويقال إن الراية قريش فقد كانت معهم راية عمرو بن

---

(١) كلمة fossatus, fossatum اللاتينية معناها معسكر أو خندق ، كلمة (f) fossa' ae معناها خندق والفعل fosso, ari, avi, atum أى يحفر الخندق

(٢) Leone Caetani : Annali dell'Islam vol. IV. pp. 544 — 545

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٩٦

العاص والأرجح أنهم سموا أهل الراية لأن قوما من أفناء القبائل من العرب كانوا قد شهدوا الفتح مع عمرو بن العاص ولم يكن من قومهم عدد فيقفوا مع قومهم تحت رايتهم وكرهوا أن يقفوا تحت راية غيرهم فقال لهم عمرو : أنا أجعل راية لا أنسبها إلى أحد أكثر من الراية تقفون تحتها ، فرضوا بذلك .

ومن تلك الخطط خطة مَهرة وخطة تُجيب وخطط لَخم وجُذام وخطة بنى بحر وهم قوم من الازد وخطة ثقيف وخطة غافق وخطة حضرموت وخطة يَحْصب وخطة المافر وخطة سبأ وخطة بنى وائل وخطة القَبض وخطة مَذْحج وخطة بنى غُطيف وبنى وَعْلان وخطة بَلِى وخطة خوْلان وخطة الصدف وخطة غَنْث وخطة سلامان وخطة السَّلَف وخطة رُعَين وخطة الكَلاع وخطة نافع وخطة مراء وخطط الحمراوات والفارسيين ذلك أنه دخل مع عمرو بن العاص قوم من غير العرب يقال لهم الحمراء والفارسيون ، فأما الحمراء فقوم من الروم فيهم بنو يَنّة وبنو الأزرق وبنو روبيل والفارسيون قوم من الفرس وزعموا أن فيهم قوما من الفرس الذين كانوا بصنعاء إلى غير ذلك من الخطط التى درست[1] .

وصفوة القول أن مدينة الفسطاط قسمت إلى خطط ، كل خطة تسكنها قبيلة . ومن الخطط من كان يسكنها من هو من أصل فارسى أو رومى وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة أما الأكثرية العظمى فكانوا من العرب ولا سيما عرب الجنوب أو اليمنية .

---

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩٨ — ١٢٩ — ابن دقاق جـ ٤ ص ٣ — ٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٣١ — ٣٣٣ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

Becker : Art. Cairo (Encyclopaedia of Islam)

وقد نشأت مدينة الفسطاط صغيرة بسيطة فى أول الأمر وما لبثت أن اتسعت وكثر العمران فيها . ويدلنا على بساطة البناء فى ذلك العهد أن خارجة بن حذافة بنى غرفة فيها (أى دارا علوية أو بناء مرتفعا) فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو بن العاص « سلام . أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فإذا أتاك كتابى هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام[1] » .

على أن العرب ما لبثوا أن تخطوا عهد البساطة وتوسعوا فى البناء فبنى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان قصره الكبير الذى يعرف بقصر الجن . ولفخامة ذلك القصر إذ ذاك قال له المقداد : إن كان من مال الله فقد أسرفت وإن كان من مالك فقد أفسدت . فقال عبد الله بن سعد : لولا أن يقول قائل أفسد مرتين لهدمتها[2] وبنى فى الفسطاط الحمامات والأسواق وبنى عبد العزيز بن مروان القيساريات مثل قيسارية العسل وقيسارية الحبال وقيسارية الكباش والقيسارية التى يباع فيها البز وهى التى تعرف بقيسارية عبد العزيز ، وبنى هشام بن عبد الملك قيساريته التى تعرف بقيسارية هشام[3] .

وبعد أن كان البناء فى أول أمره باللبن والدار من طبقة واحدة يحدثنا الاصطخرى[4] الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى بأن الفسطاط فى غاية العمارة وأن بها قبائل وخططا للعرب تنسب إليهم محالها ومعظم بنائهم بالطوب وهو عبارة عن طبقات وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى

(١) ابن عبد الحكم طبعة تورى ص ١٠٤
(٢) ابن عبد الحكم ص ١١٠
(٣) ابن عبد الحكم ص ١٣٦
(٤) كتاب مسالك الممالك ص ٤٩

طبقات . وقد اثبتت الحفائر الحديثة فى أطلال الفسطاط أن بيوتها كانت غنية بوسائل الترف وعلى رأسها المياه الجارية[١] .

وقد عنى العرب منذ تخطيط الفسطاط ببناء مسجد جامع لهم . وكان تأسيس المساجد الجامعة يسير جنباً إلى جنب مع تخطيط المدن فى البلاد المفتوحة ، فبنى عمرو بن العاص المسجد الجامع فى الفسطاط سنة ٢١ هـ ولما كان هذا المسجد أول جامع بنى فى مصر الإسلامية فقد عرف باسم تاج الجوامع والجامع العتيق وجامع عمرو بن العاص وكان المسلمون يقيمون فى المسجد الجامع شعائرهم الدينية فيقيمون فيه الصلوات الخمس ويجمعون الجمع ، كذلك كان المسجد الجامع بمثابة مدرسة دينية يتعلم فيه الناس الدين الإسلامى كما كان مركزاً للقضاء[٢] وقد ظل جامع عمرو بن العاص المسجد الجامع الوحيد فى مصر فى عهد الولاة إلى أن بنى الفضل بن صالح بن على العباسى فى ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدى جامع العسكر فى سنة ١٦٩ هـ فى مدينة العسكر التى اختطها العباسيون فى سنة ١٣٣ هـ . وبعد عهد الولاة كثر بناء الجوامع فى مصر وخاصة فى عهد المماليك . على أن جامع عمرو وهو أقدم جامع فى مصر ظل موضع عناية حكام مصر فى عصورها المختلفة . فبالرغم من أن بناءه كان بسيطا جداً فى أول عهد الفتح نرى أن ولاة مصر وحكامها فى العصور المختلفة يهتمون بتوسيعه وإقامة المنائر والمحاريب له وتزيينه

---

(١) على بهجت بك والبير جبريل : كتاب حفريات الفسطاط

(٢) انظر Johs. Pedersen : Art. Msadjid, Ecnyclopaedia of Islam Vol. III. pp. 325-331, 346-350

وفى هذا المقال يتكلم عن المسجد باعتباره مكانا دينيا للعبادة يصلى فيه الناس ويجمعون الجمع ويتلى فيه القصص الدينى والخطب وباعتباره مركزا للادارة العامة ففيه كان يجلس عامل الخراج كما كان يعتبر مركزاً للقضاء ومعهداً علمياً ومكتبة أيضاً

بشتى الزخارف المعمارية إلى غير ذلك مما يبين لنا تطور الفن الإسلامى فى مصر كما يبين لنا عناية حكام مصر بأول جامع بنى فيه .

كذلك اختط العرب مدينة الجيزة . فعند ما اختطت القبائل الفسطاط نزلت همدان موضع الجيزة . وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر « كيف رضيت أن تفرق أصحابك ولم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفجأهم فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم إليك فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فىء المسلمين حصناً » فلما عرض عليهم عمرو بن العاص رأى أمير المؤمنين فضلوا البقاء بالجيزة فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن بالجيزة فى سنة ٢١ هـ وفرغ من بنائه سنة ٢٢ هـ واختطوا فى الجيزة خططا عرفت بهم مثل خطط الفسطاط[(١)] .

ونزل قوم من العرب فى الإسكندرية ، على أن الإسكندرية لم يكن فيها خطط وإنما كانت « أحائذ » ، أى من أخذ منزلا نزل فيه ، ويقال إن الزبير بن العوام اختط بالإسكندرية[(٢)] .

وهكذا نرى أن العرب الذين استقروا فى مصر ومعظمهم من اليمنية كانوا يقيمون فى الفسطاط أو الجيزة أو الإسكندرية . وقد حرم عليهم عمر ابن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط سواء أكان هذا التأثير من ناحية انتشار الدين

---

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى ص ١٢٨ — ١٢٩ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٢٠٦ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٩

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٣٠ والسيوطى : حسن المحاضرة ص ٥٨

الإسلامى أو اللغة العربية . وكان اختلاط القبائل العربية بأهل مصر عن طريق التزاوج أو الولاء نادراً فى أول الأمر وكان العرب أقلية ضئيلة فى مصر فى ذلك العهد .

على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى فجر الإسلام كانوا يصحبون معهم جيوشاً عربية حتى نهاية العهد الأموى أو عربية ومن شعوب أخرى غير العرب كالخرسانيين والأتراك فى العصر العباسى . فكانت القبائل العربية تفد باستمرار إلى مصر إما مع الولاة أو يبعث بها الخلفاء لتعزيز الجند واستيطان البلاد ، ولذا نرى أن عدد الجند فى مصر أيام معاوية بن أبى سفيان بلغ أربعين ألفاً[١] .

وكانت الأغلبية فى مصر من عرب اليمنية أو عرب الجنوب ،وكانت قيس[٢] أوعرب الشمال عامة أقلية بمصر . فمنذ ما ولّى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر فى سنة ٦٥ هـ قال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى[٣] ؟ فلما جاء عهد هشام ابن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) حدث تطور فى تاريخ القبائل العربية بمصر ، ذلك أنه فى ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى (١٠٩ — ١١٧ هـ) نقلت إلى مصر بطون كثيرة من قيس . ولم يكن للقيسية قبل ذلك عدد كبير فى وادى النيل[٤] . وقد حدث هذا النقل حين وفد عبيد الله بن الحبحاب

---

(١) ابن الحكم . طبعة تورى ص ١٠٢ والمقريزى ج ١ ص ٩٤

(٢) غلب اسم قيس على سائر العدنانية أو عرب الشمال حتى جعل فى المثل مقابل عرب اليمن قاطبة فيقال قيس ويمن (القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٣٩)

(٣) الكندى ص ٤٧

(٤) ويخالف ما كمايكل Macmichael المؤرخين العرب فى ذلك فيرى أنه بين سنتى ٧٠٩ — ٧٢٧ (٩١ — ١٠٩ هـ) حكم مصر ثلاثة من الحكام القيسيين =

على الخليفة هشام بن عبد الملك فى سنة ١٠٩ ﻫ وسأله أن ينقل إلى مصر بيوتا من قيس إذ لم يكن فى مصر حتى ذلك الوقت إلا نفر قليل منهم ، فأذن له هشام فى ترحيل ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر على ألا ينزلهم الفسطاط . فقدم بهم ابن الحبحاب وأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه[1]

وقد جاء فى الكندى أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام على مصر قال : « ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة ، وهم فهم وعدوان . فكتب إلى هشام : إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم ، وإنى قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظاً إلا أبياتاً من فهم ، وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجاً ، وهى بلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل . فكتب إليه هشام . أنت وذلك . فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ، ومائة أهل بيت من بنى عامر ، ومائة أهل بيت من أبناء هوازن ، ومائة أهل بيت من بنى سليم . فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة

═ قبل الوليد بن رفاعة الفهمى : اثنان من فهم وواحد من عبس ولا بد أن يكون صحب هؤلاء أعداد كثيرة من قبائلهم كذلك كان فى الفسطاط زمن الفتح خطة لكنانة فهم

ونحن نسلم بأنه كانت هناك خطة فى الفسطاط لكنانة فهم وأنه بين سنتى ٩١ — ١٠٩ ﻫ ولى مصر قرة بن شريك العبسى (٩٠ — ٩٦ﻫ) ثم عبد الملك بن رفاعه ابن خالد بن ثابت الفهمى (٩٦ — ٩٩ ﻫ) وولى عبد الملك بن رفاعة مرة ثانية سنة ١٠٩ ﻫ حوالى خمسة عشر يوما . ولكن ذلك ليس معناه أن قبائل قيس بمصر كانت عديدة . وقد رأينا من تخطيط الفسطاط أن معظم القبائل تكاد تكون كلها يمنية . ولم نسمع أى ذكر عن قبائل قيس بمصر قبل زمن هشام بن عبد الملك ولذا نرى أن نأخذ بكلام المؤرخين العرب فى هذه المسألة وربما حمل الخليفة هشام على ألا ينزل قيساً بالفسطاط وجود اليمنية بها تخفى الخليفه من وقوع المنازعات بينهم .

(١) الكندى ص ٧٦ والمقريزى : البيان والإعراب ص ٥٠ .

من المشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلا . فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل . ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشترى المهر ، فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب ، وليس عليهم مؤونة فى إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة من أهل بيت ، فمات هشام ببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس[1] » .

أى أن العرب فى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك أخذوا يتخلون عن السياسة التى اتبعوها منذ الفتح وهى سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى وعن الاشتغال بالزراعة . وقد وافق قدوم هذه البطون القيسية إلى مصر فى سنة ١٠٩ هـ قيام ثورات الأقباط التى بدأت فى سنة ١٠٧ هـ . وقد يكون الخليفة أراد بنقل هذه البطون إلى مصر والسماح لها بالاشتغال بالزراعة أن يتقوى المسلمون بالعرب ضد الأقباط الذين بدأوا ثوراتهم ، أو أن يحل العرب محل من يموت من الأقباط فى هذه الثورات ، أو من يهجر أرضه ، وذلك حتى لا يصيب الزراعة ضرر . وقد ساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالى ، وكان لهذا الاختلاط أثره فى انتشار الإسلام بمصر نتيجة للتزاوج أو للموالاة بينهم وبين أهالى البلاد . ولذا يقول المقريزى[2] « ولم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عند ما أنزل عبيد الله ابن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى . فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

---

(١) الكندى : ص٧٦ — ٧٧ ، والمقريزى : البيان والإعراب ص ٥٠ — ٥١
(٢) الخطط جـ ٢ ص ٢٦١

ويذكر لين بول[١] أن الذى دعا عبيد الله بن الحبحاب إلى إحضار قيس إلى مصر هو ما رآه من عدم انتشار الإسلام بين الأقباط . ولكنا لا نعرف مرجعاً قديماً يؤيد هذا القول .

أخذت القبائل العربية بعد ذلك تفد إلى مصر وتستقر فى القرى المصرية . ويذكر المؤرخون أنه فى زمن مروان بن محمد عند ما ولى الحوثرة ابن سهيل الباهلى مصر (١٢٨ — ١٣١ هـ) مالت إليه بطون قيس ، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أسرة منهم ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية كثير من ذوى قرباهم[٢]

ويظهر أن القبائل العربية أخذت تفد إلى مصر باستمرار ، وأخذت تصاهر أهل البلاد ، وممن قدم إلى مصر فى ذلك العهد أولاد الكنز ، وأصلهم من ربيعة بن معد بن عدنان ، أى من عرب الشمال . وكانوا ينزلون اليمامة ، وقد قدم كثير منهم إلى مصر فى خلافة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) بعد سنة ٢٤٠ هـ ، وانتشروا فى أنحائها ، ونزلت طائفة منهم بأعالى الصعيد ، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية فى كل وقت حتى أخربوها ، فقامت بطون ربيعة تصدهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بوادى العلاقى ، فكثرت أموالهم وأصبحوا فى سعة من العيش . وبلاد البجة كما يذكر المقريزى[٤] تمتد من صحراء قوص إلى أول بلاد الحبشة ، ولم يهتم العرب عند ما فتحوا مصر بإخضاعها .

---

(١) A History of Egypt in the Middle Ages p. 28

(٢) الكندى ص ٧٧ والمقريزى : البيان والإعراب ص ٥١

(٣) المقريزى : البيان والإعراب ص ٣٨

(٤) خطط المقريزى ج ١ ص ١٩٤

ويذكر المؤرخون أن عبد الله بن سعد عند ما قفل من غزو النوبة سنة ٣١ هـ تجمع له البجة على شاطىء النيل ، فسأل عنهم وهان عليه أمرهم ، فتركهم ولم يكن لهم عقد ولا صلح ، وأول من صالحهم عبيد الله بن الجبحاب[1] ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يغيرون على مصر فحاربهم الخليفة المأمون ، وأصبحت بلاد البجة تابعة للخلافة بمقتضى عهد عقد بين الخليفة وبين رئيسهم فى سنة ٢١٦ هـ ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الإغارة على صعيد مصر ، فحاربهم الخليفة المتوكل العباسى ، وسار رئيسهم إلى الخليفة المتوكل بسر من رأى فى سنة ٢٤١ هـ ليقدم إليه فروض الولاء والطاعة . ولما تسامع الناس بوجود معدن التبر فى أرض البجة وفدوا إلى أرضهم ، فقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى بعد محاربته النوبة فى سنة ٢٥٥ هـ ومعه بطون من ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب[2] .

على أن ازدياد القبائل العربية بمصر سبب كثيراً من الاضطرابات فيها ، فمن منازعات قبلية بين القيسة واليمنية ، ومن منازعات بين العرب وأهالى البلاد الأصليين ، فضلا عن أن العرب بمصر كثيراً ما كانوا يشتركون فى المشاكل التى قامت حول الخلافة كما بينا سابقاً ، وبقدر زيادة عددهم بمصر بقدر ما كانت تزيد مشاكلهم واضطراباتهم فيها

كذلك لما أصبح للعرب فى مصر حق امتلاك الأرض وزراعتها وجب عليهم دفع الخراج ، فكان ذلك سبباً لبعض الثورات . وقد بدأ العرب فى مصر يشتغلون بالزراعة فى أواخر العهد الأموى ، وقامت ثوراتهم

(١) ابن عبد الحكم طبعة تورى ص ١٨٩ وخطط المقريزى ج ١ ص ١٩٥
(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦

من أجل الخراج فى العهد العباسى ، وتعددت تلك الثورات ، ففى ولاية موسى بن مصعب الخثعمى على مصر من قبل الخليفة المهدى (١٦٧ — ١٦٨ هـ) تشدد فى جباية الخـراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان يجبى عليه وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب حتى قال الشاعر :

لو يعلم المهدى ماذا الذى · يفعـله موسى وأيوب
بأرض مصر حين حلا بها · لم يتهم فى النصح يعقوب

وقد ثار أهل الحوف من أجـل ذلك وطردوا عمال الوالى ، ولم تهدأ ثورة الحوف إلا فى ولاية الفضل بن صالح بن على العباسى سنة ١٦٩هـ[١] .

وفى خـلافة هارون الرشيد ولى مصر إسحاق بن سليمان العباسى (١٧٧ — ١٧٨ هـ) فزاد الخراج على المزارعين زيادة أجحفت بهم ، وأثارت أهل الحوف ، فبعث إليهم جيوشا لم تنل منهم شيئاً ، فأرسل إلى هارون الرشيد يخبره بذلك ، فبعث الخليفة بجيش على رأسه هرثمة ابن أعين . وكانت النتيجة أن رضخ أهل الحوف وأدوا الخراج[٢] .

وثار أهل الحوف أيضاً فى ولاية الليث بن الفضل (١٨٢ — ١٨٧ هـ) ذلك لأن الليث بعث بمساح يمسحون الأراضى الزراعيـة ، فانتقصوا من القصبة أصابع ، فتظلم الناس إلى الليث فلم يسمع منهم ، فساروا إلى الفسطاط لمحاربة الوالى ، فخرج اليهم الوالى سـنة ١٨٦ هـ فانهزم أولا ، ولـكن ما لبثت الدائرة أن دارت على أهل الحوف ، غير أنهم مع هذا منعوا الخراج ، فخرج الليث إلى أمير المؤمنين فى المحرم سـنة ١٨٧ هـ ،

---

(١) الـكندى ص ١٢٥ — ١٢٩

(٢) الـكندى ص ١٣٦ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٨٠ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٨٧ — ٨٨

وطلب منه أن يرسل معه جيشاً يساعده فى جباية الخراج ، ولكن محفوظ ابن سليمان ضمن للخليفة جباية الخراج كله بلا سوط ولا عصا فولاه الرشيد الخراج وصرف الليث عن صلاة مصر وخراجها[١] .

وفى ولاية الحسين بن جميل (١٩٠ — ١٩٢ هـ) على مصر امتنع أهل الحوف عن أداء الخراج ، وقاموا بأعمال كثيرة فى التخريب والنهب وقطع الطريق ، وأغاروا على قرى من فلسطين ، فبعث الخليفة الرشيد يحيى بن معاذ على رأس جيش أفلح فى إخضاعهم سنة ١٩١ هـ .

وقد تتابعت ثورات القبائل العربية فى مصر من أجل الخراج ، فقامت ثورة فى ولاية عيسى بن يزيد الجلودى على مصر (٢١٢ — ٢١٤ هـ) ، وهزم الثوار جيوش هذا الوالى سنة ٢١٤ هـ .

وعزل بعدها عيسى بن يزيد عن إمرة مصر وولى عمير بن الوليد من قبل المعتصم فى صفر سنة ٢١٤ ، فأرسل جيشاً لمحاربة أهل الحوف ليردهم إلى الطاعة ، وفى تلك الأثناء أراد الخليفة المأمون أن ينهى ثورتهم عن طريق السلم لا عن طريق الحرب ، فأرسل أبا خالد المهلبى إلى اليمنية ومحمد ابن دوالة العبسى إلى العبسية أو القيسية لمفاوضة الثائرين فى أمر الصلح ، ولكنهما لم يفلحا فى مهمتهما السلمية ، وأقبل أهل الحوف على القتال ، وقد قتل الوالى عمير أثناء محاربته لهم فى ربيع الآخر سنة ٢١٤ هـ بعد أن ولى مصر ستين يوماً[٢] ، فأرجع المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى إلى منصب الوالى (٢١٤ — ٢١٥ هـ) وسير عيسى جيوشه لمحاربة أهل الحوف ، وحدثت بينه وبينهم وقائع انتهى أمرها بأن فر الوالى منهزما إلى الفسطاط

(١) الكندى ص ١٤٠ وخطط المقريزى ج ١ ص ٨٠

(٢) الكندى ص ١٨٥ — ١٨٦

فى رجب سنة ٢١٤ هـ . فقدم المتعصم صاحب إقطاع مصر على رأس جيش من أربعة آلاف من جنده الترك لإخمـاد تلك الثورة ، وانتصر على أهل الحوف انتصاراً باهراً ، وقتل زعماءهم ، ثم خرج من مصر فى المحرم سنة ٢١٥هـ .

وكانت آخر ثورات العرب بمصر من أجل الخراج تلك التى قامت فى سنة ٢١٦ هـ فى ولاية عيسى بن منصور والتى اشترك فيها العرب مع الأقباط وانتهت بقدوم المأمون إلى مصر لإخضاعها [١]

وكان العرب إلى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) يتميزون عن الأقباط الذين أسلموا ، فكانوا يأخذون العطاء ، بينما يحرم منه أهل البلاد الذين يعتنقون الإسلام .

وكثيراً ما كان أهل البلاد يشعرون بأنهم دون العرب مهما أسلموا ، فتذكر الروايات أن نفراً من العرب كانوا يتحرشون بأهل الحرس [٢] ، ويؤذونهم ، فذهب أهل الحرس إلى زكرياء بن يحيى كاتب العمرى قاضى مصر إذ ذاك من قبل الخليفة هارون الرشيد (١٨٥ — ١٩٤ هـ) وكان هذا الكاتب منهم ، فقالوا له : حتى متى نؤذى ويطعن فى أنسابنا ؟ فأشار عليهم زكرياء بجمع مال يدفعونه إلى العمرى — وكان ذلك القاضى ممن عرفوا بقبول الرشوة — ليسجل لهم سجلا بإثبات أنسابهم ، فجمعوا له ستة آلاف دينار ، وشهد جماعة لهم بأنهم عرب [٣] .

ويقال إنه لما ولى قضاء مصر هاشم بن أبى بكر البكرى من قبل

(١) الكندى ص ١٩٠ — ١٩٢

(٢) حرس بالتحريك قرية فى شرق مصر (ياقوت . معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٣٩) والظاهر أن أهلها كان يشك فى عروبتهم وكانوا يعدون من القبط الذين أسلموا .

(٣) الكندى ص ٣٩٧ — ٣٩٩

الأمين (١٩٤ — ١٩٦ هـ) بعث بعض العرب فى مصر وفداً إلى الخليفة وذكروا ما فعل العمرى مع أهل الحرس ، وأنه ألحقهم بالعرب ونسبهم إلى حوتكة بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ، فبعث الأمين إلى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لايمنح أحداً من غير العرب اللحاق بالعرب ويأمره أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم ، فرجع الوفد بذلك . ودعا البكرى أهل الحرس بالسجل الذى دونه العمرى لهم ، فأتوه به فخرقه وقال لهم : العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض ، إن كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد[1] .

* * *

وقد تم اندماج العرب بالمصريين زمن الخليفة المعتصم العباسى إذ كانت سياسة هذا الخليفة منذ كان ولياً للعهد تنطوى على الاعتماد على الأتراك وعدم الثقة بالعرب أو الفرس . فلما بويع بالخلافة أرسل إلى والى مصر كيدر نصر ابن عبد الله (٢١٦ — ٢١٩ هـ) يأمره بإسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم فتم ذلك[2] . ويظهر أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد ، بدليل أن قرار المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف . فعند ما قطع كيدر العطاء ثار يحيى ابن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام وقال : « هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا » . ولكن لم يتبعه أكثر من خمسمائة رجل . ومات كيدر فى ربيع الآخر سنة ٢١٩ هـ فخرج مظفر بن كيدر والى مصر من بعده إلى يحيى بن الوزير وقاتله فى بحيرة تنيس فأسر يحيى بن الوزير ، وتفرق عنه أصحابه فى جمادى الأولى سنة ٢١٩ هـ[3] .

---

(١) الكندى ص ٤١٢ — ٤١٥

(٢) الكندى ص ١٩٣ وخطط المقريزى ج ١ ص ٩٤

(٣) الكندى ص ١٩٤ وخطط المقريزى ج ١ ص ٩٤

ونلاحظ أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، فإننا نرى فى معظم شـواهد القبور التى اكتشفت حديثاً فى مقابر أسوان والفسطاط أن أسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خـلال القرنين الأولين للهجرة ، ولـكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة قد حل محلها اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى ، فيكتب فلان الـكوفى أو المصرى الخ[1] . . .

وهذا يدل على أنه فى القرن الثالث الهجرى أصبح العرب فى مصر لا يتميزون عن أهل البلاد . ولم يكن هناك بعد قرار المتصم ما يُحسد عليه العرب من نسل الفاتحين . إذ أنه بعد ما فقد العرب مركزهم السامى فى الدولة الإسلامية ، اضطروا إلى الانتشار فى الريف والاختلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها . فـكان هذا العمل الذى قام به المتصم ضد العرب ممـا أفاد الإسلام فى مصر وساعد على انتشاره بين المصريين كما كان له أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية بمصر وقضائها على اللغة القبطية .

والحق أن انتشار الإسلام بمصر لم يكن كله راجعاً إلى تأثير الحـكومة المركزية بدار الخلافة ، بل انتشر الإسـلام منذ أول الفتح بتأثير عوامل أخرى . فلقد اعتنق بعض الأقباط الدين الإسلامى منـذ البداية حباً فى الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة والتمتع بما لها من حقوق ، والمغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب ، على حد قول ابن خلدون .

(١) Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte. t. II. pp. 136 — 137

ولا ريب فى أن فريقاً من القبط أقبلوا على إعتناق الدين الإسلامى عن إيمان وإقتناع ، ولعل فريقاً كان قد ملّ الخلافات الدينية التى كانت تقسم العالم المسيحى فى ذلك الوقت ، والاضطهاد الذى كان يتعرض له أصحاب المذهب الذى لا تؤيده الحكومة السائدة .

وقد تبع انتشار الإسلام فى مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضاً ، فأصبحت لغة الكتابة ولغة التخاطب . على أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الإسلامى فيها . وقد عرفنا مما سبق كيف كان احتلال العرب سبباً فى إنعاش اللغة القبطية فى أول الأمر ، بعد أن كانت اللغة اليونانية حتى الفتح العربى هى اللغة الرسمية للحكومة وللكنيسة وللتعليم وللتجارة وللعلاقات الخارجية . ولا نعرف بالضبط متى أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين المصريين ، وإنما لا بد أن الذين اعتنقوا الدين الإسلامى كانوا يتعلمون اللغة العربية ، لغة القرآن . كذلك اضطر الأقباط الذين كانت تستخدمهم الحكومة العربية إلى تعلم تلك اللغة منذ أن أصبحت لغة الدواوين الرسمية سنة ٨٧ هـ فضلا عن أن هجرة القبائل العربية إلى مصر واستقرارها بها قد ساعد على جعل تلك اللغة لغة التخاطب بين أهل البلاد .

ويذهب القس رنودو Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن ، تلاشت اللغة القبطية نهائياً فى معظم القطر المصرى ، ولم تعد تعرف إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة (١) .

ولكننا نستبعد ذلك الرأى . ففى عهد الخليفة المأمون الذى أصبح

---

(١) Quatremere : Recherches sur la langue et la littérature de l'Egypte p. 39

فيه الشعب المصرى ، يدين معظم أفراده بالإسلام ، كانت اللغة القبطية لا تزال لغة التخاطب بين المصريين . ويدلنا على ذلك ما ذكره المقريزى[1] فى كلامه عن زيارة المأمون لمصر إذ يقول : « وكان لا يمشى أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس »

ولكننا نرى البطرك الملكانى سعيد بن بطريق يكتب كتابه فى التاريخ باللغة العربية ، وذلك فى القرن الرابع الهجرى . وكذلك نرى ساويرس أسقف الأشمونيين يؤرخ للبطاركة فى أواخر القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ، ويقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها ، مما يدلنا على أن اللغة العربية أصبحت لغة الكلام ولغة التخاطب بين المصريين عامة ولم تعد اللغة القبطية تفهم بين عامة الشعب .

ويذكر متز أن القبط لم يبدأوا فى ترك لغتهم القبطية إلا حوالى أواخر القرن الرابع الهجرى[2]

ولكن ليس معنى هذا أن اللغة القبطية اندثرت أو زالت نهائياً وإنما بقيت محصورة فى نطاق ضيق ، ولا زالت تدرس إلى اليوم ، كما أن كثيراً من الكلمات العامية التى نستعملها اليوم ترجع إلى اللغة القبطية[3] .

ولا ريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين ، فإن الشعوب المختلفة التى توالت على مصر قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين .

وهذه ظاهرة تستحق إمعان النظر ، لأن تنازل شعب عريق فى المدنية

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٨١

(٢) الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٨٩

(٣) Dr. Georgy Sobhy bey : The Survival of Ancient Egypt pp. 65—67

كالشعب المصرى ، عن لغته ، واتخاذه لغة شعب لا يوازيه فى الحضارة أمر غير عادى .

ولم يقف الأمر عند انتشار اللغة العربية بل إننا نجد مصر فى أواخر عصر الولاة تشارك فى الحياة الأدبية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ آخر القرن الثانى الهجرى فيظهر فيها من له شأن فى العلم باللغة العربية وآدابها إذ نسمع حين قدوم الإمام الشافعى إلى مصر ، وهو الإمام فى العربية وعلوم الدين ، أنه التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم « سرج الغول » ، وكان هذا الرجل حجة فى اللغة ، وكان الأمام الشافعى شديد الأنس به ، يقول لتلميذه الربيع بين حين وآخر . «يا ربيع ادعى لى سرجا» فيأتى به ويذاكره الشافعى ويناظره ويعجب بغزارة علمه حتى يقول بعد انصرافه . « يا ربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم . »[١]

ونبغ فى مصر فى القرن الثانى الهجرى وبداية الثالث مثل أبى عبد الله أحمد بن يحيى التجيبى ولاء ، المصرى ، الحافظ النحوى ، أحد الأئمة الذى كان من أعلم أهل زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين « وفى هذا مايشهد باشتراك مصر فى الحركة الأدبية العربية اشتراكا قويا منذ ذلك العهد »[٢]

وكانت مصر إحدى الأمم القليلة التى تخلت نهائيا عن ماضيها الوطنى وعن لغتها القديمة ورمت بنفسها فى أحضان الإسلام والمدنية الإسلامية فلم يقض فتح العرب لإيران والهند على لغتهما القومية ولم يقض على العقائد

(١) السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥٢
والأستاذ أمين الخولى : مصر فى تاريخ البلاغة ص ٨
(مجلة كلية الآداب — المجلد الثانى ج ١ سنة ١٩٣٤ م)

(٢) الأستاذ أمين الخولى ، المرجع نفسه ص ٨

الدينية التى وجدت فيهما قبل الفتح قضاء تاما . ولم يمنع اعتناق الأتراك للدين الاسلامى من الاحتفاظ بلغتهم القومية . ونرى الأندلس ، التى كانت تزدهر فيها حضارة إسلامية بعد أن فتحها العرب ، تغلب على أمرها فى أواخر العصور الوسطى وتعود ثانية دولة مسيحية الدين بعيدة عن اللغة العربية[١] .

ونجد مصر فى الفترة ما بين الفتح العربى والفتح العثمانى لا تصبح دولة إسلامية فحسب بل تتزعم العالم الإسلامى كله ، فبعد أن كانت مصر خاضعة للخلافة فى عهد الولاة نجدها تصبح مركزاً للخلافة الفاطمية (٣٦٢ — ٥٦٧ هـ) التى نافست الخلافة العباسية فى وقت ما ، ثم نجد مصر تصبح مركزاً للخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد على أيدى المغول فى سنة ٦٥٦هـ وانتقالها إلى مصر فى عهد الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ ، تلك الخلافة التى ظلت قائمة بها إلى الفتح العثمانى سنة ٩٢٣ هـ ، أى أن مصر فى هذه المرة بعد فتح العرب لها خرجت فخورة بحضارتها الإسلامية وبزعامتها للعالم الإسلامى أجمع . وحسبنا دليلا على علو مركز مصر فى العالم الإسلامى منذ العصور الوسطى أن نذكر قول ابن خلدون . « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع[٢] » .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٢٤

(٢) المقدمة . ص ٤٨١ (فصل فى أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم)

الباب الرابع

حضارة مصر فى فجر الاسلام

١ — الزراعة

تعتمد مصر اعتماداً رئيسياً فى ثروتها على الزراعة وكانت الزراعة مصدر خيراتها الوافرة . ولم يختلف العرب عن غيرهم من الفاتحين الذين تتابعوا على البلاد المصرية منذ القدم فقد جاءوا لفتحها وهم يعلمون بثروتها وخيراتها . وكثيراً ما أظهروا إعجابهم بتلك الخيرات والنعم التى خص بها الله مصر والمصريين . ومن هذه الخيرات الوفيرة كانت مصر تقدم للفاتحين المال والطعام فلا عجب إذا قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة[١] ، تعدل الخلافة[٢] » .

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص : من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتُنَوِّر ثمارها[٣] . ولعل أبدع وصف ، وصفه العرب لمصر ، ما جاء فى الكتاب الذى ينسب إلى عمرو بن العاص أنه كتبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب حين بعث إليه الخليفة يسأله أن يصف له مصر ، فقال : « اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها

---

(١) يقصد إذا اجتمعت الامارة والولاية على الخراج لشخص واحد ، فضم إلى الادارة العامة النظر فى الأمور المالية

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٩٢ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٢٧

(٣) خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٥ .

جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخم عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل ، فإذا تكامل فى زيادته ، نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة يحرثون باطن الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم ، فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها منها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها[١] فى عمل جسورها وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل » .

وزعموا أن الخليفة حين ورد عليه هذا الكتاب قال : لله درك يا ابن العاص ! لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده[٢] .

---

(١) الارتفاع . معناه الخراج أو ما يجبى من البلد .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣٢ — ٣٣ يشك بعض الأدباء المحدثين فى نسبة هذا الكتاب إلى عمرو بن العاص . انظر كامل حسين : (فى الأدب المصرى الإسلامى ص ٨٨ — ٩٠) .

ولا يشهد هذا الوصف بثروة مصر الزراعية فحسب ، بل يدل أيضاً على أن العرب كانوا يعلمون أنه يجب عليهم حفر الترع وعمل الجسور وغير ذلك من الأمور التى تضمن كثرة الخراج ودوام تلك الثروة .

والواقع أن مصر كان لها مكانة خاصة عند المسلمين منذ البداية فقد ذكرت فى القرآن فى عدة مواضع كما ذكرت فى الأحاديث النبوية . وقد كانت بعض الأحاديث التى تنسب إلى النبى عن « فضائل مصر » نواة لفصول فى هذا الصدد كتبها المؤرخون والمؤلفون المصريون فى العصور الوسطى ، بل ألفت كتب مستقلة عن فضائل مصر منها كتاب فضائل مصر لعمر بن محمد الكندى وفضائل مصر لابن زولاق[1] .

ولا ريب فى أن العرب كانوا يقدرون مصر بسبب خيراتها الوفيرة الناتجة من الزراعة . وكانت مصر كما هى الآن تنتج الحبوب بكثرة وخاصة القمح وكذلك الخضروات والفاكهة ، وكان يزرع فيها الكتان بكثرة . فكثيراً ما نرى الإشارة إلى زراعته فى أوراق البردى[2] التى ترجع إلى عصر الولاة . وتشير أوراق البردى التى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى إلى زراعة قصب السكر فيها[3] . وقد نسب إلى الأمام الشافعى ، الذى عاش بمصر فى أواخر القرن الثانى ، أنه قال : « لولا قصب السكر ما أقمت بمصر[4] » .

(١) أنظر . النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٣٤ — ٣٤٣ ، خطط المقريزى جـ ١ ص٢٣ — ٣٠ الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية . ص ٣٠ ونذكر بهذه المناسبة أن هناك نسخة خطية لكتاب فضائل مصر للكندى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٢ كما أن هناك نسخة خطية لكتاب ابن زولاق بمكتبة الأزهر تحت رقم ٦٦٩ .

(٢) Grohmann : Arabic Papyri, vol. 2 p.p. 44, 46—48.

(٣) وانظر أيضاً آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٦١
PapyrusErzherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung p. 183

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة (جـ ٢ فصل ذكر الفواكه)

وكان القمح أهم ما ترسله مصر إلى الخلافة بعد الفتح فبعد أن كانت ترسل القمح سنويا إلى روما ثم بيزنطة ، أصبحت بعد الفتح العربى ترسل القمح إلى الحجاز . وقد استمرت عادة إرسال القمح إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز إلى الشام ثم إلى العراق . بل استمرت تلك العادة إلى اليوم . لذا يذكر المؤرخون أن من فضائل مصر أنها تمير الحرمين الشريفين وتوسع على أهلهما[١] .

ولا نعرف أن العرب ، فى فجر الإسلام ، أدخلوا أصنافا جديدة من المزروعات فى مصر ، أو طرقا جديدة للزراعة والرى غير تلك التى كانت موجودة فى مصر . والواقع أن طريقة زراعة الأراضى فى مصر ظلت كما هى منذ عهد الفراعنة ، وإن كانت قد تقدمت نوعا فى عهد الرومان إلا أنها ظلت على حالها من غير تغييرات أخرى حتى أوائل القرن التاسع عشر[٢] .

وقد كانت الطريقة الشائعة للرى حتى القرن التاسع عشر ، هى طريقة رى الحياض ، اللهم إلا فى بعض الجهات التى كان يمكن ريها ريا دائما مثلما كان يحدث مثلا فى أراضى الحدائق بالفيوم[٣] . ومن الزراعات الشتوية فى مصر القمح والكتان والشعير والفول والعدس . ومن الزراعات الصيفية . القطن وقصب السكر والقلقاس والسمسم واللوبيا والبطيخ والكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ[٤] .

وعرف العرب أن واجبهم ، كواجب أى حكومة تحكم البلاد المصرية ،

---

(١) النويرى : نهاية الأرب : ص ٣٤١ — ٣٥٤ (فى الطبعة الأولى) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٨ .

(٢) Munier : L'Egypte Byzantine p. 81

(٣) Johnson: Roman Egypt vol. 2. p. 7.

(٤) خطط المقريزى ج ١ ص ١٠١ — ١٠٣

أن يشرفوا على أمور الرى والزراعة . فإن نظام الرى والزراعة هو الذى جعل مصر أسبق الأمم منذ العصور القديمة ، إلى الوحدة والنظام وإلى الخضوع لحكومة منظمة موحدة ، تنظم الإنتاج ، وتنظم الرى ، وتحفر الترع ، وتقسم الأحواض ، وتهتم بالجسور ، وتدفع خطر الفيضان وغير ذلك من الأمور التى تتطلبها هذه البلاد ، والتى لا يستطيع الأفراد القيام بها من غير هيئة عليا تشرف عليها وتقوم بالنفقات التى تلزم لها .

ويذكر المؤرخون أنه عقب الفتح مباشرة كانت حكومة العرب تباشر حفر الترع ، وإقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وغير ذلك مما يلزم للرى والزراعة . وكان يقوم بذلك العمل صيفاً وشتاء حوالى ١٢٠٫٠٠٠ عامل[١] .

ولا تعطينا كتب التاريخ شيئاً مفصلا عن مدى عناية العرب وإشرافهم على الرى والزراعة طوال عصر الولاة . ولكن لا نستبعد أن يكون الخلفاء وولاة مصر قد حذوا حذو عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فى هذا الشأن .

كذلك نرجح أن العمال الذين كانوا يكلفون بالعناية بالترع والجسور ، وإقامة القناطر كانوا يعملون بطريق السخرة ، كما كان الحال قبل الفتح العربى . وكما كان بعد الفتح حتى العصور الحديثة . بل إن السخرة ظلت تفرض على الأهالى فى مصر فى أوقات الفيضان (ويعرفها الأهالى باسم العونة) للعناية بالجسور والمحافظة عليها حتى ألغيت فى عام ١٩٣٧ م ، وأصبح الأهالى يتقاضون أجوراً عن أعمالهم بعد أن كانوا يعملون بدون أجر .

---

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٥١ . خطط المقريزى ج ١ ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة . ج ١ ص ٦٣ .

وهناك بصفة عامة نوعان من الجسور ، جسور رئيسية تهم البلاد كلها وجسور محلية تهم أهل الجهة دون الأخرى . وكان يطلق على الجسور الرئيسية فى زمن المقريزى الجسور السلطانية ، وكان يطلق على النوع الآخر من الجسور ، الجسور البلدية . ويذكر المقريزى[1] أن الجسور السلطانية من القرى بمثابة سور المدينة ، الذى يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته ، وكفاية الرعية أمره . أما الجسور البلدية فكأنها الدور التى من داخل السور ، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها .

ويذكر المقريزى[2] أيضاً أنه كان يفرض على كل ناحية مال معلوم ليصرف فى عمل الجسور والمحافظة عليها ، وأن ذلك بطل فى زمانه . ونحن لا نستبعد أن يكون العرب بعد الفتح قد جبوا ضريبة الجسور ، وأن ذلك كان استمراراً لما كان قبل الفتح ، إذ كانت تجبى ضرائب من المصريين للمحافظة على الجسور .

وقد اهتم العرب عقب الفتح مباشرة ببناء مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان فى مياهه ، ليكون ذلك معياراً صادقاً للزراعة والرى والضرائب فى كل عام . على أن العرب لم يكونوا أول من بنى مقاييس للنيل فى مصر ؛ وإنما عرفت مقاييس النيل منذ التاريخ القديم . ورغم وجود مقاييس للنيل قبل الفتح العربى نرى الخليفة عمر بن الخطاب يهتم ببناء مقاييس جديدة ، وكانت مقسمة على أساس الذراع ، وكل ذراع ينقسم إلى أربعة وعشرين أصبعاً[3] ، وقد بنى عمرو بن العاص مقاييس

(١) الخطط جـ ١ ص ١٠١

(٢) الخطط جـ ١ ص ١١٠ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٩ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ٥٨ — ٥٩ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩٧

بحلوان وأسوان ودندرة ، ثم بنى فى أيام معاوية بن أبى سفيان مقياساً بأنصنا[١] . ثم بنى عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر مقياساً بحلوان التى اتخذها عاصمة للديار المصرية . وفى خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج مقياساً بجزيرة الروضة سنة ٩٧ هـ ثم بنى الخليفة المتوكل مقياساً بجزيرة الروضة فى سنة ٢٤٧ هـ . وكان يعرف فى ذلك العهد بالجديد[٢] . وقد عثر على مقياس المتوكل فى جزيرة الروضة ، وقد كتبت عليه السنة ، وهى سنة ٢٤٧ هـ كما كتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين أمر عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ببناء هذا المقياس الهاشمى لتعرف به زيادة النيل ونقصانه ، وأطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وأدام له العز والتمكين والظفر على الأعداء وتتابع الإحسان والنماء وزاده فى الخير رغبة وبالرعية رأفة ، وكتبه أحمد بن محمد الحاسب فى رجب سنة سبع وأربعين ومائتين » . وكتب فى موضع آخر أن الماء بلغ فى السنة التى بنى فيها هذا المقياس المتوكلى سبع عشرة ذراعاً وثمانية عشر أصبعاً[٣] .

وطبيعى أن العرب عملوا على كل ما من شأنه زيادة الإنتاج ، لأن ذلك

---

(١) أنصنا وهى مدينة من نواحى الصعيد على شرقى النيل (ياقوت معجم البلدان جـ ١ ص ٣٨١) .

(٢) القلقشندى : جـ ٣ ص ٢٩٨ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٥٨ وأبو المحاسن جـ ٢ ص ٣١٠ — ٣١١

(٣) أنظر Van Berchem : Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. Egypte. I p. 21; Répertoire Chronologique d'epigraphie Arabe. t. 2. d.p.4,4 53, 55—56

يكفل لهم كثرة المال وكثرة القمح . ونرى فى عقود إيجار الأراضى فى ذلك العهد أن المؤجر يشترط على المستأجر شرطاً هذا نصه : « وما بورت فمليك خراجه[١] » أى أنه يلزمه بدفع الخراج عن الأراضى التى يتركها دون زرع حتى تصبح أراضى بور ، وطبيعى ألاّ يرضى المزارع أن يدفع خراجاً عن الأراضى البور التى لا يستفيد منها ، فكان هذا الشرط يحمل المزارعين على الانصراف إلى الزراعة ، وعدم إهمال الأرض . ولعل هذا الشرط الذى اعتاد المؤجرون أن ينصوا عليه ، كان بسبب حرص الحكومة على زراعة الأرض وعدم إعفاء الأرض البور من الخراج .

وقد كانت الأراضى بمصر تقاس بالفدادين[٢] كما هو الحال الآن وكان إيجار الأراضى يدفع نقداً أو نقداً وعيناً ، ولكننا لم نعثر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الإيجار كان يدفع عينا فقط . وكان إيجار فدان القمح يتراوح فى ذلك العهد الذى نتحدث عنه بين دينار ودينارين وأحيانا يزيد على الدينارين أو ينقص عن الدينار فيكون الإيجار ½ دينار أو ٢½ دينار[٣] .

ولا شك فى أن الثورات التى كانت تحدث بمصر من وقت إلى آخر كانت تسبب أضراراً كثيرة بالزراعة إذ كانت تقل بسببها الأيدى العاملة كما كان المزارعون يهجرون قراهم أحيانا . ولكن حكومة العرب عملت على قمع مثل تلك الحركات بشدة لتلافى الخطر الناتج عنها . كذلك رأينا كيف كان قرة ابن شريك يتتبع حركة الهرب ليقضى عليها دون هوادة . كما أن الخلافة

---

(١) Grohmann : Arabic Papyri. vol.. 2. pp. 45—48.

(٢) Grohmann : op. cit. pp. 32. 44. 45. 48 etc...

(٣) op. cit. pp. 32—34.

منذ عهد هشام بن عبد الملك أخذت تشجع القبائل العربية على الوفود إلى مصر والاشتغال بالزراعة .

فمصر كانت إذاً معينا فياضاً للأموال والغلال ولم تكن الخلافة لتغفل أمرها إذ أن كل ضرر يحيق بها لا بد وأنه كان يؤثر من ناحية أخرى فيما تجبيه الخلافة منها .

وحسبنا دليلا على رخاء مصر وازدهار زراعتها فى فجر الإسلام ما كتبه النويرى فى الكلام على فضائل مصر (نهاية الأرب ج ١) ، فقد جاء فيه : « وقال سعيد بن عقبة : كنت بحضرة المأمون حتى قال ، وهو فى قبة الهواء : لعن الله فرعون حين يقول : « أليس لى ملك مصر » فلو رأى العراق ! . فقلت : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله ، هذا بقيته ؟ قال : ثم قلت : لقد بلغنى أن أرضاً لم تكن أعظم من مصر ، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم : يحبسونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله إلى آخره ، ما بين أسوان إلى رشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع . ولقد كانت الأمَة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر . وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر »

٢ — الصناعة

اشتهرت مصر منذ التاريخ القديم بعدة صناعات بالرغم من أن ثروتها الرئيسية تتوقف على الزراعة . فازدهرت فيها صناعات هامة مثل صناعة البناء والورق والزجاج والنسيج والدباغة وصناعة الخشب والفنون الدقيقة كالحلى وأدوات الزينة ، وصناعة الزيوت والعطور والفخار . ونلاحظ أن الصناعات التى نشأت بها كانت تعتمد فى معظم الأحيان على المواد الخام المنتجة فى البلاد ولكن مصر كانت تضطر إلى استيراد بعض المواد الخام من الخارج مثل الحديد والخشب والجلود والحرير .

وقد كان حكامها المختلفون يشجعون هذه الصناعات ، فلما فتحها العرب وجدوا بها صناعة مصرية راقية وأساليب فنية زاهرة . على أن العرب الذين أتوا إلى مصر لم يكونوا من البدو الذين لا حضارة لهم ولا فن ، وإنما كان معظمهم من المنصر اليمنى الذى اشتهر منذ القدم بحضارته الراقية وبفنونه الرائعة ، ولو أن هذه الحضارة كانت قد اضمحلت عند قيام الإسلام إلا أنه كان عندهم استعداد لقبول الحضارة وكان عندهم ملكة واسعة فى التصور والذوق الفنى نتيجة اتصالهم الدائم بالشعوب الأخرى مثل البيزنطيين والفرس والأحباش والمصريين فى أثناء رحلاتهم للتجارة .

لذا نجد أنه بعد فتح مصر نشأت صناعة إسلامية مصرية وفن إسلامى مصرى كان للمصريين اليد الكبرى فيه ، وإن كان العرب قد أفلحوا فى طبعه بطابع دينهم ، وفى إظهار شخصيتهم فيه بحيث تميزت الصناعات والفنون الإسلامية عما كان موجوداً فى مصر قبل الفتح ، كما كان عمادها من المصريين لا العرب .

وكان معظم الصناع بمصر فى فجر الإسلام من المصريين ، سواء أكانوا ممن بقى على دينه من الأقباط أم ممن أسلم منهم . فالعرب فى أول ذلك العهد كانوا لا يتدخلون فى الصناعات وغيرها من المهن ، وإنما كان بيدهم السياسة والحكم والحرب . وحتى بعد أن بدأ العرب يختلطون بالأهالى ويملكون الأراضى ويشتغلون بالزراعة منذ أوائل القرن الثانى الهجرى لم يصبحوا الأغلبية بين الصناع فى مصر . ولا شك فى أن كثيراً منهم اشتغلوا بالصناعة وخاصة بعد أن أمر الخليفة المعتصم باسقاطهم من الديوان ، ولكن المصريين كان لهم الغلبة والكثرة العددية على إخوانهم من العرب .

البناء

عرف المصريون منذ القدم بتقدمهم فى صناعة البناء وفى فن العمارة وتشهد بذلك آثارهم فى مختلف العصور . فلما جاء العرب اختطوا مدينة الفسطاط وبنوا فيها المسجد الجامع إلا أن أبنيتهم كانت بسيطة جداً وذلك بحكم عيشة الخشونة التى كانت تغلب عليهم فى أول الأمر ثم ما لبث الرخاء أن طغا عليهم وتدفقت الثروة إليهم من كل جانب فبدأوا ينزعون عنهم عيشة البساطة وينعمون فى حياتهم وفى مساكنهم . وأسرعوا إلى تذوق الحضارة الراقية والترف والنعيم وبدا ذلك واضحاً جليا فى العمارة الإسلامية فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ولما يمض على الفتوحات الإسلامية قرن من الزمان . ولا زالت العمائر التى بنيت فى ذلك العهد المتقدم باقية إلى اليوم ، مثل قبة الصخرة التى بناها فى بيت المقدس عبد الملك ابن مروان ومثل الجامع الأموى الذى بناه فى دمشق الوليد بن عبد الملك وأسرف فى تزيينه .

تقدمت العمارة الإسلامية فى جميع أنحاء المملكة دون استثناء ومن بينها

مصر . فسرعان ما نمت مدينة الفسطاط ودب فيها العمران والحضارة وبنيت فيها الحمامات والأسواق كما بنيت الدور العالية بعد أن كان البناء بسيطا . وقد عرفنا أنه فى خلافة عثمان بن عفان بنى عبد الله بن سعد قصراً كبيراً عرف باسم قصر الجن[١] وفى أثناء الشهرين اللذين أقامهما فى مصر مروان ابن الحكم أمر ببناء الدار البيضاء ليسكنها وقال إنه لا ينبغى لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها دار[٢] . كذلك أمر عبد العزيز بن مروان ببناء الدار المذهبة سنة ٦٧ هـ فى غربى المسجد الجامع وكانت تدعى المدينة[٣] . وحسبنا هذه التسمية لنعرف مبلغ تلك الدار من العظمة والفخامة .

وبنى عبد العزيز الدور والمساجد فى حلوان التى اتخذها عاصمة له ، وعمرها أحسن عمارة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، حتى قيل إنه أنفق فى بنائها مليون دينار[٤] .

وهكذا نرى أن العمارة الإسلامية أخذت تتقدم بسرعة فى مصر . ولما سقطت الدولة الأموية وجاءت دولة بنى العباس ، اختط العباسيون مدينة العسكر وبنوا فيها جامع العسكر . أما جامع عمرو بن العاص فقد ناله من التحسينات والزيادات والتزيين بقدر ما نال العمارة الإسلامية من التقدم فى ذلك العهد . فتذكر الروايات أنه لم يكن لجامع عمرو فى بادئ الأمر محراب مجوف ويقال إن أول من جعل المحراب قرة بن شريك[٥] . وكان جامع عمرو فى بادئ الأمر طوله خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون ذراعا . وكان

---

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١١٠
(٢) الكندى ص ٥٠
(٣) الكندى ص ٤٩
(٤) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع جـ ٢ ص ٤٠
(٥) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٤٧

هناك بابان فى شرق المسجد يقابلان دار عمرو بن العاص ، وجعل له بابان فى شماليه وبابان فى غربيه وكان سقفه واطئاً جداً ولا صحن له وكان بينه وبين دار عمرو سبع أذرع . ويقال إن عمرو بن العاص اتخذ منبراً فيه فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بكسره لأنه لا يرضى أن يكون عمرو قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيه ، فكسره عمرو[١] .

ولكن المسلمين لم يتركوا ذلك الجامع بسيطا كما كان ؛ ففى ولاية مسلمة ابن مخلد الأنصارى على مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان (٤٧ — ٦٢ هـ) ضاق المسجد بأهله وشكوا ذلك إلى مسلمة فكتب مسلمة فيه إلى معاوية ، فأمره معاوية بالزيادة فيه ، فزاد فيه مسلمة فى سنة ٥٣ هـ من شرقيه ومن شماليه وجعل له رحبة فى شماليه وطلاه بالجص وزخرف جدرانه وسقوفه ولم يكن قبل ذلك فيه طلاء أو زخرف . كذلك أمر ببناء منار المسجد فجعل مسلمة للجامع أربع صوامع أو مآذن فى أركانه الأربعة . وهو أول من جعلها فيه ، كذلك فرش الجامع بالحصر وكان قبل ذلك مفروشاً بالحصباء[٢] .
وفى ولاية عبد العزيز بن مروان أمر بالزيادة فى هذا الجامع فهدم كله وزاد فيه من جوانبه كلها وذلك فى سنة ٧٧ هـ[٣] . وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك أمر برفع سقف المسجد وكان واطئاً وذلك فى سنة ٨٩ هـ . ثم هدمه قرة بن شريك سنة ٩٢هـ بأمر الوليد بن عبد الملك وابتدأ فى بنيانه فى شعبان من السنة المذكورة[٤] وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بنى عامر بن

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٤٧ و ٢٤٨ Creswell : Coptic Influences on Early Muslim Architecture p.29.

(٢) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٣) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٣١ والكندى ص ٥١

(٤) عثر على نص يدل على أن إصلاح جامع عمرو تم فى ولاية قرة بن شريك فى رمضان سنة ٩٢ هـ
Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1. pp. 17—18.

لؤى وكانوا يجمعون الجمعة فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه وذلك فى شهر رمضان سنة ٩٣ هـ . ونصب المنبر الجديد فى سنة ٩٤ هـ ونزع المنبر الذى كان فى المسجد . وقيل إن المنبر القديم هو منبر عمرو بن العاص ، وقيل هو منبر عبد العزيز بن مروان ، وذكر أنه حمل إليه من بعض كنائس مصر ، وقيل إن ملك النوبة أهداه إلى عبد العزيز بن مروان وبعث معه نجاره الذى ركبه واسمه بقطر من أهل دندرة . ولم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد قرة بن شريك فى الجامع فنصب منبراً سواه . ولم يكن يخطب فى القرى إلا على العصى إلى أن ولى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير مصر من قبل مروان بن محمد فأمر فى سنة ١٣٢هـ باتخاذ المنابر فى القرى[١]

ويذكر الأستاذ كريزول أن شكل المنبر الإسلامى مشتق من المنبر المسيحى الشرقى[٢]

وهكذا نرى أن ولاة مصر وحكامها أخذوا يتعهدون جامع عمرو بن العاص بالزيادة والزخرفة والتحسينات . ونكرر هنا أن العرب لم يشتغلوا فى أول الأمر بالصناعة فى مصر وأنما قام ببناء العمارة الإسلامية فيها معماريون وبناءون من أهالى البلاد وصبغها الفاتحون بصبغة دينهم . ولا شك فى أن العمارة القبطية كانت متقدمة حين فتح العرب مصر ، وقد نقل العرب من المعابد والكنائس القديمة كثيراً من الأعمدة والتيجان ، استخدموها فى مساجدهم وبيوتهم كما يتجلى من وجود الأعمدة القبطية فى جامع عمرو[٣] . ونجد كثيراً من أعمدة الكنائس الرخامية فى معظم المساجد ، ولكن لا يجب

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٤٨ . Creswell : op. cit. p. 80.

(٢) Creswell : op. cit. p. 30.

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية ص ٧ — ٨

أن يتطرق إلى أذهاننا أن الكنائس خربت عمداً لتسد حاجة البناء في المساجد وخاصة في العهد الأول للإسلام ، إنما كان من السهل أن يأخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربي[١]. وقد اتخذ العرب كثيراً من كنائس النصارى ، مساجد لهم بعد أن غلبوا على القرى في عهد الخليفة المأمون[٢] وهذا نتيجة منتظرة لانتشار الإسلام وازدياد عدد المسلمين فضلا عن أنه لم يكن جديداً في التاريخ ، فانه لما أصبحت المسيحية في القرن الرابع للميلاد الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية حول النصارى في مصر الهيا كل إلى كنائس بأن نقشوا الصلبان على أعتاب أبوابها وأعمدتها وأبادوا الأصنام وغطوا ما كان منقوشاً على جدرانها من صور الآلهة القديمة بطبقة من الجص رسموا عليها صور السيد المسيح والرسل والقديسين ، وبنوا مذابح لإقامة القداس ، ولا تزال آثار ذلك ظاهرة إلى يومنا هذا بأغلب معابد الوجه القبلي . كما نرى في بعض هذه الكنائس والأديرة أحجارا انتزعت من المعابد الفرعونية القديمة استخدمها القبط في أبنيتهم الجديدة[٣] كذلك نرى البطرك كيرلس يهدم بعض بيع اليهود ويستعمل الأخرى كنائس[٤] .

ومهما يكن من شيء فإن العمارة الإسلامية أخذت عن القبط بعض العناصر المعمارية ؛ فكثيرون من العلماء يظنون أن المحراب مأخوذ عن « الحنية » التي توجد في صدر الكنيسة إلى جهة الشرق ، وأن مآذن

---

(١) Mrs. Devonshire : L'Egypte Musulmane p. 11.

(٢) خطط المقريزي جـ ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٢

(٣) الدكتور زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ص ٨ وما ذكره من مراجع

(٤) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne. T. IV. p. 23.

الجوامع الإسلامية مأخوذة عن أبراج الكنائس[١] .

كذلك أخذ المسلمون عن القبط فى زخرفة المبانى كثيراً من الموضوعات الزخرفية النباتية والهندسية كما أخذوا عنهم طلاء المبانى بطبقة من الجص[٢] .

ولم يقتصر الأمر على استخدام العرب للصناع المصريين فى بناء أبنيتهم فى هذه البلاد بل كثيراً ما استخدموهم فى الأبنية التى أنشئت فى غير مصر . ففى كتاب قرة بن شريك إلى صاحب كورة أشقوه نراه يحدد أجر أحد العمال الذى سيرسل للعمل بجامع دمشق لمدة ستة أشهر[٣] . وفى كتاب آخر منه نراه يطلب عدة رجال من أماكن مختلفة للعمل فى بناء قصر الخليفة الوليد ابن عبد الملك[٤] . وفى كتاب ثالث يطلب أحد العمال ويحدد أجره للعمل لمدة ستة أشهر فى جامع بيت المقدس[٥] . ونجد كتاباً آخر من قرة يختص بالنفقه على أربعين من مهرة العمال الذين استخدموا فى بناء جامع دمشق[٦] . ونجد كتاباً آخر يختص بالنفقة على الفعلة والعمال المهرة الذين يعملون فى جامع بيت المقدس وفى قصر أمير المؤمنين[٧] . وهناك كتب أخرى تختص

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية ص ٩ وما ذكره من مراجع

(٢) المرجع نفسه ص ١٠

(٣) Bell : Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam vol. 2) p. 274.

(٤) Bell : op. cit. p. 274.

(٥) Bell : (Der Islam vol. IV) p. 93.

(٦) Bill : (Der Islam 8) p. 133.

(٧) cf. Bell : op. cit. p. 388.

بالصرف على العمال الذين يعملون فى بيت المقدس أو دمشق أو قصر أمير المؤمنين[١].

ويذكر البلاذرى[٢] أن الخليفه الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث إليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر ، فبناه عمر بن عبد العزيز وزاد فيه وكان ذلك فى سنة ٨٧ هـ ويقال فى سنة ٨٨ هـ . وهذا يدلنا على مدى تقدير العرب لمهارة المصريين فى فن البناء والعمارة وكيف كانوا يستخدمونهم فى مصر وفى غيرها من البلاد الإسلامية . فمصر كانت تابعة للخلافة الإسلامية سياسيا ولا بد أنها أثرت وتأثرت بالخلافة من الناحية الفنية أيضا .

المنسوجات

ومن الصناعات التى ازدهرت بمصر فى فجر الاسلام صناعة المنسوجات ، صوفية كانت أو تيلية أو حريرية أو قطنية[٣] . ولم تكن هذه الصناعة أو غيرها من الصناعات التى اشتهرت بها مصر فى عهد الولاة شيئاً أحدثته الخلافة . وإنما كانت مما اشتهرت به مصر منذ القدم . فاستمرت صناعة النسج زاهرة فى عهد الولاة واستغلتها الخلافة كثيراً لسد حاجاتها المختلفة ،

---

(١) Bell. (Der Islam 3) p. 133, 137, (Der Islam IV) p. 95, (Der Islam XVIII) p. 6.

(٢) فتوح البلدان ص ٧ Creswell : op. cit. p. 32.

(٣) يشك الأستاذ Lamm فى انتاج القطن فى مصر فى ذلك العهد الذى نتحدث عنه ولكنه لا يجزم بذلك لأن القطن كان ينمو حينذاك فى كل البلاد الإسلامية تقريبا ولا بد أنه كان ينمو فى مصر أيضاً أنظر C. J. Lamm : Cotton in Mediaeval Textiles of the Near East pp. 4—6

كما أن القائمين بتلك الصناعة كانوا من المصريين ، شأنهم فى ذلك شأن أصحاب الصناعات الأخرى فى ذلك العهد . إلا أن الأقباط حملوا لواء هذه الصناعة لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد ، ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطى[١] ، ولا بد أن هذه التسمية نسبة إلى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية فى ميدان النسج ، كذلك يذكر ياقوت[٢] الذى عاش حتى أوائل القرن السابع الهجرى أن ناسجى الثياب فى دمياط وتنيس من القبط . وعلى كل حال فإن المراكز الرئيسية لصناعة النسج فى المصر الإسلامى كانت ، فى أغلب الأحيان ، المدن التى اشتهرت بالنسج فى العصر القبطى . وكان عدد كبير من سكانها لا يزالون على دينهم المسيحى[٣] ، وقد كانت صناعة النسج زاهرة فى عهد الفراعنة ثم تقدمت تقدماً كبيراً فى العصر القبطى . فكانت مصر تصدر إلى بيزنطة وإلى بابوات رومة كثيراً من الأقمشة النفيسة التى كان يذهب جزء كبير منها إلى الكنائس المسيحية[٤] . ويذكر Pliny أن مصر فى العهد الرومانى كانت تستورد سلع بلاد العرب والهند فى نظير تصديرها للمنسوجات الكتانية التى كانت مطلوبة جد الطلب للتجارة الشرقية[٥] .

أما فى العصر الإسلامى فقد تطورت صناعة المنسوجات وزخرفتها تطوراً خطها غير فجائى . وكان العرب منذ الفتح يميلون فى الزخرفة إلى

(١) الأزرقى : أخبار مكه ج ١ ص ١٣٧ و ١٦٨ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، خطط المقريزى ج ١ ص ١٨١

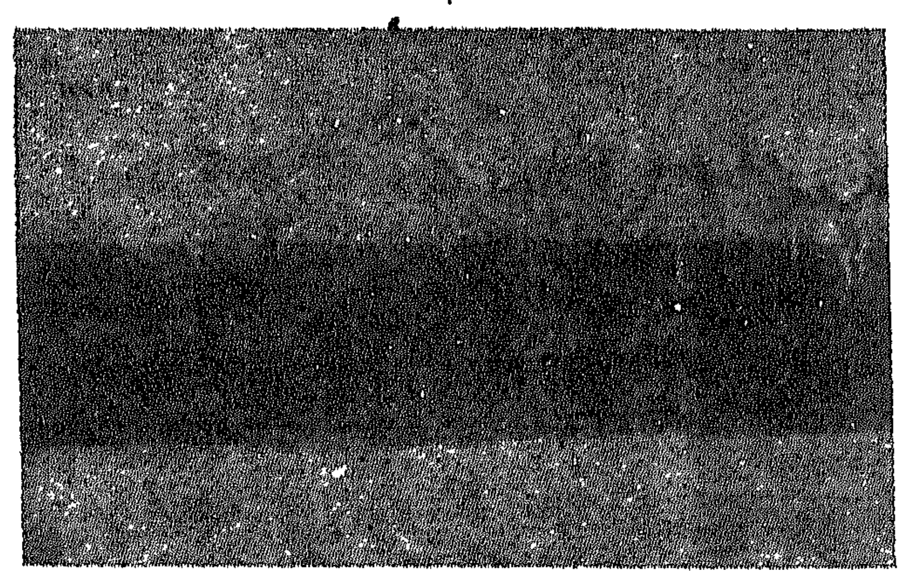
(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٦٠٢

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية ص ١٦

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٣ ، ٩٠

(٥) Johnson : Roman Egypt vol. 2. p. 338.

العناصر الهندسية والنباتية لكراهيتهم تصوير الانسان والحيوان (شكل ١) .



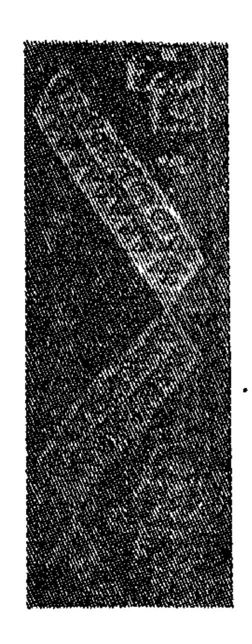
(شكل ١) قطعة نسيج محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة
ولعلها من صناعة مصر أو سورية فى فجر الاسلام

وكان هذا الميل نفسه قد دب إلى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادى ، فأصبحت الرسوم الآدمية والحيوانية فى زخارف المنسوجات القبطية محورة عن الطبيعة إلى حد بعيد (شكل ٢) . وهكذا لم يجد المصريون صعوبة كبيرة فى إرضاء الفاتحين وإنتاج التحف الفنية التى تتفق ومزاجهم . وعلى كل حال فإن صناعة النسيج لم تطبع فى مصر بطابع إسلامى ظاهر إلا فى العصر الفاطمى ، وحتى حين أصبحت صناعة المنسوجات فى العصر الفاطمى إسلامية بحتة لم تخل فى زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها فى وادى النيل[١] .

وكانت مصر مشهورة على الأخص بنسج الكتان لوفرة زراعته ،

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٠ ، بعض التأثيرات القبطية ص ١٢ — ١٣ .



(شكل ٢) قطعة قاش من الصوف محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة وهى من صناعة مصر فى القرن الثالث الهجرى (٩ م)

وكذلك كان يصنع فيها المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية . وإن كنا نوجح أن القطن والحرير الخام فى مصر لم يكفيا الاستهلاك المحلى والتصدير وأن مصر استمرت فى استيرادهما كما كان الحال قبل الفتح العربى . بينما كانت مصر تنتج من الصوف ما يكفى حاجتها ، فيذكر المقريزى[1] أن أرض الصعيد كثيرة المواشى من الضأن وغير ذلك ، لكثرة نتاجه . وفضلا عن ذلك فان العرب الذين استقروا فى مصر عنوا برعى الإبل والماشية كما كان الحال فى بلادهم ؛ ويذكر ابن الفقيه[2] أن أهل مصر يقولون : « الصوف والكتان لنا ، ليس لأحد من أهل البلدان مثلها » .

وكانت أهم مراكز النسج فى الوجه البحرى ، كما كانت توجد أيضاً مراكز هامة للنسج فى مصر الوسطى والعليا . وذاعت شهرة الاسكندرية فى هذه الصناعة . ويذكر المقريزى[3] أن الثياب المنسوجة بالاسكندرية لانظير لها ، وتحمل إلى أقطار الأرض ، وأن فى ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه إذا عُمل ثياباً ، يقال لها الشَّرب ، كل زنة درهم بدرهم فضة .

واشتهرت تنيس أيضاً بالثياب الفاخرة والفرش ، وكان معظم أهلها

---

(١) الخطط ج ١ ص ١٩٠

(٢) مختصر كتاب البلدان ص ٦٩

(٣) الخطط ج ١ ص ١٦٣

يشتغلون بالنسج ، وكان يحاك بها الثياب المعروفة بالشرب . ومما يدل على عظمة تنيس فى النسج أنه كان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة[١] غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار . وظل ذلك التصدير من تنيس إلى ما بعد سنة ٣٦٠ هـ ، حين ولى وزارة الفاطميين يعقوب بن كلس فمنع الإصدار[٢] . وإلى جانب هذه الثياب الجيدة كان يوجد ثياب رقيقة » مهلهلة النسج كأنها المنخل[٣] ، وهى المسماة بالقصب ، وكان هذا القصب يلون ، وكان الملون منه ينسج بتنيس ، ولم ينسج فى أى مكان آخر قصب ملون مثله ، وكان يعمل منه عمائم للرجال وملابس للنساء ، أما الأبيض فكان ينسج بدمياط[٤] . إذ يذكر المقدسى[٥] أن من تنيس الثياب الملونة لا من دمياط .

وكانت دمياط تقارب تنيس فى شهرتها فى النسج ، وكان يعمل بها الثياب الشرب والقصب . ويذكر الادريسى أن الثياب التى كانت تعمل بها من الكتان ، وربما بلغ الثوب من ثيابها إذا كان مذهبا ألف دينار ونحو ذلك ، ومالم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوه[٦] .

(١) السدى من الثوب خلاف اللحمة وهو مامد من خيوطه . واللحمة ما نسج عرضا من الثوب وهو بخلاف سداه

(٢) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ٩٠ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ الأدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٥٦ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٢٨٢ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ١٧٧

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٨٩٠

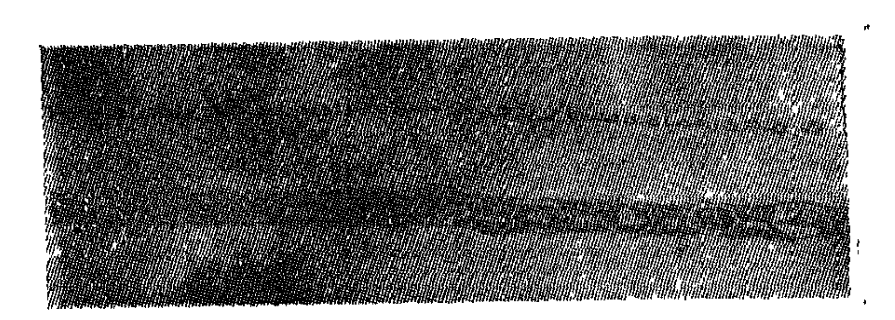
(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

(٥) أحسن التقاسيم ص ٢٠٣

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، الأدريسى صفة المغرب ... ص ١٥٦ — ١٥٧ ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٦٠٢ — ٦٠٣ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ١٧٧ .

وقد اشتهر فى النسج أيضاً من بلدان مصر السفلى شطا ودميرة وتونة وكلها قريبة من تنيس ودمياط [١] . وقد اشتهر فى النسج من بلدان مصر الوسطى والعليا مدينة البهنسا ، فكان ينسج بها الصوف والقطن ، وكان إذا صنع بها شيء من الصوف أو القطن كتب عليه اسم المتخذ له ، وقد اتخذوا ذلك عادة لهم جيلا بعد جيل [٢] . وقد كانت الكتابة ذات شأن فى صناعة المنسوجات فى العصر الإسلامى ؛ ففى دار الآثار العربية قطعة من الكتان الأبيض تشبه كثيراً الأقمشة القبطية وعليها شريط من زخارف فيه رسوم طيور محوّرة عن الطبيعة ومنسوج على هذه القطعة بالخط الكوفى البسيط سطر بالحرير الأحمر نصه :

« هذه العمامة لسمويل بن موسى . عملت فى شهر رجب من الشهور المحمدية من سنة ثمان وثمانين [٣] » (شكل ٣) .



(شكل ٣) قطعة قماش من الكتان الأبيض محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة . ومؤرخة من سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م)

واشتهرت القيس أيضاً بثياب الصوف وأكسية المرعز [٤] التى لم يكن

---

(١) الأدريسى : صفة المغرب ص ١٥٦ ، خطط المقريزى ج ١ ص ١٧٧ و ٢٢٦
(٢) اليعقوبى : كتاب البلدان . ص ٣٣١ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٣٧
(٣) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٦
(٤) المرعز اللين من الصوف .

لهـا مثيل والقيس كما نعرف ، على مقربة من البهنسا ، من أعمال مديرية المنيـا »(١)

وكان هناك مصانع للنسج فى الأشمونين(٢) وأسيوط وإخميم وأهناس(٣) وبوصير قوريدس(٤) وغيرها من بلاد الوجه القبلي .

وكانت هذه المنسوجات تنسب فى العادة إلى البلاد التى تعمل فيها ، فيقال الثياب الشطوية والقيسية ، ويقال التنيسى والدمياطى الخ ..

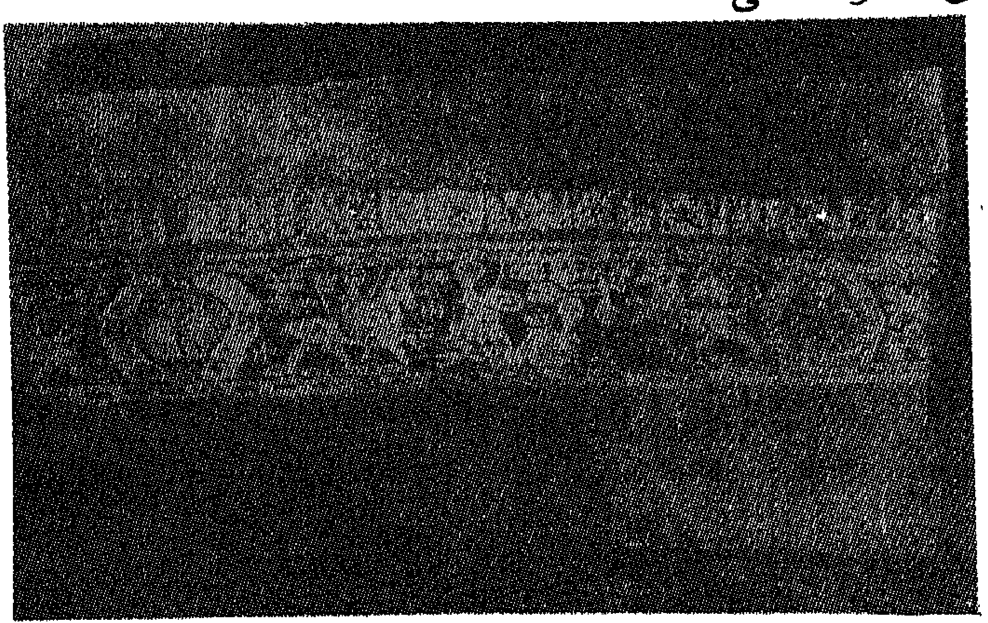
أما نسج الحرير فقد ازدهرت صناعته فى مصر فى فجر الإسلام . ومن المدن التى قامت فيها هذه الصناعة مدينة دبيق(٥) وقد عثر فى أخميم على لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان . ولسنا نعرف هل المقصود هنا مروان بن الحكم أو مروان بن محمد(٦)

وهناك أيضا منسوجات حريرية من إخميم فى المتحف البريطانى نسجها الصناع القبط وترجع إلى هذا العهد الذى نتحدث عنه أو بعده بقليل(٧) ويتجلى فيهـا المميزات القبطية والعربية . والحق أن زخارف المنسوجات المصرية بين الفتح العربى وقيام الدولة الفاطمية كانت لا تزال محتفظة بقسط وافر من روح الزخارف فى المنسوجات القبطية (شكل ٤) ، وتعتبر عصر

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣١ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٣٧
(٢) الأصطخرى : مسالك الممالك ص ٥٣
(٣) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣١
(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣
(٥) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٦
(٦) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1, No. 36 p. 28.
(٧) انظر Butler : Islamic Pottery p. 31

انتقال بين الطراز القبطى والمنسوجات ذات الزخارف الإسلامية الخالصة في العصر الفاطمى .



(شكل ٤) قطعة قماش من الصوف والكتان محفوظة بدار الآثار العربية في القاهرة . وهى من صناعة مصر فى القرن الثالث الهجرى (٩ م)

ولم يكن الفضل فى اتساع نطاق فن النسج فى مصر فى العصور الوسطى راجعاً إلى الأهالى فقط.وإنما كان يرجع إلى الحكومة أيضاً فقد كانت تسيطر على مصانع النسج ، والواقع أن هذه السيطرة نظام لم ينشئه المسلمون فى مصر بل أخذوه عن بيزنطة ، فالراجح المحتمل أن يكون البيزنطيون قد أنشأوا فيها مصانع حكومية للنسج إلى جانب المصانع الأهلية ، فلما جاء المسلمون أبقوا على هذا النظام[١] .

ولفظ طراز مشتق من الفارسية « ترازيدن » و « تراز » بمعنى التطريز وعمل المدبج broderie ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو

(١) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne t. IV. p. 174.

السلطان ورجال الحاشية لا سيما إذا كان فيها شيء من التطريز وعليها أشرطة من الكتابة ، واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى في العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذى تصنع فيه مثل هذه المنسوجات[١] على أن كلمة « طراز » استعملت في معان أخرى ، مثل الدلالة على أى نقش من النقوش التى توضع على شريط مستعرض من أى نوع كان سواء أ كان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو محفوراً في الخشب . كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التى كانت تكتب على درج البردى[٢]

ولم يبق نظام الطراز وقفا على مصر بل نكاد نجده في كل الأقاليم الإسلامية كسورية والعراق وإيران وآسيا الصغرى واسبانيا وجزيرة صقلية[٣] . ويظهر أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية . الأول طراز الخاصة وكان لا يعمل إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته . والثانى طراز العامة وكان يتبع أيضاً بيت مال الحكومة ، ولكنه كان يعمل لعمال بلاط الخليفة وأفراد الشعب[٤] . وقد كتب على بعض المنسوجات التى عثر عليها والتى ترجع إلى هذا العهد أنها صنعت في طراز الخاصة وعلى البعض الآخر أنها صنعت في طراز العامة[٥]

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى في مصر ح ١ ص ٨٤

(٢) أدولف جردمان : أوراق البردى العربية ج ١ ص ٣ ... ٤ (ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن)

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى في مصر ص ٨٥

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٠ وما بعدها

(٥) Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1. pp.75, 105, t. ... pp. 98, 138.

والذى يهمنا بيانه هو أن الخلفاء عنوا منذ الفتح الإسلامى بتشجيع صناعة المنسوجات المصرية ، وكثيراً ما كان الخلفاء يستعملون هذه المنسوجات لملابسهم أو للخلع التى كانوا يخلعونها على كبار رجال دولتهم ، فكان الخلفاء أو الأمراء يكافئون أفراد رعيتهم ويظهرون رضاهم عنهم بما كانوا يخلعونه عليهم من الخلع والملابس

وقد رأينا مما سبق أنه كان يصنع للخلفاء بتنيس ثياب فاخرة تعرف باسم البدنة . ويذكر المؤرخون أن معاوية بن أبى سفيان لما كبرت سنه كان لايدفأ ، فاتفقوا أنه لا يدفئه إلا الأكسية التى تعمل بمصر من صوفها المرعز فعمل له منها عدد فما احتاج منها إلا إلى واحد[1] .

وقد عنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة ، وكانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أوالفضة أو الخطوط المتعددة الألوان ، وكانت الكتابة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية وكثيراً ما كان يذكر فيها اسم المدينة التى فيها الطراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز . وكان الغرض من هذه الكتابات الملكية على الأقمشة بيان الأمير الذى عملت باسمه أو الشخص الذى خلعت عليه[2] .

وقد عثر على قطع منسوجات صنعت فى مصر وكتب عليها أسماء الخلفاء العباسيين ، فهناك قطعة نسيج صنعت للخليفة المهدى فى طراز تنيس سنة ١٦٢ هـ وكتب عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن ابراهيم أن يصنع فى طراز

(١) خطط المقريزى جـ ١ ص ٢٠٤

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر جـ ١ ص ٨٥

تنيس على يدى الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة[١] » . وهناك قطعة صنعت فى طرازتونة سنة ١٩٠ هـ للخليفة هرون الرشيد[٢] كما صنعت له قطعة أخرى فى سنة ١٩٣ هـ[٣]

وقد عثر أيضاً على قطعة نسيج صنعت بطراز العامة بمصر للخليفة الأمين[٤] . ولا نعرف متى صنعت . وهناك قطعة صنعت للخليفة المأمون فى سنة ٢٠٦ هـ[٥] كما عثر على قطعة أخرى صنعت لنفس الخليفة فى طراز الخاصة ٢١٦ هـ[٦] (شكل ٥) ، وهناك قطعة صنعت للخليفة المستعين بالله فى سنة ٢٥٢ هـ[٧] وأخرى صنعت فى طراز الخاصة بمصر فى سنه ٢٥٤ هـ لأمير المؤمنين[٨] وهو إذ ذاك المعتز بالله .



(شكل ٥) قطعة نسيج محفوظة بدار الآثار العربية وعليها كتابه نصها « بركة من الله لعبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين أعزه الله مما عمل فى طراز الخاصة سنة ست عشر ومايتين » .

وقد عنى الخلفاء أيضاً منذ الفتح العربى لمصر باتخاذ كسوة الكعبة

(١) Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe t. 1. p. 35.
(٢) op. cit. p. 62.
(٣) op. cit. p. 68.
(٤) op. cit. p. 75.
(٥) op. cit. p. 115.
(٦) op. cit. p. 165.
(٧) op. cit. t. 2. p. 122.
(٨) op cit. t. 2. p. 138.

من المنسوجات النفيسة التى كانت تصنع بها ، فيذكر الأزرق[١] أن عمر ابن الخطاب كسا الكعبة القباطى من بيت المال ، وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها ، وكذلك فعل عثمان من بعده . فلما كان معاوية ابن أبى سفيان كساها كسوتين ، كسوة عمر القباطى ، وكسوة ديباج . فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، وتكسى القباطى فى آخر شهر رمضان .

ويقول المقريزى : إن الفاكهى ذكر فى كتابه أخبار مكة أنه رأى كسوة من قباطى مصر ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان ، أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة[٢] .

ويذكر الفاكهى أيضاً أنه رأى كسوة من كساء المهدى ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحكم ابن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة[٣] » . كذلك يقول الفاكهى أنه رأى كسوة لهرون الرشيد من قباطى مصر ، مكتوباً عليها « بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله ، مما أمر الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة تسعين ومائة[٤] » .

ومن بين ما رآه الفاكهى كسوة لهرون الرشيد أيضاً من قباطى

---

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٦٨ — ١٦٩
(٢) الخطط ج ١ ص ١٨١ ، Répertoire. t. 1. p. 34.
(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ١٨١ Répertoire t. 1. p. 35.
(٤) خطط المقريزى ج ١ ص ١٨١ Répertoire t. 1. p. 62.

مصر، مكتوباً عليها . « بسم الله بركة من الله لعبد الله هرون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به الفضل بن الربيع ، مولى أمير المؤمنين بصنعه فى طراز شطا كسوة الكعبة سنة إحدى وتسعين ومائة[1] » . ورأى الفاكهى أيضاً كسوة فى الكعبة ، مكتوباً عليها « مما أمر به السرى ابن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، بأمر الفضل بن سهل ، ذى الرياستين ، وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة[2] . ويذكر أيضاً أنه رأى قطعة من قباطى مصر فى الكعبة ، مكتوباً عليها بخط رقيق أسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين » [3] .

ويجدر بنا أن نذكر أن مصر ، كما استمرت ترسل القمح سنوياً إلى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة واستقلت عنها مصر ، كذلك استمرت ترسل كسوة الكعبة سنوياً ، بل إن إرسال كسوة الكعبة من مصر إلى مكة كان يشير إلى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الاسلامى كله ، وكان النزاع الذى نشأ بين السلطان الملك الأشرف برسباى سلطان مصر (٨٢٥ — ٨٤١ هـ) وشاه رخ ابن تيمورلنك بسبب إرسال كسوة الكعبة معناه نزاع حول الزعامة فى العالم الإسلامى[4] .

الورق

واشتهرت مصر فى فجر الاسلام بصناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها ، وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم . وشهرة مصر فى

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢٦ أنظر Repertoire t. 1. p. 63.

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ١٨١ Repertoire t. 1. p. 115.

(٣) المقريزى : ج ١ ص ١٨١ ، Repertoire t. 1. p. 74.

(٤) Wiet : Hist. de la Nation Egytienne p. t. IV. pp. 563—564.

صناعة الورق من البردى شهرة قديمة ، وخاصة منذ العهد الرومانى[١] . ويذكر ابن الفقيه[٢] فى أواخر القرن الثالث الهجرى أن لأهل مصر القراطيس التى لا يشركهم فيها أحد ، ويذكر اليعقوبى[٣] أن القراطيس كانت تصنع فى بورة ، وهى حصن على ساحل البحر من عمل دمياط وفى مدينة إخنو وهى على ساحل البحر غربى فرع رشيد ، ويقال لها وسيمة .

وطالما كان الناس يستعملون البردى للكتابة ، كانوا يعتمدون على مصر . أما فى القرن الرابع الهجرى فيحدثنا الثعالبى أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها ؛ لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند والصين ويذكر كراباتشيك Karabacek أن صناعة إعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر بالإجمال حوالى القرن الرابع الهجرى . والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذى وصل إلينا ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ[٤] . وهكذا نرى أن مصر كانت طوال عهد الولاة تقريباً تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان صناع الورق ، كغيرهم من الصناع فى مصر من المصريين ، وكانت أغلبيتهم أو كلهم فى أول عهد الفتح من الأقباط ، وإلى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثامن الميلادى كان الطابع الذى يطبع على الورق يشمل هذه الكلمات . « الأب والابن وروح القدس » ، ومع أن ذلك الطابع

---

(١) Johnson : Roman Egypt vol. 2. p. 337.

(٢) مختصر كتاب البلدان : ص ٦٦

(٣) البلدان ص ٣٣٨ .

(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٠٨ .

استبيذل بعد ذلك بما يتفق ، والدين الاسلامى ، إلا أن الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة[1] .

الخشب

وقد مهر المصريون منذ عهد الفراعنة فى صناعة الخشب بالرغم من قلة الأخشاب فى مصر ، وأن ما يوجد بها من الشجر لا يصلح خشبه إلا لأعمال النجارة البسيطة ، مثل شجر الجميز والسنط والزيتون والسرو والبندق . وكان المصريون منذ العصور القديمة يستوردون من البلاد المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرز والصنوبر والأبنوس والساج ، وغيرها من أنواع الخشب المتين . وكان جفاف الجو يساعد على بقاء الخشب فى حالة جيدة[2] . وقد ظلت لمصر السيادة فى الحفر على الخشب وصناعته ، حتى القرن العاشر الهجرى و السادس عشر الميلادى .

وكما خلف لنا الفراعنة التماثيل الخشبية النادرة ، مثل تمثال شيخ البلد وغيره من التماثيل ، نرى أن الفن القبطى ورث مهارة قدماء المصريين فى صناعة الخشب ونقش الزخارف عليه ، وقد تطورت هذه الصناعة على يد النجارين القبط الذين تأثروا بالفن البيزنطى ، فازدادت صناعتهم جمالا ، وزاد إنتاجهم كثيراً .

وقد اشتغل الرهبان بالنجارة أيضاً وأتقنها الكثير[3] منهم ، فلما جاء المسلمون تركوا الصناعة فى يد الأقباط كما كانت سياستهم . وقد وصلت

---

(١) Wiet : Précis de l'hist. d'Egypte t. 2. p. 147.

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٣ — ١٤

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٣ — ١٤

إلينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف ، مستعملة فى الأبنية ، أو فى قطع الأثاث . وأقدم هذه القطع يرجع إلى القرنين الثانى والثالث الهجرى (الثامن والتاسع الميلادى) ، وقد وجد فى القرافة القديمة بالفسطاط حيث كان يستعمل بعد كسره من الأبنية والأثاث لمنع انهيار الأتربة فى المدافن وقد ظهرت فى هذه القطع الأساليب القبطية فى الصناعة ، مع تطورها التدريجى لتتخذ لنفسها مسحة إسلامية[١] . وقد وصلت إلينا قطع خشبية ترجع إلى عصر الانتقال بين الصناعة القبطية البحتة ، فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) والصناعة الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وهذه القطع مزخرفة بالنقوش التى امتاز بها الشرق الأدنى فى العصر المسيحى . وبعض القطع المذكورة لا تكاد تميزه عن القطع القبطية إلا بما عليه من كتابات عربية[٢] (شكل ٦) .



(شكل ٦) لوح من الخشب محفوظ فى دار الآثار العربية فى القاهرة
وهو من صناعة مصر فى القرن الأول أو الثانى بعد الهجرة (٧ — ٨م)

ولا يبعد أن يكون العرب فى مصر قد اتخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطية ، كالدواليب والموائد ، ولعلهم أخذوا عنهم أيضاً الكرسى الذى يحمل عليه المصحف ، والذى يعرفه القبط باسم منجليه ، (أى محل الانجيل[٣]) .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٢ — ٩٣ وما ذكره من مراجع

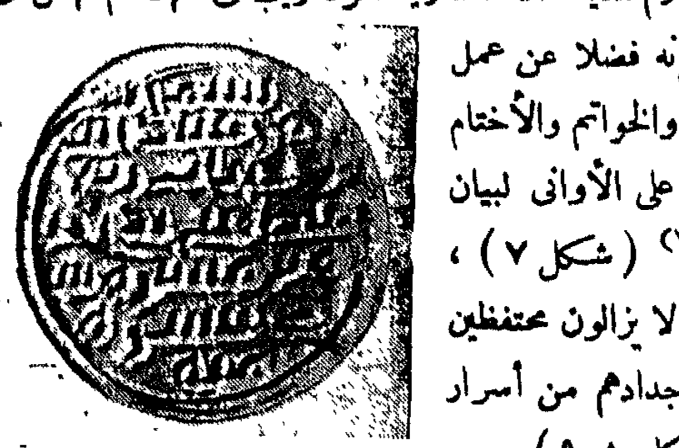
(٢) الدكتور زكى محمد حسن : بعض التاثيرات القبطية . ص ١٤

(٣) المرجع نفسه ص ١٥

الخزف والزجاج والمعادن

وثم صناعة أخرى اشتهرت بها مصر حينذاك وهي صناعة الخزف . ويذكر الأستاذ بتلر أن صناع الخزف في مصر ظلوا محتفظين بمهارتهم وبسر هذه الصناعة منذ عهد الفراعنة ، كما تأثروا بالفن البيزنطي من حيث النماذج والزخرفة . وتدل التحف الخزفية التي ترجع إلى فجر الاسلام . على أن طلاء الخزف بالدهان كان متقناً حينذاك ، كما أن الخزف ذا البريق المعدني كان معروفاً ؛ ولكننا لا نعرف تماماً هل نشأت صناعة هذا الخزف في مصر أم نقلت إليها من إيران أو العراق[١].

وكانت صناعة الزجاج مزدهرة في مصر منذ العصور القديمة وكان مركزها قبل الاسلام مدينة الاسكندرية . ولا ريب في أنها لم تهمل في فجر الاسلام ، فإنه فضلا عن عمل الأوزان الزجاجية والخواتم والأختام التي كان يطبع بها على الأواني لبيان أحجامها المختلفة[٢] (شكل ٧) ، كان المصريون لا يزالون محتفظين بمعظم ما عرفه أجدادهم من أسرار صناعة الزجاج (شكلي ٨و٩) .



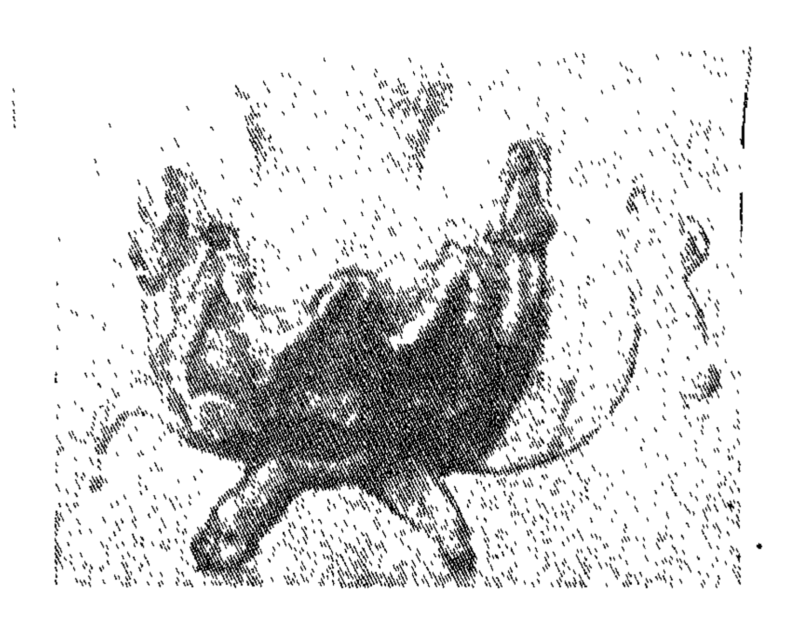
(شكل ٧) ختم زجاجي باسم عبيد الله ابن الحبحاب مؤرخ من سنة ١١٠ هـ (٨٢٩ م)

وكانت صناعة المعادن مزدهرة في العصر الفرعوني واحتفظ القبط

(١) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ج١ ص ١٠٠ — ١٠٤

(٢) الدكتور زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ج١ ص ١١٧ — ١١٨

Flinders Petrie : Glass Stamps and Weights (London 1926).



(شكل ٨) قنينة من الزجاج على هيئة حيوان ، كانت محفوظة فى القسم الاسلامى من متاحف الدولة فى برلين ، وهى من صناعة مصر فى فجر الاسلام



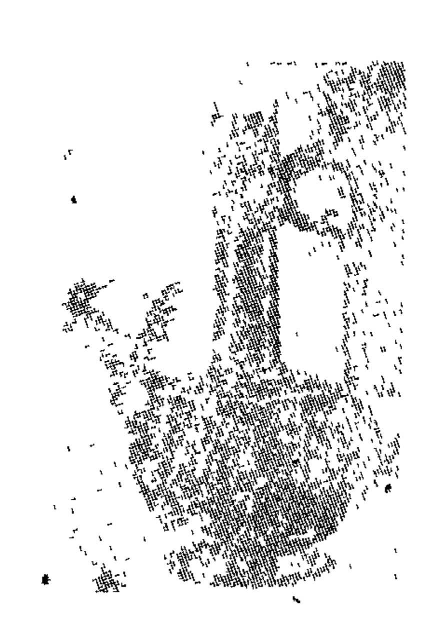
(شكل ٩) وعاء من الزجاج كان محفوظاً فى القسم الاسلامى من متاحف الدولة ببرلين ولعله من صناعة مصر فى فجر الاسلام

بالتفوق فيها والراجح أنهم نقلوها إلى تلاميذهم من الصناع العرب فى فجر الاسلام ، ولكننا لا نعرف تماما أى آثار معدنية مصرية من هذا العصر. أما أبريق البرونز الذى كشف فى أبى صير الملق (شكل ١٠) فيرجع إلى القرن الأول أو الثانى بعد الهجرة ولكنه يتبع الطراز الساسانى فى الصناعة والزخرفة .

أما النقود فقد كان الولاة فى مصر يتخذون منها ما تتخذه عاصمة الخلافة ولكن بعض قطع السكة كانت تضرب فى مصر (شكل ١١) .

ومن الصناعات الشعبية التى ازدهرت فى مصر منذ فجر الاسلام صناعة شواهد القبور . وكانت هذه الشواهد فى البداية بسيطة من الحجر والرخام ، ثم اكتسبت طابع الاتقان تدريجياً حين دخلت الزخرفة على الخط الكوفى الذى ظلت تكتب به إلى نهاية العصر الفاطمى (شكل ١٢) .

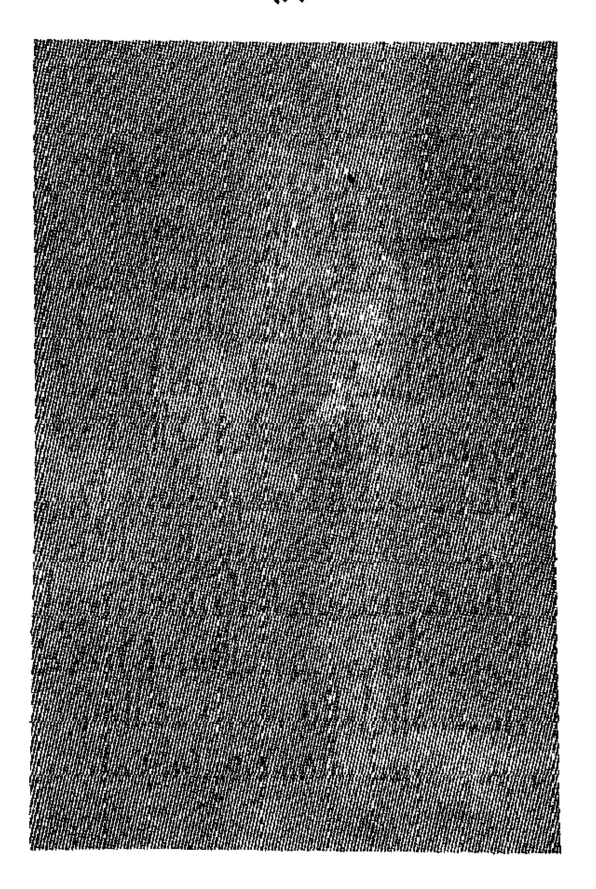
والآن وقد استعرضنا أهم الصناعات والفنون التى اشتهرت بها مصر فى ذلك العهد ، نرى من الواجب علينا أن نقول إن الولاة من قبل الخلفاء شجعوا هذه الصناعات المختلفة ، وعضدوا الصناع المصريين الذين توارثوا هذه الصناعات المختلفة منذ أقدم العصور ، والذين كانوا يفوقونهم من غير شك فى كافة مظاهر الحضارة المادية ، وقد ظل العرب لا يتدخلون فى هذه الصناعات ولا يشاركون المصريون فيها حتى عهد المعتصم على الأقل حين غير العرب ما بأنفسهم ، وتركوا الجندية ، وأصبحوا يعيشون فى مصر كالمصريين .



(شكل ١٠) إبريق من البرونز محفوظ بدار الآثار العربية فى القاهرة وينسب إلى الخليفة الأموى مروان ابن محمد . ولعله من صناعة القرن الاول أو الثانى الهجرى (٧ — ٨ م)



(شكل ١١) دينار من عصر الخليفة المأمون ضرب فى سنة ١٩٩هـ (٨١٤ م)



(شكل ١٢) شاهد قبر من سنة ٢٣٦ هـ . محفوظ بدار الآثار العربية في القاهرة . ونص كتابته : بسم الله الرحمن الرحيم — إن في الله عزاء من كل مصيبة و — خلف من كل هالك ودرك لما فا — ت وأن أعظم المصايب المصيبة — بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم — هذا ما تشهد به جنة ابنت ا — لفرح ابن يولس تشهد إلا إله إلا — الله وحده لا شريك له وأن — محمد عبده ورسوله صلى الله — عليه وسلم وأن الجنة والنار وا — لموت حق والساعة آتية لا — ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور — توفيت في رجب سنة ست وثلثين ومايتين

٣ — التـــجارة

يتطلب النشاط الزراعى والصناعى نشاطا فى التجارة أيضاً . وإن كانت مصر قد نشطت فى التجارة فلم يكن ذلك راجعاً إلى تقدم الزراعة والصناعة فقط وإنما يرجع إلى موقع مصر الممتاز بين قارات أفريقية وأوربا وآسيا . وقد ظهرت قيمة هذا الموقع الجغرافى العالمى منذ عهد الإسكندر المقدونى أى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة .

وظلت مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر تتمتع بهـذا المركز الممتاز العالمى فلم تكتف بتصدير ما يزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات واستيراد ما تحتاج إليه البلاد ، بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب ، فكانت مخزناً للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية إلى الأسواق الغربية وبالعكس . وهكذا كانت التجارة تلعب دوراً هاماً فى حياة مصر الاقتصادية .

ولم يغيـِّر الفتح العربى فى الدور التجارى الذى لعبته مصر منذ القدم ، فكما اهتم العرب باستغلال موارد البيئة المحلية بمصر ، اهتموا أيضاً باستغلال الموقع الجغرافى العالمى لمصر . وكان أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وقبـل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (فى القرن ٩ هـ و ١٥ م) هو طريق البحر الأحمر ، إذ كان هذا الطريق يقلل ، إلى أدنى حد ممكن ، المصاعب والنفقات الطائلة التى يسببها النقل البرى . فإذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائماً طريق البحر وتتبع الطريق المباشر ، أى أقصر

الطرق للوصول إلى موانى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا . وقد استفادت مصر بموقعها المتوسط من ذلك الطريق ، ونستطيع أن نقول عن مصر كلها ما قاله وليم الصورى عن الاسكندرية بأنها كانت سوق العالمين forum publicum utrique orbi[١] . ورغم الصعاب التى كانت تكتنف الملاحة فى هذا البحر فإنه كان ولا زال قبلة الأنظار للتجارة وللمواصلات بين الشرق والغرب ، وزاد فى أهميته حديثاً حفر قناة السويس التى تصل بينه وبين البحر الأبيض المتوسط .

وقد كانت تجارة البحر الأحمر تنتهى أحيانا إلى ميناء Leuce Come (الحورة الحالية) على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر ومنها تتخذ طريق القوافل إلى سوريا ، وكانت أحياناً تصل إلى أيلة عند العقبة الحالية ومنها أيضاً تخرج التجارة إلى فلسطين وسوريا . وكثيراً ما كانت تنتهى التجارة الشرقية عند ميناء Berenice (رأس بناس الحالية) أو .Leucos Limen (القصير الحالية) أو .Myosttormos (أبو شعر الحالية) ، ومن هذه الموانى تتجه التجارة عن طريق الصحراء الشرقية إلى قفط على النيل وتتخذ طريق النيل حتى الاسكندرية ، ومن الإسكندرية تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر الأبيض المتوسط . وكانت السفن التجارية تواصل السير أحيانا فى البحر الأحمر إلى القلزم وهى السويس الحالية ثم تسير فى القناة النيلية التى تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات . وهذه القناة اهتم بحفرها الفراعنة وأعاد حفرها البطالسة والرومان ، وكانت تسهل كثيراً على التجار

---

(١) Heyd : Hist. du Commerce du Levant. vol. 1. p. 378.

ويستخدمونها للوصول إلى الإسكندرية عن طريق النيل بعد أن ينتهى طريق البحر عند ميناء القلزم .

وقد اهتم المصريون ، أو الذين حكموا الشعب المصرى فى العصور المختلفة منذ الأزمنة القديمة بالسيطرة على الطرق الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسى والاقتصادى ، وليجعلوا مصر الطريق الرئيسى لمرور التجارة ، وكثيراً ما دفعهم هذا إلى الاستيلاء على فلسطين وسوريا ، للسيطرة على طرقهما التجارية ولتأمين الحدود المصرية . واهتم العاملون من حكام مصر فى العصور المختلفة بإصلاح الطريق الصحراوى الذى تمر فيه قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل ، وبإقامة الحاميات فيه ، وبحفر الآبار على طول ذلك الطريق ، وبالقضاء على القرصنة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبإنشاء الموانى على الشاطىء الغربى لذلك البحر فى أكثر المواقع صلاحية لرسوّ المراكب وللاتصال بالنيل ، وبشق طرق تجارية جديدة بين البحر الأحمر والنيل ، وبالاهتمام بالقناة التى تصل أحدهما بالآخر إلخ غير ذلك من ضروب الاهتمام بالتجارة .

وكانت هناك طرق تجارية بين مصر والشام وسائر البلاد الشرقية ، وبين مصر والواحات الغربية والمغرب ، وبين مصر وأثيوبيا وأواسط إفريقية .

وقد زاد نشاط مصر التجارى فى فجر الإسلام نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص ، ولأن مصر وبلاد المغرب وسوريا وفلسطين ، وبلاد العرب أصبحت كلها جزءاً من إمبراطورية واحدة . وفد فطن المؤرخون المسلمون إلى ذلك الموقع الممتاز الذى تتمتع به مصر ، فكتبوا أن من فضائل مصر « أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ،

وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصى الافرنجة وقبرص ، وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله إلى طنجة ومغرب الشمس ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن[1] » .

وإن كانت مصر أفادت كثيراً من التجارة التى تمر بها ومن مركزها العالمى لتصدير منتجاتها الزائدة عن حاجتها ولاستيراد ما يلزمها من البضائع فإن الفائدة لم تكن قاصرة على المصريين فحسب ، بل استفادت الشعوب التجارية الأخرى من هذه التجارة العالمية ، ولا سيا البيزنطيون وسكان الجمهوريات الايطالية واليهود الذين كان لهم شأن عظيم فى التجارة والذين كانوا يملكون سفناً تجارية تمخر فى البحر الأبيض طولا وعرضاً[2] .

وقد اهتم عمر بن الخطاب بإعادة حفر القناة النيلية التى كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمالى مدينة منف القديمة أى عند المكان الذى كان يتفرع منه النيل إلى فروعه فى الدلتا . وقد كانت هذه القناة ، منذ حفرها فى عهد الفراعنة أو البطالسة ، تهمل حينا وتجدد حينا آخر ويعاد حفرها . وكان الإهتمام بها راجعاً إلى الرغبة فى تسهيل سير السفن بين البحر الأحمر والنيل .

ولكى نفهم ظروف حفر هذه القناة القديمة يجب أن نتذكر التغييرات التى طرأت على جغرافية نهر النيل خلال الألفى سنة الماضية . فنهر النيل

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ١ ص ٣٤١ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٨ .

(٢) Heyd : Hist. du Commerce du Levant. vol. 1. pp. 125—126.

كان يتفرع شمالى بابليون بمسافة قليلة حيث موضع القاهرة الحالى تقريباً ، إلى ثلاثة فروع كبيرة منها فرعا دمياط ورشيد الحاليان ، أما الفرع الثالث فهو الفرع البلوزى الذى كان فى شرق فرع دمياط وينتهى بالقرب من مدينه بلوزيم القديمة (أو الفرما أو طينة الحالية) . وفى وسط ذلك الفرع تقريباً كان هناك بحيرة واسعة تتصل بمدينة بوباستيس القديمة أو تل بسطة الحالية القريبة من الزقازيق . ومن هذه البحيرة كانت قناة نخاو تسير نحو ميناء أرزنوى Arsinöe أو السويس ، ولكنها كانت تنتهى عند البحيرات المرة التى كانت تقع فى الشمال الغربى لرأس البحر الأحمر . أما قناة بطليموس فقد امتدت من البحيرات المرة إلى البحر الأحمر نفسه عند السويس ماره بمدينة Heroöpolis التى يظن أنها كانت فى شمال غربى السويس وتبعد عنها بنحو ١٥ ميلا وفى جنوب شرق البحيرات المرة وتبعد عنها بنحو ٥ أو ٦ أميال . ويظن كثير من الكتاب أن البحر الأحمر نفسه أو خليج السويس كان يمتد شمالا عما هو الآن ، ليس إلى البحيرات المرة ولكن إلى مدينة هروأوبوليس على الأقل . وعندما جفت مياه القناة الطبيعية التى كانت بين البحيرات المرة وخليج السويس الحالى ، حفر الملك دارا الفارسى والملك اجزركسيس (القرن الخامس ق م) قناة توصل بين البحيرات المرة والخليج . وقد أعيد حفرها فى حكم بطليموس الثانى (القرن الثالث ق . م) . وفى اثناء الحكم الرومانى لمصر كان الفرع البلوزى قد بدأ يجف كما أن القناة التى بين بوباستس والبحر الأحمر لم تعد صالحة لملاحة السفن الكثيرة فى العهد الرومانى . ولذا اهتم الامبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى (٩٨ — ١١٧ م) باصلاح تلك القناة وتعميقها كما أنه حفر قناة تخرج من النيل بالقرب من المنطقة التى تقوم فيها القاهرة الآن وتتقابل مع قناة نخاو

عند بلبيس الحالية فى نقطة متوسطة بين بوباستيس والبحيرات المرة[١] .

ولـكن قناة تراجان هذه أهملت على ممر الأيام حتى أصبحت غير صالحة للملاحة فى بداية القرن السابع الميلادى[٢] . فلما فتح العرب مصر فى أوائل ذلك القرن اهتموا بإعادة حفر هذه القناة . ويذكر ابن عبد الحكم[٣] ومن نقل عنه من المؤرخين مثل المقريزى[٤] والسيوطى[٥] أن أهل المدينة المنورة أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذلك فى عام الرمادة[٦] ، فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يستنجده ، فبعث إليه عيرا عظيمة ، كان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا ، فلما قدمت على الخليفة وسع بها على الناس فأعطى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيراً بما عليه من الطعام . ونحن وإن كنا نلمس فى هذه الرواية شيئا كثيرا من المبالغة إلا أنها تدل على أن بلاد العرب أصبحت تعتمد بعد فتح مصر اعتمادا رئيسيا عليها لإطعام أهل الحجاز . ثم يذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب أمر بحفر قناة توصل بين النيل والبحر الأحمر وذلك ليسهل حمل الطعام من مصر إلى المدينة ومكة . فأعاد عمرو بن العاص حفر القناة التى

---

(١) Wilson : The Suez Canal ... pp. 3-5.

(٢) Munier : L'Egypte Byzantine .. p. 82.

(٣) فتوح مصر — طبعة تورى — ص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٤) الخطط ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨ .

(٦) يذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل ج ٢ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ، أنه فى سنة ١٨ هـ أصاب الناس مجاعة شديدة وجدب وقحط ، وهو عام الرمادة ، وكانت الريح تسفى تراباً كالرمادة ، فسمى عام الرمادة . وفى هــذه السنة أيضاً كان طاعون عمواس . فـكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأمصار ، يستغيثهم لأهل المدينـة ومن حولها ويستمدهم ، ومن بين الذين استغاث بهم عمرو بن العاص أمير مصر .

كانت توصل النيل بالبحر الأحمر ولم يمض على ذلك عام حتى جرت السفن فى القناة وحمل الطعام إلى أهل الحرمين . وسميت هذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين نسبة إلى عمر بن الخطاب .

ويتبين من هذه الرواية أن الغرض الأساسى من حفر خليج أمير المؤمنين كان حمل الطعام والقمح إلى الحجاز ، وليس تسهيل التجارة . وذكر المقريزى نقلا عن الكندى فى « كتاب الجند العربى » أن عمراً حفره فى سنة ثلاث وعشرين وفرغ منه فى ستة أشهر وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع[١] . ويظهر أن العرب استعملوا السخرة فى حفر هذا الخليج أو القناة كما أنهم استخدموا عدداً عظيما من أهل البلاد وذلك لأن عمراً أعاد حفرها فى وقت قصير ذكر المؤرخون أنه لم يتجاوز السنة . ويذكر حنا النقيوسى[٢] أن المسلمين فرضوا على المصريين إعادة حفر قناة تراجان من بابليون إلى البحر الأحمر وأن نيرهم على المصريين كان أشد وطأة من نير فرعون على بنى إسرائيل .

وبالرغم من أن عمر بن الخطاب إنما اهتم بحفر قناة تراجان لتسهيل حمل الغلال والطعام من مصر إلى الحجاز ، فقد أفاد ذلك العمل التجارة والتجار ، فيذكر المقريزى[٣] نقلا عن ابن الطوير أن هذا الخليج كان مسلكا للتجار وغيرهم ، ويذكر أيضاً أن السفن كانت تسير فيه إلى البحر الأحمر وتمر فى البحر إلى الحجاز واليمن والهند . ولم يزل على ذلك إلى أن قدم محمد النفس الزكية ثائراً فى الحجاز زمن الخليفة المنصور العباسى فكتب

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٤٣ .
(٢) تاريخ ص ٥٧٧ (ed. Zotenberg)
(٣) الخطط ج ٢ ص ١٤٣ .

المنصور إلى عامله على مصر يأمره بطم الخليج حتى لا تحمل الميرة من مصر إلى المدينة فطمه وانقطع من حينئذ اتصاله ببحر القلزم[١] . ويقال إن ولاة مصر أهملوا أمر هذا الخليج بعد عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فغلب عليه الرمل وصار منتهاه إلى ذنب بحيرة التمساح[٢] .

كذلك يقال إن عمرو بن العاص فكر في حفر قناة توصل ما بين البحر الأبيض والبحر الأحمر رأساً ولكن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك[٣] . ولو تمت هذه الفكرة حينذاك لسهلت الطريق التجاري كثيراً بين الشرق والغرب . ويذكر ابن خلدون[٤] أنه ما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون شق ما بين البحرين إلا أن ذلك لم يتم .

ويذكر المسعودي[٥] والسيوطي أن الخليفة هرون الرشيد أراد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي الفرما . فقال له يحيى بن خالد البرمكي : كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم الحجاز . فعدل الرشيد عن هذه الفكرة .

وبالرغم من أن إهمال خليج أمير المؤمنين جعله غير صالح للملاحة السفن في أوائل العصر العباسي ، وأن هذا الإهمال لا يدل على بعد نظر في شيء — فيما عدا أنه كان علاجا مؤقتا لظرف من الظروف ، إن صح أن أبا جعفر

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ١٣٩

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري — ص ١٦٤ ، خطط المقريزي ج ٢ ص ١٤٢ ، السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٨ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب — طبعة أوربا — جـ ٤ ص ٩٩ .

(٤) المقدمة ص ٣٩ (المقدمة الثانية في قسط العمران من الأرض) .

(٥) المسعودي — مروج الذهب — طبعة أوربا — جـ ٤ ص ٩٨ — ٩٩ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٨٩

المنصور أمر بسده كى يقطع الميرة عن أهل الحجاز عندما ثاروا عليه — بالرغم من هذا يظهر أن طريق التجارة عن طريق القلزم وبرزخ السويس ظل يطرقه التجار طوال عصر الولاة الذى نتحدث عنه . ويؤيد كلامنا هذا ما كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبه[١] عن التجارة ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى . فقد تحدث عن التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفرنجية والأندلسية والصقلبية ، وذكر أنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور[٢] والسيوف ، ويركبون من افرنجة[٣] فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى الجار وجدة[٤] ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون فى

---

(١) كتاب المسالك والممالك ص ١٥٣ — ١٥٤ والدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٧ — ٩ .

(٢) السمور حيوان برى يشبه ابن عرس وأكبر منه ، لونه أحمر ، مائل إلى السواد ، يتخذ من جلده فراء ثمينة ، وربما أطلق السمور على جلده ، والجمع سمامير .

(٣) يقصد بفرنجة هنا فرنسا .

(٤) الجار كانت ميناء المدينة المنورة ، أما جدة فهى ميناء مكة .

الفرات إلى بغداد ثم يركبون فى دجلة إلى الأبلة ومن الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض » .

ويبين هذا النص أهمية مركز مصر التجارى ، كما يبين أن طريق القلزم والفرما كان من أهم حلقات الاتصال بين الشرق والغرب .

ولدينا نص متأخر عن ذلك ، كتبه المسعودى[1] فى القرن الرابع الهجرى وهو يبين أهمية ذلك الطريق التجارى أيضاً . فيقول إن مصر « هى البرزخ بين البحرين المذكورين فى القرآن[2] ، لأن من الفرما التى على ساحل بحر الروم إلى القلزم التى هى ساحل بحر الصين مسيرة ليلة ، يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس ، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها » .

وبالرغم من الأهمية التى كانت لخليج أمير المؤمنين فى التجارة ، أو لطريق القلزم — الفرما ، بعد سد ذلك الخليج ، فلا نستبعد أن يكون بعض التجار قد اتخذوا الطريق الصحراوى الذى يوصل بين البحر الأحمر والنيل طريقاً لمسيرهم خصوصاً بعد سد خليج أمير المؤمنين ، ونظراً لصعوبة الملاحة فى البحر الأحمر . وكان بعض التجار يتخذون هذا الطريق قبل الفتح ، فكانوا يسيرون من القصير أو برنيس إلى قفط على النيل ثم يسيرون فى النيل إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن يظهر أن هذا الطريق لم يكن

---

(١) التنبيه والاشراف ص ٢٠

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان) سورة الرحمن ، آية ١٩ — ٢٠

مفضّلا على غيره فى فجر الإسلام ؛ لأن الجغرافيين والمؤرخين العرب فى ذلك العصر لم يطنبوا فى الحديث عن أهميته كما فعل المؤرخون فى عصر المماليك فبينما نرى اليعقوبى[1] ، أحد الجغرافيين الذين زاروا مصر فى القرن الثالث الهجرى لايزيد على القول بأن عيذاب كانت ميناء تجارية ، يذكر المقريزى[2] أن صحراء عيذاب كانت مزدهرة فى القرن الخامس الهجرى باعتبارها طريقاً للحج وللتجارة بين مصر والحجاز وغيرها من البلاد ، ويذكر أن حجاج مصر والمغرب كانوا لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب فيركبون النيل حتى قوص ويعبرون الصحراء إلى ميناء عيذاب ومنها يركبون البحر إلى جدة ، وكذلك كان تجار الهند واليمن والحبشــة يركبون البحر إلى عيذاب ثم يسلكون الصحراء إلى قوص ومنها يسيرون فى النيل إلى مصر أو الإسكندرية . فالحق أن صحراء عيذاب ظلت آهلة بالتجارة والحجاج أكثر من مائتى سنة ، وذلك بين سنتى ٤٥٠ هـ و٦٦٠ هـ . أى أنها كانت مسلكا للتجار والحجاج وبلغت درجة عظيمة من الازدهار فى عهد متأخر عن العهد الذى نبحث فيه .

ولم يكن فتح العرب مصر سببا فى قصر تجارتها على دول الشرق وضعف علاقاتها التجارية مع بلاد الغرب ، فقد رأينا من نصوص جغرافيي العرب كيف كانت مصر طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب معاً . وكذلك لم تفقد الإسكندرية مكانتها التجارية العالمية التى كانت لها قبل الفتح . فقد زار الأسكندرية بعد فتح العرب لمصر بنحو ثلاثين سنة (حوالى سنة ٦٧٠م و٥٠ — ٥١ هـ) أركولف Arculf أحد حجاج بيت المقدس فتكلم عن

(١) كتاب البلدان ص ٣٣٥

(٢) الخطط جـ ١ ص ٢٠٢

الأسكندرية باعتبارها ملتقى التجارة العالمية حيث يتبادل البضائع فيها شعوب لا حصر[١] لها . وإن كانت شهرة الأسكندرية قد تضاءلت قليلا بعد ذلك أمام شهرة بغداد التجارية ، فقد احتفظت رغم ذلك بمركزها التجارى الهام. ويذكر آدم متز[٢] أنه حينما أخذت تجارة المسلمين المكان الأول فى التجارة العالمية فى القرن الرابع الهجرى كانت الأسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى ذلك العصر ولا سيما فى البضائع الكمالية . وكما ظلت الأسكندرية محتفظة بأهميتها التجارية فقد ظلت أيضا العلاقات التجارية مستمرة بين مصر وأمم الغرب ، ففى أوائل القرن التاسع الميلادى (نهاية القرن الثانى وبداية الثالث الهجرى) نرى الحكومة البيزنطية تفكر فى أن تحرم على بحارتها الرسو فى الشواطئ السورية والمصرية . ولا بد أن البيزنطيين فى ذلك الوقت كانوا يتبادلون التجارة مع المسلمين[٣]. وإذا كان الامبراطور شارلمان قد استطاع أن يرسل المساعدة إلى الفقراء المسيحيين فى الإسكندرية فلا بد أنه كان يستورد من مصر ما يلزمه من الحاجات وعلى الأخص التوابل التى كثيراً ما نجد ذكرها فى الوثائق المعاصرة[٤].

وطبيعى أن طرق الحج وطرق البريد كانت أيضاً مسلكا للتجار فى ذلك العصر، لأن الخلافة كانت تهتم بعمارة هذه الطرق وبالعناية بها وبتوفير الراحة فيها . فعندما كان خليج أمير المؤمنين مستعملا لملاحة السفن كان بعض الحجاج يتخذون هذا الطريق أيضاً للحج ، ويذكر السيوطى[٥] أن حجاج

(١) Kammerer : La Mer Rouge. t. 1, p. 12—18.
Heyd : Hist. du commerce. t. 1. p. 41

(٢) الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣١٢

(٣) Wiet : Hist. de la Nation Egypt. t. IV. p. 174.

(٤) Wiet : op. cit. p. 174.

(٥) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٩ .

البحر كانوا يسيرون فيه إلى القلزم ومن القلزم ينتقلون إلى المراكب الكبار ، ورأينا كذلك أن الطريق الصحراوى بين البحر الأحمر والنيل كان مسلكا للتجار والحجاج . على أن هناك طريقا بريا كان يرتاده الحجاج بكثرة وهو طريق أيلة التى كانت عند موضع العقبة الحالية . فيسير الحجاج من مصر عن طريق البر إلى القلزم فإما أن يركبوا البحر إلى الجار ميناء المدينة — وإما أن يسيروا إلى أيلة وبعدها إلى بلاد الحجاز .

وكان هناك ست مراحل[1] بين القلزم وايلة[2] . ويذكر المقريزى[3] أن أيلة أول حد الحجاز ، وقد كانت مدينة جليلة على ساحل البحر بها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس ، وكانت فى الإسلام منزلا لبنى أمية وأكثرهم موالى عثمان بن عفان وكانوا سقاة الحاج ، وكان بها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة .

وكانت بلاد الحجاز نفسها ملتقى للحجاج وللتجار فكانت البضائع الشرقية تباع إلى الحجاج العديدين ، فضلا عن أنها كانت تصل إلى أسواق الغرب بواسطة التجار المصريين الذين يرافقون الحجاج فى عودتهم إلى مصر بالطريق البرى حول خليجى البحر الأحمر أو بواسطة التجار السوريين الذين يحملون هذه البضاعة فى اتجاه دمشق[4] .

أما طرق البريد فأولها الطريق المعروف الذى أتت منه الجيوش المغيرة على مصر فى العصور المختلفة . مثل جيوش قمبيز والاسكندر الأكبر ،

(١) المرحلة المسافة التى يقطعها المسافر فى يومه ، الجمع مراحل .
(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٣
(٣) الخطط ج ١ ص ١٨٤ .
(٤) Heyd : Hist. du commerce. vol. 1. p. 41.

وعمرو بن العاص ، وهو يمر بالرملة بفلسطين وبمدينة غزة ورفح والعريش والفرما وبلبيس ثم الفسطاط . وهناك طريق آخر يخرج من الفسطاط إلى برقة وافريقية وبلاد المغرب ، وآخر يخرج من الفسطاط إلى المغرب دون أن يمر بالإسكندرية ولكنه يلتقى بالطريق الذى يخرج من الإسكندرية فى ذات الحمام [١] .

كذلك لا نشك فى أن مصر كانت تتبادل التجارة فى هذا العهد مع النوبة والسودان وأواسط أفريقية ، فمنذ الفتح العربى كانت هناك شبه اتفاقية تجارية بين مصر والنوبة تقضى بأن تستورد مصر الرقيق من النوبة وتصدر إليها القمح والعدس والحبوب [٢] ؛ ولا بد أن مصر كانت فى علاقات تجارية مع الحبشة وأواسط افريقية وكانت تصل إليها منتجات هذا الإقليم ، إما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق النيل عند أسوان . ولا ننسى فى هذه المناسبة ما كان هناك من علاقات دينية بين مصر وبين هذه الأقطار المختلفة ، إذ أن البطرق الأرتودكسى فى مصر كانت ولا تزال له الرئاسة الدينية على نصارى الحبشة والنوبة وسائر المسيحيين فى السودان ، وهو الذى يرسم أساقفتهم [٣] ولا بد أن هذه العلاقة الدينية قد تبعتها علاقة تجارية أيضا . ويذكر اليعقوبى [٤] أن التجار كانت تأتى إلى ثغر عيذاب فيحملون التبر والعاج وغير ذلك فى المراكب . ولا شك أن مصر كان يصيبها شىء من تجارة أواسط افريقية عن طريق هذا الميناء .

---

(١) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢١٩ — ٢٢٥

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ١٨٨ — ١٨٩ ، الكندى : الولاة والقضاة ص ١٢ — ١٣

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨

(٤) البلدان ص ٣٣٥

ولا نعرف تماما ما الذى كانت تصدره مصر فى ذلك العهد وما الذى كانت تستورده ، لكننا نرجح فى الغالب أنه فضلا عن دور الوسيط الذى كانت تقوم به مصر بين الشرق والغرب ، كانت تصدر جانبا من القمح بالإضافة إلى ما كانت ترسله سنويا إلى الحجاز . ولا نستبعد أن مصر كانت تصدر الكتان فى ذلك العهد لوفرة زراعته بها ، كما أننا نرجح أن أهم ما كانت تستورده مصر هو الأخشاب ، لندرة الأنواع الطيبة من الخشب فى مصر مما كان يلزم للبناء والسفن ، وكذلك المعادن . ويظهر أيضاً أن تجارة الرقيق كانت رائجة فى ذلك العهد أيضاً ، فقد كان هناك سوق للرقيق بمصر فى الفسطاط منذ أول عهد الفتح (١) .

---

(١) ابن عبد الحكم — طبعة تورى — ص ٩٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٩ .

٤ — الحركة العلمية

تركزت الحركات العلمية في كافة الأمصار الإسلامية في صدر الإسلام في الناحية الدينية ، وكان أكثر العلماء الذين ظهروا إذ ذاك علماء دين . أما العلوم الدنيوية والفلسفية فقد كان شأنها ضعيفاً في ذلك العصر بل كان ما ينمو منها إنما يحتاج في نموه إلى الدين يعتمد عليه ويصطبغ به(١) .

وقد تفرق الصحابة في كافة البلدان التي فتحتها الجيوش الإسلامية بل انضم كثير منهم إلى الجيوش التي فتحت تلك البلدان . وربما تعمد الخلفاء تفريقهم ليعلموا أهلها الدين الإسلامي . وكان ممن حضر فتح مصر من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، غير عمرو بن العاص قائد الجيش الفاتح ، عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر ابن الخطاب وخارجة بن حذافة العدوي ومسلمة بن مخلد وأبو رافع مولى رسول الله وشريك بن سمي الغطيفي المرادي وعبد الله بن الحارث بن حزم ابن عبد الله بن معدي كرب الزبيدي المذحجي وكان آخر صحابي مات بمصر ، توفي في سنة ست أو سبع أو ثمان وثمانين من الهجرة ، وغيرهم كثير(٢)

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أخذ الصحابة يفدون إلى مصر بعد

---

(١) أحمد أمين بك : فجر الاسلام ج ١ ص ٢٣٣

(٢) ابن عبد الحكم — طبعة توري ص ٩٢ — ٩٣ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٣ — ١٠٠

الفتح . إذ شجعهم على ذلك ما رأوه من وفير الخيرات وسهولة العيش . فكان العالمون منهم بأمور الدين يقومون بمهمة تعليم الشعب المصرى أصول الدين الإسلامى . وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس مدرسة مصر الدينية كما كان غيرهم من الصحابة أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار .

على أن أشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح هو عبد الله بن عمرو ابن العاص ؛ فيذكر المقريزى[١] أن أهل المدينة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وأن أهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما ، وأن أهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وأن أهل مصر كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

ولأهل مصر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قرابة مائة حديث[٢] . وقد أسلم عبد الله بن عمرو قبل أبيه[٣] وكان فاضلا عالما قرأ القرآن والكتب المتقدمة واستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يكتب عنه فأذن له فقال : يا رسول الله أكتب ما أسمع فى الرضا والغضب . قال : نعم فإنى لا أقول إلا حقا[٤] . ويذكر ابن سعد[٥] عن اسحاق بن يحيى عن مجاهد أنه قال : رأيت

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٢

(٢) ابن عبد الحكم — ص ٢٥٤

(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٨٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢٣٣ ، ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ١١٢

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٣

(٥) الطبقات الكبير . ج ٧ ص ١٨٩

عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألته عنها فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه فيها أحد . وقال أبو هريرة : ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب . وقال عبد الله : حفظت عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل[(١)] .

وقد اختلف في سنة وفاة عبد الله بن عمرو وفي أي جهة توفى ، ويذكر بعض المؤرخين أنه توفى عند ما قدم مروان بن الحكم إلى مصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير . وفي اليوم الذي قتل فيه الا كدر بن حمام بن عامر سيد لخم في النصف من جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ ولم يستطع أحد أن يخرج في جنازة عبد الله بن عمرو إلى المقبرة لشغب الجند على مروان[(٢)]

ويعتبر عبد الله بن عمرو بن العاص بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية إذ أخذ عنه كثير من أهلها وكانوا يكتبون عنه ما يحدث .

وإن كان عبد الله بن عمرو هو المعلم الأول في مصر فقد أخذت مصر دروسا دينية أيضا عن غيره من الصحابة وسمعت أحاديث نبوية من مختلف الصحابة الذين وفدوا إليها عقب الفتح . وسرعان ما أصبحت مصر بعد الفتح مركزا علميا دينيا في الدولة الإسلامية . وكان الخلفاء يوفدون علماء الدين إليها ليفقهوا أهلها وليكونوا مرجعا لهم في أحكامه وكافة أمورها ، فمثلا نرى عمر بن الخطاب يبعث إلى أهل مصر حبان بن أبي جبلة ليفقههم[(٣)] . ويبعث الخليفة

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٣٣ وابن حجر : الإصابة جـ ٤ ص ١١٢

(٢) الكندى ص ٤٦ وخطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٨

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٨١ — ٨٢

عمر بن عبد العزيز نافعا مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلمهم السنن[١] .

وقد تتلمذ على أيدى الصحابة بمصر التابعون الآخذون عنهم وكانوا لا يتعدون فتاويهم إلا اليسير مما بلغهم عن غير من كان فى بلادهم من الصحابة[٢] . على أننا نلاحظ أن أكثر حملة العلم فى عصر الصحابة كانوا من العرب لأن أكثر الصحابة عرب ، فلما قام علماء الصحابة بالتعليم فى الأمصار المفتوحة اشترك العرب وغيرهم فى تلقى العلم عنهم حتى إذا كان عصر التابعين وتابعيهم انعكست الآية فأصبح بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من الموالى وأبنائهم[٣] ويدلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر إلى ثلاثة رجال : رجلان من الموالى ورجل من العرب ؛ فأما العربى فجعفر بن ربيعة ، وأما الموليان فيزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر . وأظهر بعض العرب إنكارهم ذلك فقال عمر بن عبدالعزيز : ماذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون !

واشتهر من مصر كثير من العلماء والفقهاء والأئمة المجتهدين . نذكر منهم الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى ولد بمصر سنة إحدى وستين وقيل ثلاث وستين ، وأبوه عبد العزيز بن مروان أمير عليها ، « وقد تفقه حتى بلغ رتبة الاجتهاد وله مناقب كثيرة »[٤] وممن اشتهر بمصر أيضا يزيد بن حبيب واسمه سويد الأزدى أبو رجاء المصرى ، كان فقيه مصر وشيخها ومفتيها ، ولد سنة ٥٢ هـ بمصر وهو أحد ثلاثة فوض إليهم عمر بن عبد العزيز أمر الفتيا

---

(١) المرجع نفسه ص ١١٩

(٢) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٢

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ — ٤٨١ (فصل فى أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم) وأحمد أمين بك : فجر الاسلام جـ ١ ص ١٨٣

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١١٩

بمصر . وقد أخذ عنه عبدالله بن لهيعة والليث بن سعد وآخرون ، وكان الليث ابن سعد يثنى عليه ويقول « ابن أبى حبيب سيدنا » وتوفى يزيد بن أبى حبيب بمصر فى سنة ١٢٨ هـ .(١)

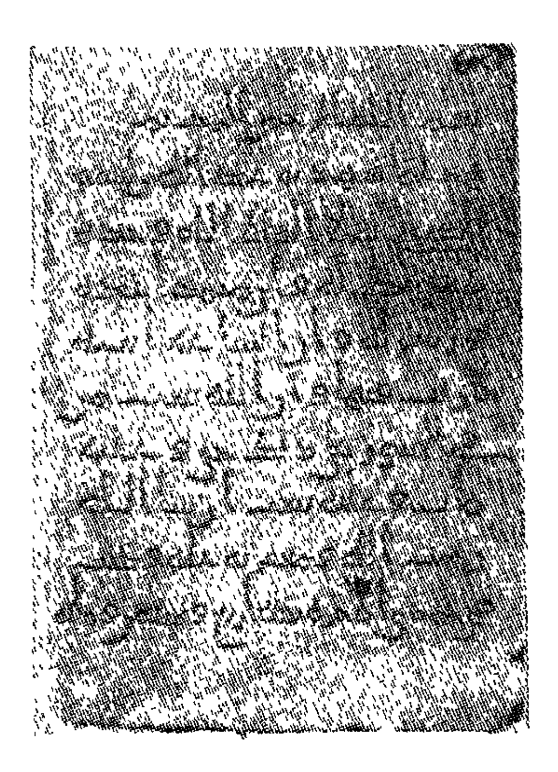
ومن علماء مصر ومحدثيها وفقهائها أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمى الغافقى المصرى الفقيه الذى ولد فى سنة ٩٧ هـ وقيل سنة ٩٦ هـ وولى قضاء مصر عشر سنين (١٥٥ — ١٦٤ هـ) ومات بها فى منتصف شهر ربيع الأول سنة ١٧٤ هـ (شكل ١٣) وقيل سنة ١٧٠ هـ(٢) . ومن أشهر فقهائها وأعمها فى ذلك العهد أيضا الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى مولاهم الأصبهانى الأصل المصرى ، ولد فى مصر فى بلدة قرقشندة(٣) سنة ٩٤ هـ وكان ثقة كثير الحديث صحيحه اشتغل بالفتوى فى زمانه . ويقال إن دخله كان فى كل سنة خمسة آلاف دينار ، كان يفرقها فى الصلات وغيرها . ولا نعرف ما هو مصدر ثروته هذه ، وقيل إن الأمام مالك كتب إليه من المدينة « بلغنى أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشى فى الأسواق » فكتب إليه الليث بن سعد : (قُلْ من حَرَّم زينة الله) . وكان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها فى عصره بحيث أن القاضى والنائب كانا من تحت أمره ومشورته وكان الشافعى يتأسف على فوات لقياه . وتذكر الروايات أن الشافعى قال « كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه » .

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٢ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٤٣ و ٣٠٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١١٩ — ١٢٠

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ص ٣١٣ وأبو المحاسن جـ ٢ ص ٧٧ السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٠

(٣) قرقشندة : قرية بأسفل مصر . ولد بها الليث بن سعد (ياقوت . معجم البلدان جـ ٤ ص ٦٤) وهى قلقشندة بمديرية القليوبية .



(شكل ١٣) شاهد قبر عبد الله بن لهيعة ، محفوظ بدار الآثار العربية في القاهرة . ونص كتابته : بسم الله الرحمن الرحيم — هذا ما يشهد به عبد الله بن لهيعة — الحضرمى أنه لا إله إلا الله وحده — لا شريك له وأن محمداً عبده — ورسوله وأن الساعة آتية — لا ريب فيها وأن الله يبعث من — فى القبور على ذلك حي وعليه — مات وعليه يبعث إن شاء الله — رحمت الله ومغفرته عليه وكتب فى جمدى الآخرة سنة أربع وسبعين ومائة

وقال يحيى بن بكير : « ما رأيت أحداً أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة » . وقد توفى الليث بن سعد سنه ١٧٥ هـ ، وقال قائل حين مات

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم غريبا وقبر[1]

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٥٤ — ٥٥٥ وخطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٢ ، أبو المحاسن ج ١ ص ٨٢ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠ — ١٢١ وأحمد أمين بك : فجر الاسلام ج ١ ص ٢٣٠

وقد شعر كثير من التابعين فى الأمصار المختلفة بضرورة الانتقال من جهة إلى جهة للدرس وتحصيل العلم . فالصحابة العلماء الذين أخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة كان بعضهم يزيد على الآخرين فى أشياء وينقص فى أشياء أخرى ؛ إذ كان بعض الصحابة يغيبون عن مجلس النبى عليه الصلاة والسلام فى بعض الأوقات التى يحضر فيها الآخرون وبالعكس فيفوت كل واحد منهم ما غاب عنه . فلما فتحت البلدان وتفرق الصحابة فى الأقاليم أصبح كل أقليم متأثراً بالصحابة الذين علموا فيه . فلما جاء عهد التابعين وتابعيهم شعر كثير منهم بالحاجة إلى التفقه على علماء الأقاليم الإسلامية الأخرى فكثرت الرحلة إلى الأمصار المختلفة[١] ، وتقابل العلماء فى مختلف الجهات ، وازدهرت فى ديار الأسلام مراكز عديدة للعلم يفد إليها الطلاب من مختلف الأقاليم الإسلامية . ويقال إن أول من رحل من أهل مصر إلى العراق فى طلب الحديث هو أبو سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق الذى توفى سنة ١٨٤هـ[٢] . وتأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى . ففى ذلك العصر امتزجت العقلية العربية بالعقلية الفارسية واليونانية وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء بفضل تشجيع بعض الخلفاء للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وإقبال نخبة من العلماء على تعريب الكتب الأجنبية ودراستها .

ونشأت فى العصر العباسى مذاهب انقرض بعضها فى العصر العباسى نفسه ولا يزال بعضها الآخر قائماً حتى اليوم . وقد كان فريق من الفقهاء يغالون فى اتباع

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٦ — ٧

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص٣٣٢ — ٣ و٣٣٣ وأحمد أمين بك : فجر الاسلام ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣١

الرأى وفريق آخر يغالى فى اتباع الحديث وفريق ثالث يتبع طريقا وسطا بين الاثنين . وأهم المذاهب التى ذاعت فى العصر العباسى هى المذاهب الأربعة التى قدر لها البقاء إلى اليوم . واقدم هذه المذاهب الأربعة هو مذهب الإمام أبى حنيفة وقد ولد الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠ هـ وقيل سنة ٦١ هـ وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ هـ ويعد أبو حنيفة إمام أهل الرأى والقياس ، وكان أشهر من دوّن مذهبه تلميذه أبو يوسف يعقوب بن محمد القاضى (١١٣ — ١٨٣ هـ)[١]. وثانى أئمة المذاهب الأربعة هو الإمام مالك ابن أنس الأصبحى الذى ولد بالمدينة المنورة فى سنة ٩٣ هـ أو سنة ٩٥ هـ وتوفى بها سنة ١٧٩ هـ ويمتاز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبى حنيفة ، ويقال لأصحابه أهل الحديث[٢]

وثالث هؤلاء الأئمة فى القدم الإمام محمد بن ادريس الشافعى القرشى وقد ولد بغزة سنة ١٥٠هـ ، وتلقى العلم فى مكة والمدينة وبغداد ثم أتى إلى مصر فى سنة ١٩٨ هـ وصنف بها كتبه وكون بها مذهبه الجديد وتوفى بها فى سنة ٢٠٤ هـ[٣] ويذكر ابن خلدون[٤] أن الإمام الشافعى مزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب أى أنه جمع بين

---

(١) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢١٨ وأحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة ص ٨ — ٩

(٢) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٥٥ — ٥٥٦ ، وأحمد تيمور باشا : المرجع السابق ص ١٩

(٣) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٦٥ — ٥٦٦ وأبوالمحاسن النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧ السيوطى حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢١ — ١٢٢ وأحمد تيمور باشا : المرجع نفسه . ص ٢٨

(٤) المقدمة ص ٣٧٥

مذهبي الرأى والحديث . ويجدر أن نشير هنا إلى أن قدومه بمصر كان مع عبد الله بن والى مصر العباس بن موسى بن عيسى العباسى الذى أرسله أبو خليفة له على ولاية مصر(١) .

ورابع هؤلاء الأئمة هو الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى الذى ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ وقيل بمرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع وتوفى بها سنة ٣٤١ هـ وكان ابن حنبل يغالى فى اتباع الحديث إذ كان يقول ضعيف الحديث أقوى من الرأى(٢)

بالرغم من أن مذهب أبى حنيفة هو أقدم المذاهب إلا أن مذهب مالك هو الذى دخل مصر أولا وانتشر بها . ويذكر المقريزى(٣) أن « أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح وكان فقيها روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد وتوفى بالإسكندرية سنة ١٦٣هـ ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر . ولم يكن مذهب أبى حنيفة رحمه الله يعرف بمصر » .

ويذكر ابن فرحون(٤) والسيوطى(٥) أن عثمان بن الحكم الجذامى هو أول من أدخل علم مالك بمصر وتوفى سنة ١٦٣ هـ .

(١) الكندى ص ١٠٤ وأبو المحاسن . النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٦١

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٠ و ٥٦٥ وأحمد تيمور باشا . ص ٣٨

(٣) الخطط جـ ٢ ص ٣٣٤

(٤) الديباج ص ١٨٧

(٥) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢١

وكلا القولين صحيح ففى ترجمة عثمان الجذامى من « تهذيب التهذيب » لابن حجر العسقلانى ما نصه : « وقال ابن وهب أول من قدم مصر بمسائل مالك عثمان بن الحكم وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد » .

فيظهر أنهما بعد أن تفقها عن الامام مالك عادا معا إلى مصر ونشرا بها مذهبه[1] وقد اشتهر من مدرسة مصر كثير من الفقهاء المالكية نذكر منهم طليب بن كامل اللخمى الذى كان من كبار أصحاب مالك ، عاش بالإسكندرية وروى عنه ابن القاسم وابن وهب ، وتفقه عنه ابن القاسم قبل رحلته إلى مالك . وقد مات طليب فى حياة مالك بالإسكندرية سنة ١٧٣ هـ[2] . ومن فقهاء المالكية فى مصر سعيد بن عبد الله بن أسعد المعافرى المصرى ، كان من كبار أصحاب مالك تفقه بابن وهب وابن القاسم ومات بالاسكندرية سنة ١٧٣ هـ[3] .

ومن أشهر فقهاء المالكية فى هذا العصر أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العُتقى بالولاء إذ تفقه على الإمام مالك رضى الله عنه ونظرائه وصحب مالكا عشرين سنة وانتفع به أصحاب مالك بعد موت مالك وعنه أخذ سحنون (من أشهر فقهاء أفريقية) وقد ولد ابن القاسم فى سنة ١٣٢ وقيل سنة ١٣٣ وقيل سنة ١٢٨ هـ وتوفى بمصر سنة ١٩١ هـ[4]

---

(١) تيمور باشا : نظرة فى حدوث المذاهب الأربعة ص ٢٠

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢١

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٠

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٧

ومن فقهاء المالكية بمصر فى ذلك العهد عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى الفهرى مولاهم ، ولد سنة ١٢٥ هـ وقيل سنة ١٢٤ هـ وقد صحب الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه عشرين سنة : رحل ابن وهب إلى الإمام مالك فى سنة ١٤٨ هـ ولم يزل فى صحبته إلى أن توفى ، وسمع من مالك ، وسمع من مالك قبل عبد الرحمن القاسم ببضع عشرة سنة . وكان مالك يكتب إليه إذا كتب فى المسائل : إلى عبد الله بن وهب المفتى ، ولم يكن يفعل هذا مع غيره . وذكر ابن وهب وابن القاسم عند مالك فقال : ابن وهب عالم وابن القاسم فقيه . وقد توفى ابن وهب فى مصر سنة ١٩٧ هـ[١] .

ومن الفقهاء المالكية فى ذلك العهد أيضا أشهب بن عبد العزيز بن داود بن ابراهيم القيسى العامرى المصرى فقيه مصر وقيل اسمه مسكين ولقبه أشهب . ولد سنة ١٤٠ هـ ومات فى سنة ٢٠٤ هـ بعد موت الإمام الشافعى بثمانية عشر يوما . وكان الشافعى يقول : «ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه[٢] » .

ومن مشاهير فقهاء المالكية فى مصر فى ذلك العهد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصرى . كان أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله وأفضت إليه رياسة الطائفة المالكية بعد أشهب . وكان من ذوى الأموال والجاه ، يقال إنه دفع للإمام الشافعى عند قدومه إلى مصر ألف دينار من

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣١٢ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٧٥ — ١٧٦ ، والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٩٠

ماله ، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار ومن رجلين آخرين ألف دينار . ولد فى سنة ١٥٠ هـ وقيل سنة ١٥٥ وتوفى سنه ٢١٤هـ ودفن بجوار قبر الإمام الشافعى . وقد أخذ عنه الفقه كثير من أهل مصر وممن أخذ عنه بنوه ، نذكر منهم عبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر الذى توفى سنة ٢٥٧ هـ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وقد صحب محمد هذا الإمام الشافعى عندما قدم مصر وتفقه عليه ، فلما مات الشافعى رجع محمد إلى مذهب مالك وانتهت إليه الرياسة بمصر . قال ابن يونس : كان المفتى بمصر فى أيامه . وقال غيره : كان من العلماء الفقهاء مبرزا ، من أهل النظر والمناظرة والحجة وإليه كانت الرحلة من الغرب والأندلس فى العلم والفقه وقد كان محمد هذا فقيه مصر فى عصره على مذهب مالك كما رسخ فى مذهب الشافعى وله مصنفات كثيرة وتوفى سنة ٢٦٨ هـ[١].

هؤلاء الفقهاء المالكية بمصر ، نذكرهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . أما المذهب الحنفى فيظهر أن أحداً من أهل مصر لم يذهب إليه إذ ذاك إلا من كان من قضاتها الذين ولتهم الخلافة وخاصة منذ عهد الخليفة هارون الرشيد الذى ولى قضاء بغداد بعد سنة ١٧٠هـ أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة ، ولم يقلد الخليفة القضاء ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف واعتنى به[٢] وطبيعى ألا يولى أبو يوسف أحدا إلا من كان من أصحابه أى ممن يذهب مذهب أبى حنيفة .

---

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣١١ — ٣١٢ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٢ — ١٢٤

(٢) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٣

وقد ظل الخلفاء العباسيون يؤثرون المذهب الحنفى على غيره من المذاهب ، طوال ذلك العهد الذى نتحدث عنه فى مصر[١] .

على أنه إذا كان ولى القضاء بمصر فى العصر العباسى قضاة على مذهب أبى حنيفة إلا أن عامة أهلها لم يتبعوا ذلك المذهب وإنما كان مذهب مالك هو المنتشر بها . وكان أول من ولى قضاءها من أتباع مذهب أبى حنيفة القاضى اسماعيل بن اليسع الكندى (١٦٤ — ١٦٧ هـ) ويذكر الكندى[٢] عن أحد الرواة أنه قال : «قدم علينا إسماعيل بن اليسع الكندى قاضياً بعزل ابن لهيعة ، وكان من خير قضاتنا غير أنه كان يذهب إلى مذهب أبى حنيفة ، ولم يكن أهل مصر يعرفونه وشنأوه » .

ويقال إن الليث بن سعد كتب فيه إلى الخليفة المهدى : إنك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا مع أنا ما علمناه فى الدينار والدرهم إلا خيراً » . فكتب المهدى بعزله[٣] .

ورغم إيثار الخلفاء العباسيين للمذهب الحنفى إلا أن قضاة مصر فى العصر العباسى لم يكونوا كلهم ممن يتبعون المذهب الحنفى[٤] .

ومن هذا نرى أن حظ المذهب الحنفى كان قليلا فى مصر فى ذلك العهد وكان محصوراً فى مكان ضيق حينذاك ، وظل المصريون يتبعون المذهب المالكى حتى قدم الإمام الشافعى إلى مصر وكون مذهبه الجديد بها . فمنذئذ أخذ كثير من المصريين يتبعونه ، ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح المذهب

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٣٣

(٢) الولاة والقضاة ص ٣٧١

(٣) الولاة والقضاة ص ٣٧٢

(٤) الولاة والقضاة ص ٣٨٣ ، ٣٩٣

الشافعي منافساً للمذهب المالكي في مصر . وقد شعر بعض المصريين حين قدوم الإمام الشافعي إلى بلادهم بالانقسام الذي أحدثه بينهم في مذهبهم الديني . ولا أدل على ذلك مما ذكره الكندي[1] عن أحد الرواة إذ يقول :

« سمعت ابن المنكدر يصيح بالشافعي والشافعي يسمع : يا كذا دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ورأينا واحد ففرقت بيننا وألقيت بيننا الشر فرق الله بين روحك وجسمك » .

وكان من أبرز فقهاء الشافعية في ذلك العهد أبو يعقوب يوسف بن يحيي البويطي الذي كان الشافعي يقول عنه · ما رأيت أحداً أبرع بحجة من كتاب الله مثل البويطي . « ولما مات الشافعي تنازع محمد بن عبد الحكم والبويطي في الجلوس موضع الشافعي حتى شهد الحميدي على الشافعي أنه قال البويطي أحق بمجلسي من غيره » فأجلسوه مكانه . وقد سعى به القاضي بن أبي الليث الحنفي قاضي مصر إذ ذاك لدى الخليفة الواثق زمن المحنة بخلق القرآن فحمل البويطي إلى بغداد ولكنه امتنع عن القول بخلق القرآن فسجن ببغداد ومات في السجن سنة ٢٣١ هـ[2] .

ومن فقهاء الشافعية في ذلك العهد عبد العزيز بن عمران بن أيوب الخزاعي المصري ، كان من أكابر العلماء المالكية فلما قدم الشافعي مصر لزمه وتفقه على مذهبه . وتوفي في سنة ٢٣٤هـ[3]

ومن أبرز الشافعية حينذاك الربيع بن سليمان بن داود الأزدي الجيزي مات بالجيزة في سنة ٢٥٦هـ[4]

(١) الولاة والقضاة ص ٤٣٨

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٣

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٧ (٤) المرجع نفسه

وهكذا نرى أنه أصبح بمصر فى ذلك العهد مذهبان يتعادلان : هما المالكى والشافعى ، ومذهب أقل شأناً تؤيده الخلافة وهو المذهب الحنفى . أما المذهب الحنبلى أو المذاهب الأخرى السنية فلم يكن لها ذكر بمصر إذ ذاك . أما عن المذاهب التى لا تعد من مذهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج فلم يكن لها أثر إلا فى ظروف سياسية معينة ، تحدثنا عنها فى الباب الثانى ، ولكنها لم تعمر طويلا إذ لم يقبل المصريون على مثل تلك المذاهب . وبالرغم من أنه فى وقت ما حكمت مصر دولة شيعية هى الدولة الفاطمية ، إلا أن التشيع لم يبق بمصر بعد زوال تلك الدولة .

وكان مركز الحركة العلمية الدينية فى مصر وقلبها النابض فى ذلك العهد جامع عمرو بن العاص مثله فى هذا مثل الأزهر الشريف الآن . فكان جامع عمرو ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة وإليه يلجأ الناس للاستفتاء وإليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الحين ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء .

وأصبحت مصر مركزاً علمياً هاماً خصوصاً فى أواخر عصر الولاة . فكان يفد إليها الطلبة لتلقى العلم وخاصة من إفريقية والمغرب والأندلس وبذلك أثرت مصر على المغرب والأندلس فى المذاهب وفى العلوم الدينية التى كانت تدرس حينذاك . ومن علماء مصر المشهورين حينذاك ورش المقرئ واسمه عثمان بن سعيد المصرى الذى تحدر من أصل قبطى وكان مولى لآل الزبير بن العوام . وأخذ القراءة عن نافع وهو الذى لقبه بورش لشدة بياضه . والورش شىء يصنع من اللبن . وقيل بل ولقبه ورشان وهو طائر معروف . وقد انتهت إليه رياسة القراء بالديار المصرية وكان ماهراً فى اللغة العربية

وتوفى سنة ١٩٧ هـ[١] .

ومن أئمة القراآت فى مصر أيضاً أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو ابن يسار المدنى ثم المصرى . لزم ورشاً مدة طويلة واتقن عنه الأداء وخلفه فى الأقراء بالديار المصرية وانفرد عنه بتغليظ اللامات وترقيق الراآت . وقال أبو الفضل الخزاعى : « أدركت أهل مصر والمغرب على أبى يعقوب وورش لا يعرفون غيرهما » وتوفى أبو يعقوب حوالى سنة ٢٤٠ هـ[٢].

ومن علماء إفريقية الذين أخذوا عن المصريين البهلول بن راشد إذ كان ممن أخذ عنهم الليث بن سعد . وقد توفى البهلول فى سنة ١٨٣ هـ وقيل سنة ١٨٢ هـ[٣] .

ومن علمـاء الأندلس الذين تلقوا العلم على الفقهاء المصريين فى فجر الإسلام عيسى بن دينار ، إذ سمع من ابن القاسم وصحبه وعول عليه . وقد أدرك عيسى أيضاً ابن وهب وأشهب إلا أنه سمع من ابن القاسم واقتصر عليه ثم انصرف إلى الأندلس فكان لا يتقدمه أحد من قرطبة فى الفتيا وكانت له فيها رياسة وبه وبيحيى ابن يحيى انتشر مذهب مالك فى الأندلس . وتوفى عيسى سنة ٢١٢ هـ فى طليطلة[٤] .

ومن أساتذة ذلك العهد أيضاً زكريا أبو يحيى الوقار المصرى . كان من موالى قريش وقيل من موالى عبد الدار وروى عن ابن القاسم وابن وهب

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٥٥ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٠٧

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٠٧

(٣) Ben Cheneb: Classes des Savants de l'Ifriqiya, pp. 112-125
وابن فرحون : الديباج ص ١٠٠ — ١٠١

(٤) ابن فرحون : الديباج ص ١٧٨ — ١٧٩

وأشهب وغيرهم وكان مختصاً بابن وهب . وقد ذهب إلى أفريقله سنة٢٠٥هـ علم فيها ثم عاد إلى مصر وتوفى بها سنة ٢٥٤ هـ وقيل سنة ٢٦٣ هـ[1]

وممن يستحق التنويه من مدرسة مصر فى ذلك العهد ايضاً أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم وقيل الفيض ابن ابراهيم المصرى المعروف بذى النون . كان أوحد وقته علما وورعا وأدبا وزهداً ، روى عن الإمام مالك والليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة والفُضَيل بن عياض وسفيان بن عيينة وغيرهم وكان مولد ذى النون بأخميم . ويعد ذو النون من أقطاب الصوفية . وله فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم الصوفية كما نعرفها الآن . وقد انكر عليه أهل مصر وقالوا أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة وسعى به بعض أعدائه لدى الخليفة المتوكل فاستحضره الخليفة من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده مكرما . وتوفى ذو النون بمصر فى سنة ٢٤٥ هـ[2] .

* * *

وكانت الإسكندرية عند الفتح العربى أهم مركز فى الشرق تشع منه الثقافة اليونانية الرومانية . ولكنها فقدت بعد الفتح مكانتها السياسية وكان طبيعياً أن تفقد مكانتها العلمية تبعاً لذلك . ولسنا نستطيع أن نغفل الحديث عن أمر طالما كثر فيه الجدل . ذلك هو حريق مكتبة الإسكندرية الذى

---

(١) Ben Cheneb: Classes des Savants. P. 174 . وابن فرحون : الديباج ص ١١٨

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٦ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢١ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٢٨ والدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٢٦ وآدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٥٠ .

(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٤٨ — ٣٧٠

نسبه بعض المؤرخين إلى عمرو بن العاص ونفى مؤرخون آخرون هذه التهمة عن القائد العربى وعن الخليفة عمر بن الخطاب الذى ينسب إليه أنه أمر عامله عمراً بأن يحرق المكتبة .

وأول من تحدث عن حريق هذه المكتبة هو عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ ميلادية) وقد ذكر أنها حرقت بأمر عمرو بن العاص ولكنه لم يذكر عن الحادث أى تفاصيل تجلى غوامضه . أما الذى أتى على قصة طويلة فى مناسبة الكلام عن حريق المكتبة فهو أبو الفرج ابن العبرى . وهو مؤرخ ولد فى ملطية بارمينية سنة ١٢٢٦ ميلادية ودرس اليونانية والعربية والسريانية ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت ونصب بعد ذلك اسقفا وتوفى سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) .

وملخص القصة التى رواها أبو الفرج الملطى هذا أنه فى زمن فتح العرب مصر اشتهر فى البلاد رجل اسمه يحيى النحوى (يوحنا غراماطيقوس) والظاهر أنه كان من القسس اليعاقبة فى الاسكندرية وأنه رجع عما يعتقده اليعاقبة فى طبيعة المسيح وطلب إليه الأساقفة بمصر أن يعود إلى المذهب الأرثودكسى فلم يرجع فعزله مجمع منهم. وعاش يوحنا هذا إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية فاتصل بعمرو وأعجب هذا بغزارة علمه فقرّبه إليه . ثم قال يوحنا له فى يوم من الأيام : « إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على ما فيها ولست أطلب إليك شيئاً مما تنتفع به بل شيئاً لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » فقال عمرو : « وما الذى تقصد ؟ » فأجاب يوحنا : « كتب الحكمة الموجودة فى خزائن الروم » فأجاب عمرو بأن ذلك أمر ليس له فيه رأى قبل استئذان الخليفة . وكتب إلى عمر بن الخطاب يستفتيه فى المسألة فأجابه عمر : « وأما ماذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق

ما جاء فى كتاب الله ففى كتاب الله غنى عنه . وإذا كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا أرب لنا فيه وتقدم باعدامها » فأمر عمرو بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية فما زالوا يحرقونها فى مواقدها ستة أشهر .

هذه هى القصة التى رواها أبو الفرج فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى (١٣م) كما أشار إليها من قبل عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى صاحب كتاب أخبار العلماء باخبار الحكماء من كتاب النصف الأول من القرن السابع (١٣ م) . وربما كان ابن القفطى وأبو الفرج بن العبرى أخذاها عن البغدادى .

وعلى كل حال فإن الشك فى صحتها قديم بين المؤرخين المحدثين فإن إدوارد جبون المؤرخ الإنجليزى المشهور الذى كتب بين سنتى ١٧٧٠ و١٧٨٧ مؤلفه المشهور عن تدهور الدولة الرومانية وسقوطها ناقش هذه القصة ونفاها (جزء ٩ ص ٤٣٧ وما بعدها) .

وربما كان الأفضل بنا الآن أن نلخص فى بضع نقط الجدل الذى دار حول هذه المسألة .

أولا — إن اتهام المسلمين باحراق المكتبة لم يذكره المؤرخون إلا بعد أكثر من خمسمائة سنة مرت على فتح الإسكندرية . وإذا جاز لنا أن نتهم المؤرخين المسلمين المتقدمين أمثال ابن عبد الحكم والبلاذرى واليعقوبى والطبرى بأنهم احجموا عن الإشارة إلى ذلك تعصباً منهم للمسلمين — مع أن هذا غير معقول لأن عقلية العرب لم تكن لتتغير بهذه السرعة — نقول إذا جاز ذلك فلسنا نجد شيئاً نفسر به عدم الإشارة إليها فى كتب المؤرخين المسيحيين مثل حنا النقيوسى الذى كان قريب العهد بفتح الإسكندرية ومثل سعيد بن بطريق (أوتيخا) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٦٠ م) .

ثانياً — اثبت الدكتور الفرد بتلر مؤلف كتاب فتح العرب لمصر أن يحيى النحوى أحد أبطال هذه القصة مات قبل غزو العرب مصر بزمن طويل

ثالثاً — إن كتاب القرنين الخامس والسادس وأوائل القرن السابع بعد ذلك لم يذكروا شيئاً عن مكتبة الإسكندرية والواقع أن المكتبتين اللتين قد تشير القصة إلى واحدة منهما أو إليهما معا كانتا قد ضاعتا قبل الفتح العربى بزمن طويل — فالأولى وهى مكتبة المتحف أو الجامعة اتلفتها النار سنة ٤٨ ق . م فى الحريق الذى أحدثه يوليوس قيصر ليرد أعداءه عن أسطوله ويؤيد هذا القول المؤرخ اليونانى بلوتارك المتوفى سنة ١٢٥ م وغيره من المؤرخين . أما المكتبة الثانية وهى مكتبة السرابيوم فليس العلماء متفقين فى أمرها ولا يمكن القول يقينا هل نقلت من السرابيوم قبل سنة ٣٩١م وهى السنة التى أشتد فيها النزاع بين الوثنيين والمسيحيين وحكّم الطرفان الأمبراطور تيودوسيوس فقضى للمسيحيين واستطاع هؤلاء أن يخربوا السرابيوم وكان حصن الوثنية المنيع بل الواقع أن نجاة الكتب غير معقولة بسبب تعصب المسيحيين الثائرين واعتبارهم هذه الكتب كتب الوثنية الضالة . فيمكننا إذن أن نجزم بان هذه الكتب كان مصيرها الضياع ولا سيما أن أوراسيوس الذى كتب فى سنة ٤١٦ ميلادية ذكر أنه رأى الرفوف أو الصناديق فى السرابيوم فارغة ليس فيها شىء من الكتب ولم يشر إلى وجود أى مكتبة تستحق الذكر فى الإسكندرية .

رابعاً — إذا سلمنا جدلا بأن الإسكندرية كانت تحتوى وقت الفتح الإسلامى على مكتبة كبيرة فان المدنة التى عقدت بين المسلمين وأهل الإسكندرية كانت طويلة وكان فى استطاعة القوم أن ينقلوا كنوز هذه المكتبة إن لم يكن لقيمتها العلمية فلقيمتها المادية . ونحن نعلم أن العرب

أباحوا للروم نقل ما يريدون من متاع وأموال .

خامساً — إن عناصر القصة تدل على أنها خرافية ولا أثر للتماسك بين أجزائها المختلفة . من ذلك تفريق الكتب على الحمامات المختلفة واتخاذها وقوداً مدة ستة شهور . فإن القائد الذى يأبى إعطاءها لصديقه ويريد حرق الكتب تنفيذاً لأمر الخليفة يحرقها حيث هى أو يشرف على هذه العملية على أقل تقدير — ولا يدفع الكتب إلى الحمامات حيث يمكن أصحابها أن يبيعوها للناس بثمن بخس . ثم إن أكثر هذه الكتب كانت مكتوبة على الرق . والرق لا يصلح للوقود وليس من المعقول أن يكفى الباقى مدة ستة أشهر وقوداً للأربعة آلاف حمام التى زعم العرب وجودها فى الإسكندرية

سادساً — إن الذين يؤيدون دعوى إتهام المسلمين بحرق المكتبة بأنهم حرقوا مكاتب الفرس عند الفتح لا يستطيعون أن يأتوا على هذا الزعم الثانى بأى دليل من المؤرخين الأقدمين ويكتفون بحاجى خليفة وهو كما نعلم من مؤرخى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧م) فلا يجوز الاعتماد عليه كل الاعتماد

سابعاً — إن الاحتجاج بأن رواية حريق المسلمين للمكتبة لم يروها ابن العبرى فقط ، وقد يطعن فى قوله بالتعصب ؛ بل رواها مؤرخان مسلمان هما عبد اللطيف البغدادى وابن القفطى ، هذا الاحتجاج ليس قويا لأن هؤلاء المؤرخين عاشوا كلهم فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) ، ولعلهم ، ثلاثتهم ، أخذوا عن مصدر مشترك كان متعصباً ضد الإسلام ولم يصل إلينا . أو لعلهم صدقوا الروايات التى كانت تتناقلها الألسن والتى لم يكن الغرض منها إلا الطعن على المسلمين فضلا عن أن عبد اللطيف لم يشر إلى المسألة إلا عرضاً عند كلامه على عمود السوارى .

ثامناً — إن التعاليم الإسلامية تحترم الديانات السماوية وإن المسلمين لم

يكونوا ليقدموا على هذا العمل ، ولا سيما أن من شروط الصلح أن تترك للمسيحيين الحرية الدينية وأن لا يتدخل المسلمون فى شئونهم — وحرق المكتبة يعتبر خرقا لهذه الشروط لأنه لا شك فى أنها كانت تحتوى على كتب دينية كثيرة .

وهكذا ننتهى إلى أن مكتبة الإسكندرية حرقت منذ عهد يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق . م بعد ذلك باربعمائة سنة حين اشتد النزاع بين الوثنية والمسيحية وقضى الأمبراطور ثيودوسيوس بالقضاء على المعابد الوثنية .

ومع ذلك كله فإن فى التاريخ أمثلة عديدة تثبت أن إحراق الكتب لم يكن فى يوم من الأيام وقفاً على شعب من الشعوب أو أتباع ديانة من الديانات فالصليبيون أحرقوا الكتب فى طرابلس الشام فى القرن الثالث عشر والأسبان أحرقوا الكتب العربية بعد أن طردوا العرب من الأندلس . وكذلك أحرق الفرنسيون الكتب التى وقعت فى أيديهم عند ما فتحوا مدينة قسطنطينية فى تونس كما يشهد بذلك المؤرخ الفرنسى سديلو نفسه وليس ببعيد أيضاً ما فعله الألمان قبيل الحرب الأخيرة بالكتب التى ألفها اليهود أو الاشتراكيون أو الشيوعيون .

***

ومهما يكن من الأمر ، فإن الفتح العربى لم يقض على الحياة العلمية فى الإسكندرية ، ولا سيما فى العلوم العقلية ، وذلك بالرغم من أن معظم علماء الروم غادروها بعد الفتح

وحسبنا دليلا على النشاط العلمى فى الاسكندرية فى فجر الإسلام ما ذكره ابن النديم [1] من ان خالد بن يزيد بن معاوية حينما أراد تعلم الكيمياء أمر

(١) الفهرست (طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م) ص ٢٤٢

باحضار جماعة من فلاسفه اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر ولهم إلمام بالعربية ، وطلب منهم نقل كتب الصنعة (الكيمياء) من اليونانية والقبطية إلى العربية ، فكان هذا أول نقل إلى العربية فى الإسلام . وذكر ابن أبى اصيبعة أنه كان فى الاسكندرية زمن الفتح طبيب اسمه ابن ابجر وكان يدرس بها ، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه فى صناعة الطب حين كان أميرا وبعد أن صار خليفة . كذلك أرسل الخليفة هرون الرشيد فى طلب بليطيان أحد علماء الاسكندرية المشهورين لتطبيب جارية له[٢] .

وقد احتذى حنين بن اسحق ، طبيب بغداد الذى عاش القرن الثالث الهجرى ، حذو الاسكندريين فى التأليف[٣] . لكن يظهر أن مدرسة الاسكندرية أخذ شأنها يقل بعد ذلك ، فإن الأقباط لم يهتموا اهتماما كبيرا بدراسة الثقافة اليونانية الرومانية . أما العرب والأقباط الذين أسلموا فقد أقبلوا على دراسة العلوم الإسلامية الدينية . ولعل بعض المصريين المسلمين أقبلوا على دراسة الثقافة اليونانية الرومانية ، فيذكر ابن النديم[٤] أن ذا النون المصرى كان من الفلاسفة الذين تكلموا فى علم الصنعة (الكيمياء) .

والواقع أنه إن كان لمصر فى عصر الولاة نصيب فى حفظ تراث اليونان والمسيحية الشرقية أو نقله إلى الغرب ، فانما هو فى تركها علماء الروم يغادرون مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح ، وفى عدم تعرضها لمدرسة الاسكندرية أو للأديرة التى كانت مراكز الثقافة المسيحية فى مصر .

---

(١) طبقات الأطباء — (القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ) — جـ ١ ص ١٦٦

(٢) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٨٢ — ٨٫٣ .

(٣) القفطى ص ١٧١ — ١٧٢

(٤) الفهرست ص ٣٥٣

الخاتمة

تبوأت مصر مركزا ممتازا فى الدولة الإسلامية عقب الفتح العربى وذلك لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها العالى الممتاز . وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بأمرها أنهم كانوا يولونها أحيانا أبناءهم أو اخوتهم أو أفرادا من البيت الخليفى القائم بالحكم . وقد كانت مصر كالمرآة تنعكس عليها الحركات السياسية والدينية التى تحدث فى دار الخلافة ، كما كانت قبلة أنظار الشخصيات الطامحة إلى منصب الخليفه . وبالرغم من أنه نشأت فى مصر فتن وخلافات دينية عديدة منذ أيام دقلديانوس حتى الفتح ، وبالرغم من أنه نشأت فى الإسلام بدع ونحل وفتن دينية كثيرة ، إلا أن مصر بعد الفتح العربى أقبلت على اعتناق الإسلام ولم يكن لها يد فى إثارة الخلافات الدينية التى قامت فى العالم الإسلامى . وإن كان قد أثير فيها بعض الفتن فقد كان هذا نتيجة لتأثرها بحوادث الخلافة وسرعان ما كانت تعود الحياة ثانية إلى مجاريها .

ويشبه التقسيم الإدارى فى العصر الإسلامى التقسيم الذى كان معروفا فى العصر اليونانى الرومانى ولكنه لم يكن مماثلا له كل المماثلة . كذلك نلاحظ أن النظام البيروقراطى ، وبعبارة أخرى النظام الديوانى الذى كان سائدا فى الإدارة المصرية قبل الفتح أثر فى العرب فكانت الإدارة مركزة فى دواوين الحكومة بالعاصمة وأهمها ديوان الخراج والأموال ، وديوان الرسائل أو الانشاء ، وديوان الجند وديوان القضاء . ولهذا يقول لامانس

Lammens : Un gouverneur Omaiyade d'Egypie. p. 106. (١)

Lammens أن الوثائق البردية العديدة التى اكتشفت حديثا تقدم دليلا ماديا على وجود نظام بيروقراطى استمده العرب من البيزنطيين .

ويظهر أن مصر العليا ومصر السفلى كانا اقليمين منفصلين من الوجهة الإدارية ومع ذلك فإن أصحاب الكورات كانوا خاضعين مباشرة لوالى البلاد . والظاهر بوجه عام أننا نعرف عن كبار الموظفين فى العصر الإسلامى من الوجهة النظرية عامة أكثر مما نعرف عن حقيقة الأداة الحكومية الفعالة .

ونلاحظ أن الغرض الأساسى للادارة كان ينطوى على جمع الضرائب واستثمار الأرض واستغلال الفلاح كما كان الحال فى العهد البيزنطى .

وكان العامل على الصلاة والعامل على الخراج متساويين فى الحقيقة على الرغم من أن الأول كان رئيس الهيئة التنفيذية فى القطر ، بل حدث كثير من الأحيان أن كان صاحب الخراج أعظم نفوذا من الوالى . وأحيانا كان الوالى يجمع بين المنصبين . وفى الواقع لم تكن سلطة الوالى مطلقة فى ولايته على مصر ، بل كان يحد منها نفوذ العامل على الخراج ونفوذ الجند ونفوذ الموظفين . ونظرا لأهمية منصب العامل على الخراج فقد كان الوالى يسعى دائما إلى أن يضاف إليه اختصاص هذا المنصب ليصبح واليا على الصلاة والخراج معا . ولم يكن فى الجمع بين هذين المنصبين بأس ما دامت الحكومة المركزية فى مقر الخلافة قوية مرهوبة الجانب . ولكن عندما تطرق الضعف إلى الخلافة العباسية أصبح الجمع بين هذين المنصبين أكبر عون على استقلال الوالى وتفكك الامبراطورية ، فنرى ابن طولون يتنازع مع ابن المدبر صاحب خراج مصر ، ولم يبدأ استقلاله إلا بعد تخلصه من ابن المدبر .

والظاهر أن العرب وجدوا فى مصر عند الفتح نظاما زراعيا وماليا لم يستطيعوا تركه تماما . وكان هذا النظام يبعدهم إلى حد كبير عن الاتصال

بالفلاحين ودافعى الضرائب مباشرة ، وكان قوام هذا النظام طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يدفعون أو يضمنون دفع الضرائب عن مساحات زراعية كبيرة ، بينما كان الفلاحون أنفسهم مرتبطين بالأرض إلى حد كبير جدا ، وكانوا لا يغيرون مقرهم إلا بترخيص . ولسنا نعرف تماما هل أخذ الموظفون يحلون محل هؤلاء الملاك فى جمع الضرائب ، وإلى أى حد وبأى سرعة تم هذا التغيير . ومن الراجح أن هؤلاء ظلوا يضمنون دفع الضرائب ، ولكن أخذ العرب يحلون محلهم تدريجيا فى امتلاك الأرض وضمان الخراج . وقد كان فلاحو القرية متضامنين فى الضرائب التى تفرض عليهم وكان لا يجوز لهم الهجرة من مقرهم إلا باذن من الحكومة وقد اتخذت الحكومة فى بداية العصر الإسلامى اجراءات شديدة لمنع الهجرة من كورة إلى أخرى ولكشف المهاجرين وإعادتهم أو الاذن لهم بالاستقرار فى مقرهم الجديد ضمانا لحسن سير فلاحة الأرض ولجمع الضرائب . كما كان لا يجوز نقل المحاصيل أو المنقولات من مكان إلى آخر إلا بتصريح ، ويدل على ذلك أمثلة عديدة فى أوراق البردى[١] .

وقد كان فى مصر ديوان للخراج والأموال[٢] ويظهر أن بيت المال فى مصر لم يكن وقفا على حفظ أموال الضرائب فحسب[٣] ، فانا نعلم أن الخليفة أبا جعفر المنصور أرسل إلى أبى عون وإلى مصر (١٣٣ — ١٣٦ هـ) يأمره بادخال أموال اليتامى فى بيت المال[٤] ، وربما كان يرد إلى بيت المال أيضا

(١) Voir: J. Karabacek: Papyrus Erzherzog Rainer.Fuhrer durch die Ausstellung. Wien 1894. pp. 153, 148

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٩٨ .

(٣) يذكر ابن رسته أن مقر بيت المال كان فى المسجد الجامع (الأعلاق النفيسة ص ١١٦)

(٤) الكندى ص ٣٥٥

المواريث التى يموت أصحابها دون أن يكون لهم ورثة . ولعل خمس الغنيمة التى كان يغنمها المصريون فى فتوحاتهم فى الغرب والجنوب كانت ترد إلى بيت المـال أيضا .

ويبدو من المصادر الإسلامية والمسيحية فى تاريخ عصر الولاة أن الهدف الرئيسى الذى كان يعنى به العرب هو الجزية التى كانوا يجمعونها من القبط . ويظهر أن الادارة المالية كانت معقدة وأن الذين كانوا يفهمونها أكثر من غيرهم هم الموظفون القبط . ويمكننا القول بأن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب إلى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة وعمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئا كثيرا . ولمـا كانت البلاد فى عصر الولاة لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها ، لم تكن من الوجهة المالية إلا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الإنتاج ، إذ كان غرض الخلافة الأساسى هو جباية أكبر دخل ممكن .

ومن النظم التى وجدت قبل الفتح العربى وأخذ بهـا العرب نظام الالتزامات المعروف فى العالم الـكلاسيكى باسم Leiturgia ومعناه التزام الشخص أو الجماعة ببعض الخدمات للدولة . ففى أثينا كان كل مواطن يمتلك نصيباً معيناً من الأملاك يقدم إلى الدولة بعض الخدمات الشخصية[1] .

ولـكن هذا النظام لم يكن فى العصر الإسلامى عاما كما كان عند الإغريق بمعنى أنه كان ظاهرا فى الضرائب ومايتصل بها ، فـكانت الـكورة تلزم بأداء نوع من الخدمة للدولة أو بدفع مبلغ فى مقابل إعفائها من ذلك . وفى بعض

(١) كانت هـذه الخدمات كثيرة النفقات وكانت فى البداية نتيجة طبيعية للامتيازات السـياسية التى ينعم بها الأثرياء فـكانوا يؤدونها للجمهورية ليكون نصيبهم من الضرائب أثقل من نصيب الفقراء . ولـكن لما ازدهرت الديمقراطية فى أثينا وأصبح المواطنون متساوين فى الحقوق السياسية تغيرت طبيعة تلك الالتزامات وصارت نوعا من ضرائب الدخل .

الأحيان كان الوالى يوصى عماله على الكورات بجمع الأشخاص أو المواد اللازمة لهذه الخدمات وبعدم قبول المال مقابل الإعفاء من أدائها .

ومن أهم أنواع الالتزام أو الليتورجيا .

١ — تقديم العمال والأدوات اللازمة لتشييد الطرق وحفر الترع أو كريها

٢ — تقديم مواد غذائية مختلفة مما تشتهر بانتاجه الكورات .

٣ — إيواء الجند وضيافتهم .

٤ — تقديم الموظفين ذوى الخبرة لبعض الأعمال الحكومية .

٥ — تقديم المواد والأيدى العاملة اللازمة لتشييد المبانى العامة فى مصر بل ولعمارة المساجد فى الشام وبلاد الحجاز .

٦ — تقديم البحارة ومواد بناء السفن[١] .

ورأينا أيضاً أنه كان هناك مصانع حكومية للنسج (طراز الخاصة) ومصانع حكومية أو أهلية تراقبها الحكومة (طراز العامة) . وكانت الحكومة فى عصر الولاة بل والى العصر الفاطمى تحصل على معظم حاجتها من مصانعها الخاصة بينما أصبحت فى عصر المماليك تعتمد على المصانع الأهلية العامة .

ولا نعرف إذا كانت التجارة الخارجية فى عصر الولاة مع أقاليم البحر الأبيض المتوسط ظلت على ما كانت عليه فى العصر اليونانى الرومانى ، أم أخذت فى النمو والزيادة تمهيداً للازدهار الذى وصلت إليه فى عصر الأيوبيين والمماليك . والظاهر أن تجارة الهند لم تصبح مصدراً كبيراً لثروة ذوى الأمر فى مصر إلا منذ الدولة الأيوبية . ويبدو أن المصريين أنفسهم لم يساهموا فى النشاط التجارى الخارجى إلا بقدر ضئيل ولعل هذا يرجع إلى عدم إقبال المصريين بوجه عام على التجارة فى العصور القديمة . ويرجح أن معظم التجار

C. A. Becker: Islamstudien I. p. 207. (١)

فى عصر الولاة كانوا من الخارج مثل أسرة المادرائيين العراقية ، التى اشتهرت قبيل العصر الطولونى وظلت واسعة النفوذ ورفيعة المكانة إلى العصر الأخشيدى ، وكان لليهود شأن عظيم فى التجارة فى ذلك العصر .

ولا نعرف إذا كانت مصر فى عصر الولاة قد عرفت نظام احتكار بعض البضائع أو الحاجيات ، اللهم إلا إذا استثنينا ما فعله ابن المدبر فى نهاية هذا العصر من الحجر على النطرون بعد أن كان مباحا لكل الناس[١] كذلك أدخل ابن المدبر المراعى ، أى الكلأ الذى ترعاه الدواب ، فى الديوان وحرم على الناس أن يبيعوا المراعى أو يشتروها إلا من الديوان[٢] .

وقد احتفظت مصر فى هذا العصر من الناحية الفنية (العمارة والفنون الزخرفية) بكيانها الخاص ، وكان التحول إلى الروح الإسلامية فى هذه الفنون تحولا بسيطا . ويعتبر عصر الولاة عصر الانتقال من الأساليب الفنية القبطية إلى الأساليب الفنية العباسية التى سادت مصر فى العصر الطولونى.

ولم يكن للمصريين فى عصر الولاة حق الاشتراك فى الجيش فكان رجال الجيش النظامى والأسطول من العرب . ولكن كانت هناك فرق غير نظامية مثل المطوعة وربما كان أغلبهم من المصريين ، كذلك كان يجمع من أنحاء القطر مساعدون وأعوان وفقا لنظام الالتزامات أو الليتورجيا . ولا ينفى هذا ما ذكرناه من أن المصريين لم يشتركوا فى صلب الجيش إذا كانوا يقومون بأدوار ثانوية كما أنهم لم يثبتوا فى ديوان الجند ولم يصرف لهم العطاء الذى كان يصرف للفرق النظامية . ونجد أن العنصر العربى فى الجيش

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٠٣ ، ١٠٩
Zaky M. Hassan: Les Tulunides. p. 244.

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ١٠٧ .Zaky M. Hassan: op. cit. p. 244

والأسطول يقل ابتداء من العصر العباسى لإقباله على وظائف الإدارة أو على الزراعة والتجارة ويصبح قوام الجيش من الفرس أولا ثم الترك ثانياً حتى أتى المعتصم فى بداية القرن الثالث الهجرى فأمر بإسقاط العرب نهائياً من الديوان .

وقد ترك العرب للمصريين أراضيهم وأمنوهم عليها وفرضوا عليها الخراج ولم تكن أرض مصر ، فى بداية هذا العصر ، أرض خراج فحسب بل نشأت فيها أرض العشر ، إما قطيعة منحت لبعض المسلمين . أو أرض حصلوا عليها من الحكومة أو القبط بطريق الشراء ، أو أرض موات احتلوها . كذلك كان القبطى الذى يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية . ولكن نجد أنه بمضى الوقت أصبحت أرض مصر كلها يفرض عليها الخراج دون النظر إلى مالكها سواء أكان قبطياً أم مسلماً ، ولا نعرف متى كان هذا التحول بالضبط والراجح أنه كان فى العصر العباسى

وكانت أول ثورة للعرب بسبب زيادة الخراج زيادة مجحفة زمن الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) حين كان موسى بن مصعب الخثعمى والياً على مصر (١٦٧ — ١٦٨ هـ) . ولا بد أن بعض ولاة مصر وعمال خراجها وبعض الموظفين فيها تمكنوا من الاثراء وجمع الأموال الطائلة ، وخاصة فى العصر العباسى ، حين كثر تولية العمال وعزلهم . ولا نعرف هل كان الولاة فى هذا العصر يلزمون بعض الموظفين والأثرياء بدفع ثرواتهم أو جزء كبير منها إلى خزانة الدولة ثانية ، كما كان يحدث فى عصر الطولونيين والأخشيديين ، رغم أن هذه السياسة كانت معروفة جداً فى مقر الخلافة فى القرن الثالث الهجرى ولا سيما فى حالة الوزراء حين عزلهم[1] . وربما كانت

(١) انظر كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء تأليف أبى الحسن الهلال الصابى

مثل هـذه المصادرات مألوفة فى عصر الولاة المستقلين من الطولونيين والأخشيديين رغبة منهم فى تنمية ثرواتهم الخاصة[١] .

ومن المدن التى اشتهرت فى عصر الولاة مدينة الفسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها ، ومدينة الإسكندرية عاصمة مصر الثانيه وميناؤها الهام ومقر البطركية . « وقد ظلت الإسكندرية محافظه على مكانتها الخاصه التى كانت لها فى عهد البطالسة حتى أول القرن الرابع الهجرى ، حيث نجد فى إحصاء أموال الدولة إفراد باب خاص عنوانه . مصر والإسكندرية ، فقد حافظت الإسكندرية على مكانتها باعتبارها قسما مستقلا بجبايتة كما كان الحال على عهد البطالسة[٢] » . ومن المدن الهامة أيضاً فى هذا العصر تنيس ودمياط وبورة وتونة ودميرة ودبيق وشطا واهناسيا والبهنسا وأسيوط وإخميم والفيوم . وكلها تدين فى شهرتها للصناعات وخاصة صناعة النسج . كذلك اشتهرت منطقة البشمور بثوراتها المتعددة كما رأينا فى الفصول السابقة . .

وقد حدثت فى عصر الولاة مجاعات كالتى حدثت فى العصور التى تلتها مثـل العصر الأخشيدى والفاطمى والأيوبى وعصر المماليك . ويذكر الـكندى[٣] والمقريزى[٤] أن أول غلاء وقع بمصر بعد فتح العرب كان فى سنة ٨٧ هـ ، وكان هذا أول غلاء وأول شدة رآها المسلمون بمصر . ولا يذكر الـكندى أو المقريزى مجاعة أخرى حدثت فى مصر قبل ذلك أو بعده طوال عصر الولاة . على أن المؤرخ ساويرس ، الذى استمد معلوماته من

---

(١) فارن آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ١٤٠ ، ١٩٤
(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٢٠٨
(٣) الولاة والقضاة ص ٥٩
(٤) إغاثة الأمة ص ١١

وثائق ترجع إلى هذا العصر ، يحدثنا عن مجاعات أخرى حدثت فيه . فيذكر أنه فى ولاية عبد الله بن أبى سرح على مصر (٢٥ — ٤٥ ﻫ) حدث غلاء عظيم كان يموت بسببه كل يوم عدد لا يحصى[١] ولكن لا يذكر لنا فى أى سنة كان هذا الغلاء أو المدة التى دام فيها .

وفى عهد أسامة بن زيد عامل خراج الخليفة سليمان بن عبد الملك حدث غلاء عظيم مات بسببه خلق كثير[٢] كذلك حدث غلاء عظيم لنقص مياه النيل فى أول سنة من ولاية القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب خراج مصر[٣] كذلك حدثت مجاعة فى خلافة المأمون قبيل ثورة البشموريين التى أخضعها الخليفة[٤] .

ونلاحظ أن المجاعات التى حدثت فى مصر منذ العصور القديمة يرجع معظمها إلى نقص مياه النيل نقصاً يضر بالزراعة أو زيادته زيادة تضربها ، ولما كانت ثروة مصر الرئيسية تتوقف على الزراعة كان يترتب على الإضرار بالزراعة غلاء ومجاعات .

ويذكر المقريزى[٥] أن الغلاء إنما يحدث من آفات سماوية فى غالب الأمر كقصور جرى النيل بمصر وعدم نزول المطر بالشام والعراق والحجاز وغيره ، أو آفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تهيفها أو جراد يأكلها ، وما شابه ذلك . ولا بد أن المجاعات والأوبئة التى حدثت فى مصر ، والثورات القبطية ، والغزوات الأجنبية ، والحروب الأهلية ، والفتن

---

(١) سير الآباء البطاركة (Patr. Orient t. I. p. 237)

(٢) Part Orient. t. 5. p. 67.

(٣) Patr. Orient. t. 5. p. 97.

(٤) Patr. Orient. t. X p. 486.

(٥) إغاثة الأمة ص ٤

الداخلية والمحن الدينية ، لا بد أن كل هذا أثر فى رخائها وثروتها ، إلا أنه لم يؤثر فيها تأثيراً بليغاً كما كنا ننتظر فى قطر آخر ، وذلك لأن هذه الظروف كانت متقطعة ومتفرقة ، فضلا عن خصوبة أرض مصر المدهشة(١)

وقد كانت هجرة القبائل العربية إلى مصر ، ثم اختلاط العرب بأهل وادى النيل ، ثم تحول الحكم فى العالم الإسلامى إلى ملك استبدادى يعتمد على الفرس ثم الأتراك ، كان كل ذلك مؤديا إلى ضياع هيبة العرب الحاكمين وإلى اندماجهم فى سلك المحكومين وتغير المركز الذى كان يريده لهم الخليفة عمر بن الخطاب . فالفكرة الأساسية الأولى فى حكومة الأمبراطورية العربية كانت تنطوى على أن تكون الدولة العربية حربية تديرها الارستقراطية العربية وتقوم بأودها الشعوب المحكومة من أهل الذمة الذين يحميهم العرب والذين يقومون فى مقابل ذلك بالعمل وتوفير أسباب العيش والراحة للارستقراطية العربية . فهو شبيه من بعض الوجوه بنظام الحماية فى العصر الحديث . ولكن هذه الفكرة لم تتحقق طويلا للأسباب السابقة ، ونظراً لأن الدين الإسلامى نفسه ذو طابع دولى فكان من السهل بمرور الزمن أن يمتزج المسلمون الجدد بالمسلمين من السلالة العربية . وعندما قضى نهائياً على مقاومة القبط فى بداية القرن الثالث الهجرى — ذلك القرن الذى شهد أيضاً انحدار العنصر العربى وفقده امتيازاته اللهم إلا من الناحية اللغوية والدينية — كان من السهل أن تتم فيه حركة الاندماج بين العرب والمصريين .

وظاهرة تمصير العرب وتعريب مصر ونشر الإسلام فيها هى أهم الظواهر التاريخية فى مصر الإسلامية . واستمرت تلك الظاهرة بعض الشىء إلى عصر المماليك . ونلاحظ أن تعريب مصر وانتشار الإسلام فيها ليسا مترادفين

(١) الياس الايوبى : تاريخ مصر الإسلامية حـ ١ ص ١٤٧ — ١٤٨

وقد كان هناك عوامل لها بعض الأثر الضعيف فى تعريب مصر . ومن ذلك تعريب الدواوين الذى حدث نظريا فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ — ٧٠٦ م) ، ولكن وثائق البردى فى مجموعة افروديتو تدل على أن الحكومة فى عصر هذه الوثائق كانت تستخدم العربية واليونانية ، بينما كانت السلطات المحلية فى الريف تكتب كثيراً بالقبطية . وكذلك نجد وثائق ذات لغتين (عربية ويونانية) إلى القرن الثانى الهجرى بل أنه وجد ايصال بدفع الضرائب تاريخه سنة ٢٤٦ هـ عليه كتابة قبطية[١] . ومن العوامل ذات الأثر الضعيف فى التعريب أيضاً اتصال العرب فى العاصمة الجديدة (الفسطاط) بالأهلين واتصال كبار الموظفين العرب وأعوانهم فى الريف بأهله .

على أن أهم عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبى الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا ، مما أدى إلى اختلاطهم بالقبط اختلاطا كبيراً ومن ثم إلى انتشار اللغة العربية فى مصر وإلى تعريب البلاد . فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى واللغة التركية فى العهد العثمانى لغة البلاد الرسمية ، ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصرى ، فكان اليونان ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافى لم يذهب للريف إلا قليلا ، فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا فى بيئات خاصة ، وعاش اليونانيون فى مصر كأنهم جزر يونانية فى وسط المحيط المصرى الواسع . وكذلك عاش الأتراك فى بيئات خاصة فى مصر ولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركى دام عدة قرون . ولكن حدث فى عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين ، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك

---

(١) جروهمان : المحاضرة الرابعة عن الأوراق البردية العربية ص ٨

الفلاح المصرى القديم لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه. أما عن انتشار الإسلام فى مصر فنلاحظ أن بيكر Becker من الكتاب الذين يشيرون إلى أن العامل الأساسى فى انتشار الاسلام بين القبط هو العامل المالى والاجتماعى ، وإن كانت هناك اضطهادات وإرغام على اعتناق الاسلام فقد كانت نادرة[1] .

ولسنا نستطيع أن نخرج بغير هذه النتيجة إذا قرأنا ساويرس أسقف الأشمونين ، وهو الذى لا يشك فى كتاباته فى هذا الصدد ، والذى لم يكن ليغفل تفصيل الكلام على أى اضطهاد يصيب المسيحيين .

على أن القبط الذين ظلوا على دينهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى طوال هذا العصر أمام مطالب الحكومة المالية ، بل قاوموها ، فعند ما زاد عدد القبط الذين دخلوا فى الاسلام وقل تبعاً لذلك دخل البلاد ، زاد العبء على من بقى على دينه من القبط ، وكذلك اشتدت الحكومة فى استعمال الأرض الموات وفى مراقبة الزراعة والهجرة ، فلم يزل القبط يقومون بالثورة بعد الأخرى طوال القرن الثانى الهجرى ، وشملت ثوراتهم الوجهين البحرى والقبلى ، على أن معظم تلك الثورات كانت فى الوجه البحرى . وكانت حكومة العرب من جانبها تقابل القوة بالقوة فلم تتوان عن محاربة الثائرين عليها وإرغامهم على النزول على إرادتها ، وكان آخر هذه الثورات وأعظمها تلك الثورة التى انتهت فى بداية القرن الثالث الهجرى (٢١٧ هـ ، ٨٣٢ م) بمجىء الخليفة المأمون وإخضاعه للثائرين . ومنذ ذلك التاريخ أصبح المسلمون أغلبية فى القطر المصرى .

---

(١) Becker: Islamstudien, 1. p. 254

وانظر أيضاً L. Massignon : Annuaire du Monde Musulman p. 114.

كذلك نلاحظ أن الرهبان كانوا يبغضون الولاة لأنهم كانوا يفلتون فى البداية من دفع الجزية إلى أن بدأ عبد العزيز بن مروان سنة فرض الجزية عليهم . ولعل الولاة كانوا يحاربون الرهبنة لأنها تحرم البلاد من الأيدى العاملة . وهذه العداوة بين الرهبان والولاة تفسر تعصب المؤرخين والكتاب المسيحيين فى ذلك العصر — وجلهم من الرهبان — ضد الاسلام والحكومة الاسلامية .

وقد ظل الاسلام ينتشر فى مصر إلى عصر المماليك . وحدث فى عصر الناصر محمد بن قلاوون منذ سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) أن دخل المسيحيون أفواجا فى الدين الاسلامى على أثر سلسلة من المشاغبات والفتن بين المسلمين والأقباط[١] . والظاهر أن حياد الحكومة نفسها وهدوء موقفها إزاء القبط كل ذلك لم يمنع الشعب نفسه من أن يسىء معاملة القبط فى بعض الأحيان . ونرى أن التضييق على أهل الذمة بالتزام أنواع خاصة من الملابس ، وبتحريم ركوب الخيل أو إنشاء كنائس جديدة ، لم يكن يراعى إلا فترات قصيرة جداً ثم يهمل شأنه ، وربما كان غضب المسلمين بين حين وآخر لاهمال هذه الالتزامات هو الذى كان يدفع الحكومة إلى العمل على تنفيذها فى فترات معينة . والظاهر أن الدواوين كانت غاصة بالموظفين القبط إلى عصر المماليك مما كان سبباً فى قيام عدة ثورات فى هذا العصر (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) أشار إليها القريزى[٢] ، وكان المسلمون يهدفون بها إلى إخراجهم من الدواوين .

وكانت الحكومة نفسها تعمل على حماية أهل الذمة تمسكا بروح الدين

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٩٧ — ٥٠٠ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٥١٢ — ٥١٧

وما يقضى به من التسامح وضمانا لحسن سير الأعمال العامة ، ولكنها كانت تضطر أحيانا إلى التقرب إلى بعض طبقات الشعب بالسكوت على بعض الحركات الاضطهادية ضد المسيحيين أو الاشتراك فيها .

ونلاحظ أن مصر فى فجر الإسلام كانت مركزاً هاما للحركة العلمية الدينية فى الدولة الاسلامية . وكان جامع عمرو بن العاص هو قلب هذه الحركة النابض كما هو الحال بالنسبة للأزهر الشريف الآن . وقد أنجبت مصر منذ أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى علماء أدب ودين ولغة وتاريخ لهم مكانتهم الرفيعة فى التراث العربى . وكان علماء مصر أساتذة لعلماء أفريقية والأندلس بوجه خاص .

وقد رأينا أن الشعور الوطنى بين المصريين كان ضعيفا فى فجر الإسلام فلم يكن فى ثورات القبط ضد حكومة العرب عنصر وطنى ، بل كانت كلها بسبب الضرائب . ولعل ضعف هذا الشعور الوطنى كان أكبر عون للعرب على القضاء على حركات القبط وعلى دفعهم إلى اعتناق الدين الإسلامى وإلى استعمال اللغة العربية .

وقد كانت الحالة فى مصر بعكس إيران مثلا . فلا نعرف فى مصر حركة شعوبية كما كان فى شرق العالم الإسلامى . ففى عهد الدولة العباسية التى قامت على أكتاف الفرس بدأ هؤلاء يتكلمون ويكتبون ويناقشون العرب ويعددون مزايا الفرس . وقد عرفت هذه المناقشات الأدبية بين الشعراء والأدباء من العرب والعجم باسم حركة الشعوبية فكان العجم يقولون بالتسوية بين المسلمين جميعا ولذا عرفوا بالشعوبية أو أهل التسوية ، ولما اشتد الجدال بين العرب والعجم أصبح الشعوبى هو الذى يصغر من شأن العرب ولا يرى

لهم فضلا على العجم[1] وهذه الحركة وإن كانت مناقشات كلامية ومساجلات أدبية بين العرب والعجم ، إلا أنها تعبر عن تمسك الإيرانيين بتراثهم الوطنى وثورتهم على سيادة العرب التى قضت على ملك كسرى وقضت على استقلال الفرس وهم شعب ذو حضارة عتيدة ، كما أنها تشهد بأن الروح الوطنية بين الفرس لم تمت بفتح العرب لبلادهم . وعندما شعر الفرس بقوتهم منذ قيام الدولة العباسية وبضعف العرب قاموا بحركات مختلفة تدعو الناس إلى اتباع نحل غريبة على الدين الإسلامى ، ولم تكن هذه الحركات فى الحقيقة سوى حركات سياسية دينية إيرانية ترمى إلى إقامة دولة فارسية تعود إلى التقاليد القديمة وتتخلص من العرب ولغتهم ودينهم . كذلك نجد أن بعض الأسرات التى قامت فى فارس كانت أسرات فارسية كما كانت الحال فى الدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) والدولة الصفارية بفارس (وهو الإقليم الإيرانى الذى يقع شرق الخليج الفارسى) (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) ودوله بنى ساج فى آذربيجان (٢٦٦ — ٣١٨ هـ) والدولة السامانية فى إقليم ما وراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) .

أما فى مصر فإن الأسرات التى قامت فيها كانت أجنبية عنها مثل الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك . وقد ظل الروح الوطنى قائما فى إيران حتى أمكن قيام شاعر وطنى ، مثل الفردوسى الذى نظم الشاهنامة بالفارسية فى القرن الرابع الهجرى ، بينما فى مصر اضطر رجال الدين الأقباط منذ القرن الرابع الهجرى إلى الكتابة باللغة العربية وإلى مخاطبة أبناء دينهم بها بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم . وكانت

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد — ط . القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ — ج ٢ ص ٨٦ — ٩١

مصر خاضعة خضوعا تاما للخلافة طالما كانت الخلافة قوية الجانب . ولكن بدأ الضعف يدب فى جسم الخلافة العباسية فى أثناء النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون . وما لبث أن وضح ذلك الضعف بعد أن استعان الخليفة المعتصم فى حكم الدولة بالأتراك الذين تحكموا فى شئون الدولة المدنية والحربية ، حتى أصبح بيدهم منذ خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧هـ) انتخاب الخلفاء وعزلهم ، ولذا نجد أن النزعة إلى الاستقلال تظهر فى مصر واضحة جلية فى أثناء النزاع بين الأمين والمأمون ، وكان يمثل هذه النزعة السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى وأولادهما ، بل إن السرى وأولاده استطاعوا الاستقلال عن الخلافة وحكموا الفسطاط عاصمة مصر أكثر من عشر سنين ، إلى أن نجح المأمون فى إعادة مصر إلى حوزة الخلافة ثانية فى سنة ٢١٢ هـ .

على أن أحمد بن طولون الذى قدم إلى مصر فى سنه ٢٥٤ هـ واليا على الصلاة من قبل باكباك صاحب إقطاعها ، وجد مصر ولاية إسلامية تامة التكوين ، ووجد الخلافة ضعيفة ، ولا سيما بسبب ثورة الزنج ، فسرعان ما تحدى سلطة الخلافة واستقل بمصر استقلالا فعليا فى الواقع واسميا فى الظاهر ، بل إنه نجح فى ضم سوريه إلى مصر وفى تأسيس دولة طولونية دامت نحو ٣٨ عاما ، وكانت هذه أول مرة تستقل فيها مصر الإسلامية .

المراجع

١ — المصادر القديمة

١ — ابن الأثير (المتوفى ٦٣٠ هـ و ١٢٣٢ م) : « الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءاً . ليدن ١٨٦٦ — ١٨٧٤ م .

٢ — — — : « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ٥ أجزاء . القاهرة ١٢٨٥ — ١٢٨٦ هـ .

٣ — الأزرقى (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م أو ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م أو ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م) :

« أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » جزءان . الطبعة الماجدية بمكة المكرمة . ١٣٥٢ : ١٣٥٧ م .

٤ — ابن أبى أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ — ١٢٧٠ م) :

« طبقات الأطباء » جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

٥ — البلاذرى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢ — ٨٩٣ م) : « كتاب فتوح البلدان » ليدن ١٨٦٦ م .

٦ — بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) : « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » الجزء الرابع مخطوط رقم ٢٤٠٢٧ بمكتبة جامعة فؤاد الأول .

٧ — حاجى خليفة (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) : « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » ٧ أجزاء . ليبزج — ليدن ١٨٣٥ — ١٨٥٨م

٨ — ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨ — ١٤٤٩م) : « الاصابة فى تمييز الصحابة » ٨ أجزاء . القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ .

٩ — حنا النقيوسى (ت أواخر القرن الأول الهجرى/السابع الميلادى) :
« تاريخ »

Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte Ethiopien publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques. t. 24. Paris 1883).

١٠ — ابن خرداذبه (ت حوالى ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) : « كتاب المسالك والممالك » (المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية) . ليدن ١٨٨٩ م .

١١ — ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ /١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء . القاهرة ١٢٨٤ هـ .

١٢ — ——— : « المقدمة » . القاهرة ١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م .

١٣ — ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/١٢٨١ م) : « وفيات الأعيان » جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

١٤ — ابن الداية (ت ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م أو ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م أو ٣٤٠ هـ / ٩٥١) : « سيرة أحمد بن طولون » . برلين ١٨٩٤ م .

١٥ — الشريف الأدريسى (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ — ١١٦٥ م) : « صفة المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الافاق » . ليدن ١٨٦٤ — ١٨٦٦ م .

١٦ — ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) : « كتاب الانتصار لواسطة عقد الامصار » الجزء الرابع والخامس . بولاق ١٣٠٩ هـ .

١٧ — الدينورى (ت ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م أو ٢٩٠ هـ / ٩٠٣) : « الإخبار

الطوال » . القاهرة ١٣٣٠ هـ .

١٨ — ابن رسته : « الاعلاق النفيسة » (الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) . ليدن ١٨٩١ — ١٨٩٢ م .

١٩ — ساويرس بن المقفع (ت أواخر القرن ٤ هـ / أواخر القرن ١٠م) : سير الآباء البطاركة (الجزء الأول والخامس والعاشر من مجموعة Patrolgia orientalis . باريس ١٩٠٧ و١٩١٠ و١٩١٥ .

٢٠ — ابن سعد كاتب الواقدى (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م) : « الطبقات الكبير » ٨ أجزاء . ليدن ١٩٠٥ — ١٩٣١ م .

٢١ — سعيد بن بطريق : المعروف باسم اوتيخا (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م) « كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » جزءان . بيروت ١٩٠٥ و ١٩٠٩ م .

٢٢ — السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) « تاريخ الخلفاء » : القاهرة ١٣٥١ هـ .

٢٣ — ———: حسن المحاضرة : جزءان . القاهرة ١٣٢٧ هـ .

٢٤ — ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) : « فوات الوفيات » جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

٢٥ — أبو صالح الأرمنى : «تاريخ» المعروف بكنائس وأديرة مصر . طبعة Evetts . اكسفورد ١٨٩٥ م .

٢٦ — الاصطخرى « كتاب مسالك الممالك» : (الجزء الأول من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٩٢٧م .

٢٧ — ابن طباطبا المعروف بابن الطقطق : « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » الطبعة الثانية — مطبعة المعارف بمصر .

٢٨ — الطبرى (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) : « تاريخ الأمم والملوك » ١١ جزءاً — الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية .

٢٩ — ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ — ٨٧١ م) : « فتوح مصر وأخبارها » طبعة تورى Torrey . نيوهافن ١٩٢٢م وطبعة هنرى ماسيه Henri Massé. المعهد العلمى الفرنسى . القاهرة ١٩١٤ م

٣٠ — ابن العميد المعروف بالمكين (ت ٦٧٢ هـ/١٢٧٣ — ١٢٨٤ م) : « تاريخ المسلمين » ليدن ١٦٢٥ م .

٣١ — أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ — ١٣٣٢ م) : « المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء . الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية ١٣٢٥هـ

٣٢ — ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦ — ١٣٩٧م) : « كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب » القاهرة ١٣٢٩ هـ .

٣٣ — ابن الفقيه (ت أواخر القرن ٣ هـ / أوائل ١٠ م) : « مختصر كتاب البلدان » (الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٨٥ م .

٣٤ — ابن قتيبة (ت ٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م أو ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) : « كتاب الامامة والسياسة . جزءان . القاهرة ١٣٢٥ هـ .

٣٥ — قدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م أو ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م أو ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ — ٩٤٩ م) : « نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة » (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٨٩ م

٣٦ — القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) : « صبح الأعشى فى صناعة الانشا» — ١٤ جزءاً . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩م

٣٧ — الكندى (ت ٣٥٠ هـ/٩٦١م) : « كتاب الولاة وكتاب القضاة» بيروت ١٩٠٨ م (Gibb Memorial Series.)

٣٨ — الماوردى (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) : « الأحكام السلطانية » القاهرة ١٢٩٨ هـ .

٣٩ — أبو المحاسن ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ — ١٤٧٠) : « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الجزء الأول والثانى . طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م ، ١٩٣٠ م .

٤٠ — المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ليدن ١٨٧٧ م .

٤١ — المسعودى (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م) : «مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ » جزءان — طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ٨ أجزاء طبعة Barbier de Meynard. — باريس ١٨٦١ — ١٨٧٤ م .

٤٢ — ———: «التنبيه والإشراف» (الجزء الثامن من المكتبة الجغرافية) ليدن ١٨٩٣ — ١٨٩٤ م .

٤٣ — المقريزى (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ — ١٤٤٢ م) : « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » . جزءان . بولاق ١٢٧٠ هـ .

٤٤ — ———: « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » القاهرة ١٣٥٦ .

٤٥ — ——— : « شذور العقود فى ذكر النقود القديمة والإسلامية » المعروف باسم النقود الإسلامية . القسطنطينية ١٢٩٨ هـ .

٤٦ — ———: « إغاثة الأمة بكشف الغمة » طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة والأستاذ الشيّال .القاهرة ١٩٤٠ م .

٤٧ — ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م) : «الفهرست» . ليبزج ١٨٧١ م .

٤٨ — النويرى (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ — ١٣٣٢ م) : « نهاية الارب فى فنون الأدب » ١٣ جزءا — طبعة دار الكتب المصرية والباقى

مخطوط بدار الكتب المصرية . الجزء الأول طبعة دار الكتب الثانية ١٩٢٩ م — والجزء ٢٩ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٤ « معارف عامة » .

٤٩ — ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م) : « معجم البلدان » ٦ أجزاء . ليبزج ١٨٦٦ — ١٨٧٣ م .

٥٠ — يحيي بن آدم القرشى : « كتاب الخراج » ليدن ١٨٩٥ — ١٨٩٦ .

٥١ — اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) : « كتاب البلدان » (الجزء السابع من مجموعة المكتبة الجغرافية) ليدن سنة ١٧٩٢ .

٥٢ — ——— : « تاريخ » . جزءان . طبعة هوتسما Houtsma . ليدن ١٨٨٣

٥٣ — أبو يوسف صاحب أبى حنيفة (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) : « كتاب الخراج » . بولاق ١٣٠٢ هـ .

٥٤ — Becker (C. H. : Neue Arabische Papyri des Aphroditofundes (Der Islam. II. Strassburg 1911).

٥٥ — Bell : H. I. Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum (Der Islam. Band II, III, IV, XVII. 1911, 1912, 1913, 1928).

٥٦ — van Berchem Max : Matériaux pour un Corpus inscriptionum Arabicarum,

a) L'Egypte (Mémoires publiés par les membres de l'Institut Français du Caire — 1894).

b) Jérusalem Ville (Mémoires..... 1920 — 1922).

٥٧ — Combe, Et. J. Sauvaget, G. Wiet : Répertoire Chronologique d'epigraphie Arabe. t. I, II. Le Caire 1931.

٥٨ — Crum : W. E, Coptic Ostraca. London 1902.

٥٩ — Grohmann Adolf : Arabic Papyri in the Egyptian Library vols. I, II, III,. Cairo 1934, 1936, 1938.
الجزء الأول نقله المؤلف إلى العربية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن بعنوان : « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » القاهرة ١٩٣٤ م .

٢ — المصادر الحديثة

ا — المصادر العربية

٦٠ — الأستاذ أحمد أمين بك : فجر الإسلام ج ١ — القاهرة ١٩٢٨ م

٦١ — ——— : ضحى الاسلام ج ٣ — القاهرة ١٩٣٦ م .

٦٢ — أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة . القاهرة ١٣٥١ هـ .

٦٣ — أحمد تيمور باشا : التصوير عند العرب ، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن — القاهرة ١٩٤٢ .

٦٤ — أحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر — ج ١ — القاهرة ١٩٣٥ م .

٦٥ — ادولف جروهمان : أربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية تعريب الأستاذ توفيق أسكاروس — دار الكتب المصرية — القاهرة ١٩٣٠ م .

٦٦ — الياس بك الأيوبى : تاريخ مصر الاسلامية — ج١ — القاهرة ١٩٣٢

٦٧ — الأستاذ أمين الخولى : مصر فى تاريخ البلاغة (مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، المجلد الثانى ، الجزء الأول القاهرة — مايو ١٩٣٤ م.

٦٨ — الأب انستاس الكرملى : النقود العربية وعلم النميات . القاهرة ١٩٣٩ م

٦٩ — الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص . القاهرة ١٩٢٦

٧٠ — ——— : تاريخ الإسلام السياسى . ج ١ — القاهرة ١٩٣٥ م .

٧١ — الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر . ج ١ — القاهرة ١٩٣٥ م .

٧٢ — ——— : كنوز الفاطميين — القاهرة ١٩٣٧ م

٧٣ — ——— : فى مصر الإسلامية مع البكباشى عبد الرحمن زكى وآخرين القاهرة ١٩٣٣ م

٧٤ — ——— : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى . القاهرة ١٩٣٩ م .

٧٥ — ——— : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الإسلامية (فى مجلة جمعية الآثار القبطية) القاهرة سنة ١٩٣٧ .

٧٦ — ——— : مصر والحضارة الاسلامية — القاهرة ١٩٤٢ م

٧٧ — ——— : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥ .

٧٨ — الدكتور سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى (المجمع المصرى للثقافة العلمية . الكتاب السنوى الثالث عشر) . القاهرة ١٩٤٢ م .

٧٩ — الدكتور عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصاد السياسى . الجزء الأول — القاهرة ١٩٣٦ م .

٨٠ — على بك بهجت : حفريات الفسطاط . القاهرة ١٩٢٨ م .

٨١ — الأستاذ محمد كامل حسين : فى الأدب المصرى الاسلامى من الفتح الاسلامى إلى دخول الفاطميين . القاهرة ١٩٣٩ م .
٨٢ — الدكتور محمد كامل مرسى بك : الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن — القاهرة ١٩٣٦ م .
٨٣ — للدكتور محمد سامى جنينه : القانون الدولى العام . القاهرة ١٩٣٣م
٨٤ — يوسف اليان سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة . القاهرة ١٩٢٨ — ١٩٣٠ م .

ب — المصادر الإفرنجية

٨٥ — Ali Bey Bahgat : Les Manufactures d'Etoffe en Egypte au Moyen Age, (Bulletin de l'Institut Egyptien. Quatrième Série — 6 Avril 1903 — Le Caire 1903).
٨٦ — Amélineau E. : Etude sur le Christianisme en Egypte au Septième siecle. Paris 1887.
٨٧ — Arnold Th.: The Preaching of Islam. London 1935.
٨٨ — Becker C. H.: The Expansion of the Saracens (The Cambridge Medieval History, vol. 11 Cambridge 1913.
٨٩ — ——: Art. Egypt (The Encyclopaedia of Islam vol. 11. Leyden — London 1927).
٩٠ — ——: Art. Cairo (The Encyclopaedia of Islam vol. 1, Leyden — London 1913)

٩١ — ——— : Historische Studien über das Londoner Aphroditowerk. (Der Islam Band 11. 1911).

٩٢ — ——— : Islamstudien. Leipzig 1924.

٩٣ — Van Berchem, Max, La Proprieté territoriale et l'impôt foncier sous les Premiers Califes. Genève 1886.

٩٤ — ——— : Une Page Nouvelle de l'histoire d'Egypte (Journal Asiatique. Dixième série — Tome IX Paris. Janvier Février 1907).

٩٥ — Brockelmann, Çarl : Geschichte der Arabischer Litteratur, 2 vols. Weimar, Berlin 1898 — 1902, 2 Suplementband — Leiden 1937 — 1038.

٩٦ — Butcher Mrs. E. L. : The Story of the Church of Egypt. 2 vols. London 1897.

تعريب أسكندر تادرس بعنوان « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها »
في ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٠٠، ١٩٠١ ، ١٩٠٦ م

٩٧ — Butler Alfred J. : The Arab Conquest of Egypt. Oxford 1902.

تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك بعنوان «فتح العرب لمصر»
القاهرة ١٩٣٣ م

٩٨ — ——— : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols. Oxford 1884.

٩٩ — ——— : The Treaty of Misr in Tabari. Oxford 1913.

١٠٠ — —— : Islamic Pottery. London 1929.

١٠١ — Caetani, Leone . Annalı dell' Islam. vols. IV, V. Milano 1911, 1912.

١٠٢ — Creswell (K. A. C.) . Coptic Influences on-Early Muslim Architecture (Extrait - Bulletin de la Société d'Archéologie Copte. Tome V 1039. Le Caire).

١٠٣ — De Castries Henri : L'Islam, Impression et Etudes. Paris 1896.

تعريب احمد فتحى زغلول باشا بعنوان «الإسلام . خواطر وسوانح»

مطبعة السعادة بالقاهرة

١٠٤ — De Sacy Silvestre . Recherches sur la nature et les Révolutions du droit de propriété territoriale en Egypte (Bibliothèque des Arabisants Français, t. II (Institut Français d'Archéologie Orientale, le Caire 1923.)

١٠٥ — —— : Traité des monnaies Musulmanes. Le Caire 1905.

١٠٦ — Devonshire Mme R. L. : L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926.

١٠٧ — Dozy . Histoire des Musulmans d'Espagne. 3 tomes. Leyde 1932.

١٠٨ — —— : Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols (Leyden 1881).

١٠٩ — —— . Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes. Amsterdam 1845.

Georgy Sobhy Bey: The Survival of Ancient Egypt. — ١١٠
(Extrait du Bulletin de la Société d'Archéologie Copte. T. IV. Le Caire 1938)

Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen — ١١١
Age. 2 vols. Leipkig 1885-1886.

Johnson Allan Chester : An Economic Survey of — ١١٢
Ancient Rome vol. II Roman Egypt Baltimore. 1936.

Jouguet Pierre : L'Egypte Gréco Romaine (Précis — ١١٣
de l'histoire d'Egypte. t. 1).

Kammerer Albert : La Mer Rouge. Tome Premier. — ١١٤
Le Caire 1929.

Lamm Carl Johan : Cotton in Mediaeval Textiles — ١١٥
of the Near East. Paris 1937

Lammens : Un gouverneur Omaiyade d'Egypte; — ١١٦
Qorra ibn Sarik d'après les papyrus Arabes (Bulletin de l'Institut Egyptien. 5e. Série. Tome 11. Le Caire Décembre 1908).

Lane-Poole Stanley . A History of Egypt in the — ١١٧
Midlle Ages. London 1925.

Macmichael: A History of the Arabs in the Sudan. — ١١٨
2 vols. Cambridge 1922.

Marcel : Egypte, dépuis la conquête des Arabes — ١١٩
jusqu'à la domination Française. Paris 1848.

Massignon : Annuaire du Monde Musulman. — ١٢٠
Paris 1925.

١٢١ — Mez Adam : Die Renaissance des Islams. Heide-lberg 1922.

نقله إلى العربية فى جزئين الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة
بعنوان «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»
القاهرة ١٩٤٠ م

١٢٢ — Milne' J Grafton · A History of Egypt Under Roman Rule. London 1924.

١٢٣ — Mohammed Ben Cheneb · Classes Des Savants de l'Ifriqiya, Alger 1920.

١٢٤ — Munier Henri : L'Egypte Byzantine (Précis de l'hist. d'Egypte t. 11. 1932).

١٢٥ — Le Prince Omar Tousson : La Géographie de l'Egypte à l'Epoque Arabe. Tome Premier - Le Caire 1926.

١٢٦ — Pedersen : Art. Masdjid (The Encyclopaedia of Islam vol. 111. Leiden. London 1936).

١٢٧ — Quatremère Et. : Mémoires Géographiques et Historiques 2 tomes. Paris 1811.

١٢٨ — ——. Recherches Citiques et Historiques sur la Langue et la Littérature de l'Egypte. Paris 1808.

١٢٩ — Sauvaire M.H. : Materiaux pour servir a l'histoire de la Numismatique et de la Metrologie Musulmanes (Extrait du Journal Asiatique, 7eme Série t, XIV. XV, XVIII, XIX. Paris 1879).

١٣٠ — Wiet Gaston : L'Egypte Musulmane (Précis de l'histoire d'Egypte t. 11).

١٣١ — ——— : L'Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne. t. IV).

١٣٢ — ——— : Les Communications en Egypte au Moyen Age.

نقلها إلى العربية محمد وهبي بعنوان « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » ونشرت فى كتاب « فى مصر الإسلامية » ، أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والبكباشى عبد الرحمن زكى

١٣٣ — Zaky Mohamed Hassan : Les Tulunides. Paris 1933.

جـــــدول

بأسماء الولاة وعمال الخراج وأصحاب الشرطة

والقضاة والبطاركة فى عهد الولاة

جدول بأسماء الولاة وعمال الخراج وأصحاب

السنون	الخلفاء	الولاة	عمال الخراج
٢٠هـ/٦٤١م	عمر بن الخطاب	عمرو بن العاص	
٢٣/٦٤٤			
	عثمان بن عفان		
٢٤/٦٤٥		عبد الله بن سعد	
٣٥/٦٥٥ — ٥٦	على بن أبي طالب	انتزاه محمد بن أبي حذيفة (١)	
٣٧/٦٥٧		قيس بن سعد	
		الأشتر مالك	
		محمد بن أبي بكر	
٣٨/٦٥٨		عمرو بن العاص (٢)	
٤٠/٦٦٠	معاوية		
٤٢/٦٦١		عتبة بن أبي سفيان	وردان
٤٣/٦٦٣			
٤٤/٦٦٤		عقبة بن عامر	
٤٧/٦٦٧		مسلمة بن مخلد	
٤٩/٦٦٩			
٥٣/٦٣٧			
٥٧/٦٧٧			
٥٩/٦٧٩			
٦٠/٦٨٠	يزيد الأول		
٦٢/٦٨٢		سعيد بن يزيد	
٦٤/٦٨٤	(عبد الله بن الزبير) مروان الأول	عبد الرحمن بن عقبة	
٦٥/٦٨٥		عبد العزيز بن مروان	
	عبد الملك بن مروان		

(*) اعتمدنا على جدول الأستاذ فييت فى هذا الصدد وذكرنا فى شانة

الشرطة والقضاة والبطاركة فى عهد الولاة(*)

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركة	ملاحظات
خارجة بن حذافة		بنيامين	
	قيس بن أبي العاص		
	كعب بن يسار ،		
	عثمان بن قيس		
هشام بن كنانة			
			(ا) لم يذكر الأستاذ فييت انتزاء محمد بن أبي حذيفة
سائب بن هشام			
عبد الله بن أبي حرملة			
خارجة بن حذافة (٢)			
زكريا بن جهم	سليم بن عتر		(ب) ذكر الأستاذ فييت فى جداوله أن أغاتون ولى البطركية فى سنة ٣٩/٦٥٨ ولكنى أعتمدت فيما أوردته على ما جاء فى كتاب سير الآباء البطاركة لساويرس
		أغاتون (ب)	
سائب بن هشام (٢)			
عابس بن سعيد			
سائب بن هشام (٣)			
عابس بن سعيد (٢)			
		يوحنا الثالث (حـ)	(حـ) ذكر الأستاذ فييت أن يوحنا الثالث ولى البطركية سنة ٦٠/٦٨٠ ولكنى اعتمدت على ساويرس
	عابس بن سعيد		

(*) الملاحظات أوجه الخلاف بين ما وصل إليه وما استنبطناه من المراجع القديمة

السنون	الخلفاء	الولاة	عمال الخراج
٦٧ /٦٨٦			
٦٨ /٦٨٧ — ٨٨			
٦٩ /٦٨٨			
٧٠ /٦٨٩			
٧٦ /٦٩٥			
٨٣ /٧٠٢			
٨٤ /٧٠٣			
٨٦ /٧٠٥			
		عبد الله بن عبد الملك	
	الوليد بن عبد الملك		
٨٩ /٧٠٨			
٩٠ /٧٠٩		قرة بن شريك	
٩١ /٧١٠			
٩٣ /٧١٢			
٩٦ /٧١٥		عبد الملك بن رفاعة	أسامة بن زيد
	سليمان بن عبد الملك		
٩٧ /٧١٦			
٩٨ /٧١٧			
٩٩ /٧١٨	عمر بن عبد العزيز	أيوب بن شرحبيل	حيان بن سريج
١٠٠/٧١٨ — ١٩			
١٠١/٧١٩ — ٢٠	يزيد بن عبد الملك		
		بشر بن صفوان	
١٠٢/٧٢٠ — ٢١		حنظلة بن صفوان	
١٠٥/٧٢٣	هشام بن عبد الملك		
		محمد بن عبد الملك	عبيد الله بن الحبحاب
		الحر بن يوسف	
١٠٨/٧٢٦		حفص بن الوليد	
١٠٩/٧٢٧		عبد الملك بن رفاعة ٢	
		الوليد بن رفاعة	

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركة	ملاحظات
		اسحاق (ا)	(ا) ذكر الأستاذفييت أن اسحق ولى البطركية سنة ٧٠/٦٩٠
زياد بن حناطة	بشير بن النضر		
	عبد الرحمن بن حجيرة		
		سيمون(ب)الاول(ظل حتى سنة ٨٢/٨٠١)	(ب) ذكر فييت أن سيمون ولى سنة ٧٣/٦٩٣.
عبد الرحمن بن حسان			
	مالك بن شراحيل		
يوس بن عطية	يونس بن عطية		
عبد الرحمن بن معاوية	أوس بن عبد الله	الاكسندروس الثانى	
	عبد الرحمن بن معاوية		
عمران بن عبد الرحمن			
	عمران بن عبد الرحمن		
عبد الأعلى بن خالد	عبد الواحد بن عبد الرحمن		
	عبد الله بن عبد الرحمن		
عبد الملك بن رفاعة			
عبد الرحمن بن معاوية			
	عياض بن عبد الله		
الوليد بن رفاعة			
الشيخ بن جرو الحضرمى	عبدالله بن عبدالرحمن ٢		
	عياض بن عبيد الله ٢		
الحسن بن يزيد الرعينى			
الحارث بن داخر			
	عبد الله بن يزيد		
شعيب بن حميد			
حنظلة بن صفوان			
محمد بن مطير البلوى			
حفص بن الوليد	يحى بن ميمون		
عبد الله بن أبى سمير			

السنوت	الخلفاء	الولاة	عمال الخراج
٧٢٩/١١١			
٧٣٠/١١٢			
٧٣١/١١٣			
٧٣٢/١١٤			
٧٣٣/١١٥			
٧٣٤/١١٦			قاسم بن عبيد الله
٧٣٥/١١٧		عبد الرحمن بن خالد	
٧٣٧/١١٩		حنطلة بن صفوان ٢	
٧٣٨/١٢٠			
٧٤٠/١٢٢			
٧٤٢/١٢٤			
٧٤٣/١٢٥		حفص بن الوليد ٢	
			عيسى بن أبي عطا
٧٤٤/١٢٦	يزيد بن الوليد		
	ابراهيم بن الوليد		
٧٤٥/١٢٧	مروان بن محمد	حسان بن عتاهيه	
		حفص بن الوليد ٣	
٧٤٦/١٢٨		الحوثرة بن سهيل	
٧٤٩/١٣١		المغيرة بن عبيد الله	عبدالملك بن مروان
٧٥٠/١٣٢		عبد الملك بن مروان	
٧٥١/١٣٣	السفاح	صالح بن على	
		أبو عون عبد الملك	
٥٣—٧٥٢/١٣٥			
			عطا بن شرحبيل
٧٥٣/١٣٦		صالح بن على (٢)	
	المنصور		
٧٥٤/١٣٧		أبو عون (٢)	

أصحاب الشرطة	القضـاة	البطاركة	ملاحظات
عبد الرحمن بن خالد			
	يزيد بن عبد الله (الخيار بن خالد) توبة بن نمر الحضرمى	قسما الأول تاودوروس (ولى البطركية حتى سنة ١٢٦/٧٤٣)	
عبد الله بن يسار عياض بن جريبة			
	خير بن نعيم		
قيس بن أشعث عقبة بن نعيم			
		ميخائيل الأول	
حسان بن عتاهية عبد الله بن مغيرة معاوية بن صهوان محصن بن هانىء عبدالله بن عبد الرحمن عكرمة بن عبد الله	عبد الرحمن بن سالم خير بن نعيم (٢) غوث بن سليمان		

السنون	الخلفاء	الولاة	عمال الخراج
٧٥٧/١٤٠			
٧٥٨/١٤١		موسى بن كعب	
			نوفل بن فرات
		محمد بن الأشعث	
٧٦٠/١٤٣		حميد بن قحطبة	
٧٦١/١٤٤			
		يزيد بن حاتم	معاوية بن صهوان
٧٦٧/١٥٠			
٧٦٩/١٥٢		عبد الله بن عبد الرحمن	محمد بن سعيد
٧٧٢/١٥٥			
		محمد بن عبد الرحمن	
		موسى بن علي	محمد بن سليمان
٧٧٥/١٥٨	المهدي		
٧٧٦/١٥٩			
٧٧٨/١٦١			سلامة بن رجاء
		عيسى بن لقمان	
٧٧٩/١٦٢		واضح مولى أبي جعفر	
		منصور بن يزيد	
		يحيى بن داود	
٧٨١/١٦٤		سالم بن سواده	اسماعيل بن إبراهيم

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركه	ملاحظات
	أبو خزيمة إبراهيم		
	يزيد بن عبد الله		
	غوث بن سليمان (٢)		
محمد بن معاوية			
عبد الله بن عبد الرحمن (٢)			
	أبو خزيمة إبراهيم		
		مينا (ولى حتى سنة ٧٧٤/١٥٨) .	
	عبد الله بن لهيعة		
عباس بن عبد الرحمن			
محمد بن حسان			
		يوحنا الرابع	
الحارث بن الحارث			
موسى بن زريق			
هاشم بن عبد الله			
عبد الأعلى بن سعيد			
عسامة بن عمرو			
الأخضر بن مروان			
	إسماعيل بن اليسع		

السنون	الخلفاء	الولاة	عمال الخراج
٧٨٢/١٦٥		ابراهيم بن صالح	
٧٨٤ـ٧٨٣/١٦٧			
		موسى بن مصعب	
٨٥ — ٧٨٤/١٦٨			
		عسامة بن عمرو	
٨٦ — ٧٨٥/١٦٩		الفضل بن صالح	
	الهادى		
		على بن سليمان	
٧٨٦/١٧٠			
	هرون الرشيد		
٧٨٧/١٧١		موسى بن عيسى	
٧٨٨/١٧٢		مسلمة بن يحيي	
٧٨٩/١٧٣		محمد بن زهير	عمر بن غيلان
٧٩٠/١٧٤		داوود بن يزيد	
٧٩١/١٧٥		موسى بن عيسى (٢)	
٧٩٢/١٧٦		عمر بن مهران (١)	
		ابراهيم بن صالح (٢)	نصر بن كلثوم
			روح بن روح
		عبد الله بن المسيب	
٧٩٣/١٧٧			
		إسحاق بن سليمان	
٧٩٤/١٧٨		هرثمة بن أعين	
		عبد الملك ابن صالح	
٧٩٥/١٧٩		عبيد الله بن المهدى	
		موسى بن عيسى (٣)	
٧٩٦/١٨٠		عبيد الله بن المهدى(٢)	
٧٩٧/١٨١		اسماعيل بن صالح	

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركة	ملاحظات
عسامة بن عمرو (٢)			
	غوث بن سليمان (٣)		
	المفضل بن فضالة		
عسامة بن عمرو (٣)			
عبد الرحمن بن موسى			
	عبد الملك بن محمد		
اسماعيل بن عيسى			
عسامة بن عمرو (٤)			
عبد الرحمن بن مسلمة			
جنك ابن العلاء			
عمار بن مسلم			
حبيب بن إبان			
عمار بن مسلم (٢)			(١) لم يرد ذكر لعمر بن مهران فى جداول الأستاذ فيت ولا فى الكندى ، ولكن أوراق البردى دلت على توليته مصر فى سنة ١٧٦ هـ (انظر . جروهمان : المحاضرة الثالثة فى أوراق البردى العربية ص ٩ — ١٠)
	المفضل بن فضالة (٢)		
عبد الرحمن بن موسى ٢			
خالد بن يزيد الامكيس			
	محمد بن مسروق الكندى		
مسلم بن بكار			
حاتم بن هرثمة			
عمار بن مسلم (٣)			
معاوية بن صرد			
عمار بن مسلم (٤)			
سليمان بن الصمة			
يزيد بن عبد العزيز			

السنوت	الخلفاء	الولاة	عمال الخراج
٧٩٨/١٨٢		اسماعيل بن عيسى	
		الليث بن الفضل	
٧٩٩/١٨٣			
٨٠٠/١٨٤			
٨٠١/١٨٥			
٨٠٣/١٨٧		أحمد بن إسماعيل	محفوظ بن سليمان
٨٠٥/١٨٩		عبد الله بن محمد	
٨٠٦/١٩٠		الحسين بن جميل	
٨٠٧/١٩١		» » »	
٨٠٨/١٩٢		مالك بن دلهم	
٨٠٩/١٩٣		الحسن بن التخاخ	
	الأمين		
٨١٠/١٩٤		حاتم بن هرثمة	
٨١١/١٩٥		جابر بن الأشعث	
٨١٢/١٩٦			
	المأمون	عباد بن محمد	
٨١٥/١٩٨		المطلب بن عبد الله	

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركة	ملاحظات
المصك بن مسكين			
عبد الوهاب بن موسى			
على بن الفصل			
		مرقس الثالث	
	إسحاق بن الفرات		
	عبد الرحمن العمرى		
معاوية بن صرد (٢)			
أحمد بن حوى			
محمد بن عسامة			
كامل الهنائى			
معاوية بن صرد (٣)			
محمد بن يزيد			
محمد بن خالد			
صالح بن عبد الكريم			
سليمان بن عالب (٢)			
	هاشم بن أبى بكر		
ابن حاتم بن هرثمة			
على بن المثنى			
عبيد الله الطرسوسى			
عبد الله بن ابراهيم			
سليمان بن غالب (٢)			
	ابراهيم بن البكاء		
هبيرة بن هاشم	لهيعة بن عيسى		
	الفضل بن غانم		
محمد بن عسامة (٢)			
عبد العزيز بن وزير			

السنون	الخلفاء	الولاة	عمال الخراج
		العباس بن موسى	
٨١٥/١٩٩		المطلب بن عبد الله(٢)	
٨١٦/٢٠٠		السرى بن الحكم	
٨١٧/٨١٦/٢٠١		سليمان بن غالب	
		السرى بن الحكم (٢)	
٨١٩/٢٠٤			
٨٢٠/٢٠٥			
		أبو نصر بن السرى	
٨٢١/٢٠٦		عبيد الله بن السرى	
٨٢٦/٢١١		عبد الله بن طاهر	

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركة	ملاحظات
إبراهيم بن عبد السلام			
هبيرة بن هاشم (٢)			
محمد بن عسامة (٣)			
عبد العزيز بن وزير			
أحمد بن حوى (٢)	لهيعة بن عيسى ٢		
هبيرة بن هاشم (٣)			
محمد بن عسامة (٤)			
أبو بكر بن جناده			
عباس بن لهيعة			
محمد بن عسامة (٥)			
الحارث بن زرعة			
ميمون بن السرى			
أبو بكر بن جناده ٢			
حماد بن المخارق			
اسماعيل بن الحكم			
صالح بن الحكم			
داود بن الحكم			
	إبراهيم بن إسحاق	أنبا يعقوب	
	إبراهيم بن الجراح		
محمد بن قشاشى			
عبيد الله بن السرى			
محمد بن عتبة			
معاذ بن عزيز			
عبدويه بن جبله			

السنون	الخلفاء	الولاة	عمـال الخراج
٨٢٧/٢١٢			
		عبد الله بن طاهر	
		عيسى بن يزيد	
٨٢٨/٢١٣		المعتصم	صالح بن شيرزاد
		عيسى بن يزيد	
٨٢٩/٢١٤		عمير بن الوليد	
		عيسى بن يزيد(٢)	
٨٣٠/٢١٥		عبدويه بن جبله	
٨٣١/٢١٦		عيسى بن منصور	
٨٣٢/٢١	المأمون	كيدر نصر	
٨٣٣/٢١٨	المعتصم		
٨٣٤/٢١٩		المظفر بن كيدر	
		أشناس	
		موسى بن أبي العباس	
٨٣٨/٢٢٣			سعيد بن عبد الرحمن
٨٣٩/٢٢٤		مالك بن كيدر	
٨٤١/٢٢٦		على بن يحي	
٨٤٢/٢٢٧	الواثق		عيسى بن يونس
٨٤٣/٢٢٨		عيسى بن منصور ٢	
٨٤٥/٢٣٠		ايتـاخ	
٨٤٨/٢٣٣	المتوكل	هرثمة بن النضر	
٨٤٨/٢٣٤ — ٤٩		حاتم بن هرثمة	أبو الوزير
		على بن يحى (٢)	
٨٤٩/٢٣٥—٨٥٠		المنتصر	
		إسحاق بن يحي	

أصحاب الشرطة	القضاة	البطاركة	ملاحظات
	عيسى ابن المنكدر (ولى حتى سنة ٢١٤/٨٢٩)		
محمد بن عيسى			
محمد بن عمير			
مطهر			
ابن عبدويه		أنا سيمون	
موسى بن إبراهيم		أنبا يوساب	
اسبنديار			
ابن بسطام			
ذاوه			
المظفر بن كيدر			
	هرون بن عبد الله		
ذاوه (٢)			
حسن بن أبى العباس			
ذاوه (٣)			
معاوية بن معاوية	محمد بن أبى الليث		
ابن منصور			
أبو قتيبة			
محمد بن سويد			
معاوية بن نعيم			
		ميخائيل الثانى	
الهيابى			

السنون	الخلفاء	الولاة	عمال الخراج
٢٣٦/٨٥٠ — ٥١		خوط عبد الواحد	
٢٣٧/٨٥١			
٢٣٨/٨٥٢		عنبسة بن إسحق	
٢٤١/٨٥٥			مدبر
٢٤٢/٨٥٦		يزيد بن عبد الله	
٢٤٤/٨٥٨			
٢٤٥/٨٥٩			
٢٤٦/٨٦٠			
٢٤٧/٨٦١			سليمان بن وهب
			أحمد بن مدبر
	المنتصر		
٢٤٨/٨٦٢	المستعين		
٢٥٢/٨٦٦	المعتز		
٢٥٣/٨٦٧		مزاحم بن خاقان	
٢٥٤/٨٦٨		أحمد بن مزاحم أزجور	

أصحاب الشرطه	القضـاة	البطاركة	ملاحظـات
محمد بن سليمان			
	الحارث بن مسكين	قسما الثانى	
محمد بن عبد الله			
خالد بن يزيد			
يحيي بن أحمد			
		شنودة (حتى سنة ٢٦٦/٨٨٠)	
	بكار بن قتيبة (حتى ٢٧٠/٨٨٣)		
أزجور			
محمد بن اسبنديلر			
أزجور (٢)			
بولفيـا			

كشاف

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٧٣٠/١٩٩٤

I.S.B.N 977-01-4111-9

صدر فى هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ

د . عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر

إعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة

إعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة

د . محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى

عليه عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ١

لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى

د . عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية

د . على بركات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل

د . محمد أنيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية

محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية

شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير

د . نبيل راغب

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة

د . سيدة إسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الإسلامى

د . على حسنى الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر

د . حلمى أحمد شلبى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى

د . محمد نور فرحات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية

د . على السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين

د . أحمد محمود صابون

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى

د . محمد أنيس

٢١ ـ التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ١

توفيق الطويل

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر

جمال بدوى

٢٣ ـ التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ٢

توفيق الطويل

٢٤ ـ الصحافة الوفدية

د . نجوى كامل

٢٥ ـ المجتمع الإسلامى والغرب

تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين

ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة

د . سعيد إسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ١

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ٢

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ ـ مصر فى عهد الاخشيديين

د . سيدة إسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر فى عهد محمد على

د . حلمى أحمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية

شكرى القاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٢

لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى

د . خالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية

د . يونان لبيب رزق

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة

عبدالحميد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمع الإسلامى والغرب جـ ٢

تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين

ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى

٣٧ ـ الشيخ على يوسف

تأليف : د . سليمان صالح

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى

د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان

د. جميل عبيد

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨

د . عبدالمنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمأساة

د . رفعت السعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور

محمد شفيق غربال

ـ رحلة فى عقول مصرية

إبراهيم عبد العزيز

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى**

د . محمد عفيفى

٤٥ ـ **الحروب الصليبية جـ ١**

تأليف : وليم الصورى

ترجمة : د . حسن حبشى

٤٦ ـ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٦ : ١٩٥٧**

د . عبدالرؤوف أحمد عمرو

٤٧ ـ **تاريخ القضاء المصرى الحديث**

د . لطيفة محمد سالم

٤٨ ـ **الفلاح المصرى**

د . زبيدة عطا

٤٩ ـ **العلاقات المصرية الإسرائيلية**

د . عبد العظيم رمضان

٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية**

د . سهير اسكندر

٥١ ـ **تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية**

اعداد : د . عبد العظيم رمضان

٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر**

تأليف : د . إلهام محمد على ذهنى

٥٣ ـ **أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك**

د . محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى**

د . محمد عفيفى

٥٥ـ الحروب الصليبية جـ٢

تأليف : وليم الصورى

ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى

٥٦ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على

د . حلمى أحمد شلبى

٥٧ـ مصر الإسلامية وأهل الذمة

د . سيدة إسماعيل كاشف

٥٨ـ أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة

د . إبراهيم عبدالله المسلمى

٥٩ـ الرأسمالية الصناعية فى مصر

د . عبد السلام عبدالحليم عامر

٦٠ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية

عبد الحميد توفيق زكى

٦١ـ تاريخ الاسكندرية

د . عبد العظيم رمضان

٦٢ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٣

لمعى المطيعى

٦٣ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور

إعداد : د . عبد العظيم رمضان

٦٤ـ مصر وحقوق الإنسان

د . محمد نعمان جلال

٦٥ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية

د . سهام نصار

٦٦ ـ **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى**

د . نريمان عبد الكريم أحمد

٦٧ ـ **الأصول التاريخية لمساعى السلام العربية الإسرائيلية**

د . عبد العظيم رمضان

٦٨ ـ **الحروب الصليبية جـ٣**

تأليف : وليم الصورى

ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى

٦٩ ـ **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية**

د . محمد أبو الأسعاد

٧٠ ـ **أهل الذمة فى الإسلام**

تأليف : أ. س. تريتون

ترجمة : د. حسن حبشى

٧١ ـ **مذكرات اللورد كليرن**

ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٧٢ ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى

د . أمينة أحمد إمام الشوربجى

٧٣ ـ **تاريخ جامعة القاهرة**

د. رؤوف عباس حامد

٧٤ ـ **تاريخ الطب والصيدلة**

د . يحيى سمير الجمال

٧٥ ـ **أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول**

د . سلام شافعى محمود

٧٦ ـ **دور التعليم فى مصر**

د . سعيد إسماعيل على

٧٧ـ **الحروب الصليبية جـ٤**

تأليف : وليم الصورى

ترجمة : د . حسن حبشى

٧٨ـ **تاريخ الصحافة السكندرية**

نعمات أحمد عثمان

٧٩ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر**

تأليف : فريد يونج

ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال

٨٠ـ **قناة السويس والتنافس الاستعمارى**

د . السيد حسين جلال

٨١ـ **تاريخ السياسة والصحافة من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر**

د . رمزى ميخائيل

٨٢ـ **مصر فى فجر الإسلام**

د . سيدة إسماعيل كاشف

٨٣ـ **مذكراتى فى نصف قرن جـ١**

أحمد شفيق باشا

٨٤ـ **مذكراتى فى نصف قرن جـ٢ ـ القسم الأول**

أحمد شفيق باشا

يتناول هذا الكتاب الهام تاريخ مصر فى فجر الإسلام، فيتعرض لنظام الحكم والملكية العقارية، ونظام جباية الضرائب، والنظام الحربى. ويتناول موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى الخلافة، وموقف مصر من محنة خلق القرآن، كما يتناول إنتشار الإسلام والتعريب، وحضارة مصر الزراعية والصناعية والتجارية، والحركة العلمية والدينية.

وقد رجعت فيه الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف إلى أوثق المصادر والمراجع، مما يجعل هذا الكتاب مرجعا لا غنى عنه للباحث المتخصص والمثقف.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب